أدريانا ليسبوا

السيمفونية البيضاء

ترجمة: محمد عثمان خليفة

لم أتمالك نفسي من البكاء بعد الأنتهاء
من آخر سطر في الرواية
المترجم والمحرر



رواية من البرازيل

العربي للنشر والتوزيع

أدريانا ليسبوا

السيمفونية البيضاء

ترجمة: محمد عثمان خليفة

2014

60 شارع القصر العينى – 11451- القاهره
27947566 فاكس: 27921943 - 27954529
www.alarabipublishing.com.eg

السيمفونيه البيضاء

ادريانا ليسبوا

ترجمة: محمد عثمان خليفه

مراجعة: سليمان إبراهيم سليمان

الطبعة الأولى 2014

رقم الإيداع 2013/13027

ISBN : 978-977-319-174-0

MINISTÉRIO DA CULTURA
Fundação BIBLIOTECA NACIONAL

"Obra publicada com o apoio do Ministério da Cultura do Brasil / Fundação Biblioteca Nacional".

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة البرازيلية.

مقدمة الناشر

لا يحتاج المرء بالضرورة إلى أن يكون على اطلاع بتاريخ أو ثقافة شعب ما حتى يفهم تلك الثقافة، ففي النهاية، تُعرف الأماكن بالمشاعر، بالأفراح والأحزان والأسرار التي هي سمات الحياة في كل مكان .يأتي هذا الكتاب من شوارع "ريو دي جانيرو" وريف البرازيل، للكاتبة البرازيلية الشهيرة "أدريانا ليسبوا". وهي روايتها الثانية، وأول رواية تترجم لها إلى الإنجليزية. مُنحت الكاتبة جائزة "خوسيه ساراماجو" عام 2003 وأثنى النقاد على أسلوبها ووصفها وموسيقية كتاباتها.

تتميز ليسبوا بأسلوبها الشعري في السرد، وطريقتها السهلة الممتنعة في التنقل عبر الزمان والمكان والنسيج وذكريات شخصيات الرواية من الماضي والحاضر في سياق سلس. حيث تحكي لنا قصة عائلة برازيلية، مكونة من شقيقتين والأب والأم، والصمت الغريب الذي يسيطر على هذه العائلة. وربما أرادت "ليسبوا" أن تعكس عبر هذا الصمت العائلي صدى فظائع الديكتاتورية العسكرية التي استمرت لعقدين في البرازيل وتشبيهها بالأسرار العائلية التي لا يملك أيٌّ من أفراد الأسرة الشجاعة الكافية لمواجهتها .تبدأ الرواية من ريف البرازيل حيث ولدت ونشأت الشقيقتان، ثم ذهابهما إلى "ريو دي جانيرو" لاستكمال تعليمهما على فترات مختلفة، وتسلط الرواية الضوء على الجانب العاطفي في حياة الشقيقتين وعن الرجال الذين أحببن، والذين تزوجنهن بعد ذلك .في البداية يتم إرسال الشقيقة الكبرى المطيعة "كلاريس" إلى "ريو"، وتقيم مع العمة "برنيس"، تبقى "ماريا آينس" التي تختلف شخصيتها عن "كلاريس" تماماً في المنزل، فهي قوية الإرادة ومستقلة وتحلم بأن تصبح

راقصة باليه، لكن يتم إرسالها أيضاً إلى "ريو" بعد ذلك للدراسة. يذهب بنا السرد إلى ما بعد أربعين عاماً، حيث تنتظر كلاريس والفنان العجوز "توماس" ماريا آينس وابنتها ادواردا، وهكذا عبر هذه التنقلات الزمنية تسمح الكاتبة لشخصياتها بعزف ألحانهم الخاصة بطريقة تذكرنا بتقنية الكاتبة "توني موريسون" في روايتها "جاز ."أحد الأفكار الرئيسية في الرواية هي لوحة الفنان "جيه.ام.ويسلر": "السيمفونية البيضاء رقم 1: الفتاة البيضاء". وهي اللوحة التي يستدعيها "توماس" عندما يرى "ماريا آينس" لأول مرة تقف في النافذة بمنزل عمتها في "ريو". وكما استخدم "ويسلر" ارتباطات موسيقية في لوحاته، كذلك تبني "ليسبوا" روايتها بزخارف موسيقية على طول روايتها لقصة الشقيقتين. ومن الجدير بالذكر أن "ليسبوا" حصلت على شهادة في الموسيقى وعملت كمغنية جاز لفترة في باريس.

أدريانا ليسبوا ..

ولدت "أدريانا ليسبوا" في "ريو دي جانيرو" سنة 1970، حصلت على شهادتها في الأدب والموسيقى. نُشر لها عشرة كتب، تم ترجمتها ونشرها في 30 دولة حول العالم. منها 6 روايات (هانوي 2013- الغراب الأزرق 2010- كوخ فواكه الكاكي الساقطة 2007 - قبلة كولومبية 2003- السيمفونية البيضاء 2001 – خيوط الذاكرة 1999).

اعتبرت "ليسبوا" من أهم الكتاب البرازيليين المعاصرين بعد صدور روايتها "السيمفونية البيضاء" التي حازت على جائزة "خوسيه ساراماجو" للأدب، كما تم اختيارها ضمن أفضل 39 كاتباً لاتينياً معاصراً تحت سن التاسعة والثلاثين العام 2007.

حتى لو راح البكاء سدىً

فعلي أن أبكي

فاليأس جاثم مقيم

وكذلك ذكراه

تقتلك أحياناً

مارجريت دوراس

بطاقة فهرسة

ليسبوا، أدريانا

السيمفونية البيضاء: رواية / أدريانا ليسبوا ، . ترجمه محمد عثمان خليفة . - القاهره : العربى للنشر والتوزيع ، 2013 ، . ص ؛ سم .

تدمك 9789773191740

1- الادب البرازيلي-

أ- عثمان خليفة ، محمد (مترجم)

ب- العنوان 869.3

الفصل الأول
فراشة...فريسة محرمة

لا يزال هناك وقت قبل أن تحضر.

ظهيرة الصيف الرطبة تمتزج بغبار الشارع لتمتد عبر الأجواء. كل شيء هادئ، منهك، نائم. رجل بعينين واسعتين (شاحبتين بشفافية غريبة) يتظاهر بمراقبة الطريق. رسمت عيناه خرائط لأمكنة أخرى، ونقبت في شظايا الذاكرة كطفل يجمع الأصداف من رمل شاطئ. أحياناً تفرض اللحظة الحاضرة نفسها، فيظن أنني سأستعين بالتراب في قطعتي التالية. ولكن العالم البني المغبر من حولي تكشف ها هنا عن بنت ترتدي الأبيض، وكأنها خرجت للتو من إحدى لوحات «وسلر».

تذكرها «توماس». إلا أن ذاكرته كانت تائهة، مهشمة، شظايا هيكل عظمي لأحد وحوش ما قبل التاريخ، دفنتها وحفظتها الصدفة، ولكن يستحيل إعادة تركيبها كاملة، لا بعد ثلاثين عامًا. ولا بعد مائتي مليون عام.

نام الكلب عند قدميه وحلم. يئن أحياناً. وفي لحظة رفع رأسه الأسود في أبيض بغتة وبدأ يلعق مخلبه حتى يزيل عنه برغوثة رمل. تسمع «جورجينا» الطباخة صخب دواجنها من دون إنصات. ظهيرة مملة أخرى، وكأنها إطار مطاطي رث متهالك. أحفورة مضى عليها مائتا مليون عام.

شجيرات «البوجينفيلا» مزدهرة بوحشية. وهي هنا قبل أن يكون «توماس» بزمن. ولا أحد يدري إن كانت ستبقى بعد رحيله أم لا.

ببساطة اختار الكلب، الذي كان بلا اسم ولا صاحب، أن تكون هذه الدار داره، واعتبر نفسه صاحب تلك البقايا التي اعتادت الطباخة أن تضعها فوق صفحة من جريدة له مرتين كل يوم، جوار خزان الغسيل. كان قد انتهى من إزالة البرغوث وعاد إلى استرخائه.

تدمع عينا «توماس» الشاحبتان بين اللحظة والأخرى، وذلك بعدما ترسخت عنده عادة منذ الطفولة. ألا وهي أن يبقي عينيه على اتساعهما من دون أن يرمش، وكأنه يعذب نفسه ويراهنها، فينتصر دوماً انتصاراً مآله المحتوم الهزيمة. فتملأ الدموع عينيه. وهكذا، وفي هذه الظهيرة الحارة الرطبة، انساب خطان من الفضة فوق وجنتيه، ولم يلحظهما أحد، لا الكلب، ولا «جورجينا» الطباخة.

لم يكن سعيداً. وكذلك لم يكن تعساً. يعتبر نفسه مرتاحاً، وأنه قد دفع ثمناً عادلاً لهذه الراحة، ونال عن ذلك ما يستحق. قدم تنازلات. تخلى عن فانتازيا إمبراطورية خيالية. ولم يؤثر فيه سوى نفسه وذلك الكوخ المنسي وسط محاصيل لا يلقي أحد لها بالاً، ودروب مغبرة خلال موسم الجفاف لتتحول إلى طين تحت وابل المطر بعد حين. حينما قصد العيش هناك، أدرك أن تلك نهاية أحلامه. وفكر الآن أن بوسعه استخدام التراب في قطعته التالية. أفكاره ضئيلة للغاية. وكأنها لمحة عطر تركته امرأة وراءها ومضت.

تحلق فوقه ـ فى كبد السماء ـ طائرة، لا يصله صوتها، فهي بعيدة، إذ لا توجد مطارات على مقربة من هنا، ومؤكد أن مقصدها إما جالياو أو مطار سانتوس دومونت في ريو دي جانيرو. اقتربت «جورجينا» الطباخة -التي فقدت جميع أسنانها ووضعت محلها طقم أسنان تعرض بياضه بكل فخر- من «توماس» في صمت، ووضعت قدحاً من القهوة ذات الرائحة الذكية فوق

الطاولة الحديدية أمامه. هي قليلة الكلام، بل لا تحب الكلام أصلاً. أخبرها حدسها منذ زمن أن لا أمان للكلمات. فهي مثل حيوان يتربص لفريسته بكل ما يمثله هذا من قسوة وظلم. رمقت الطقس حولها وتنهدت تنهيدة لا معنى لها. عادت إلى الداخل من حيث أتت، حيث الموقد وفوقه الأرز والفاصولياء، وإلى حيث وعاء اللحم الذي تغلي مرقته. ميز «توماس» سيارة «إلتون خافيير» نصف النقل الجديدة، وهي تقطع الطريق مسرعة، لتثير الغبار حولها. بدت له حركات متوجسة، وكأنها علامات تنفس جسد نائم. لا شيء أكثر من ذلك.

سكر القهوة زيادة، زيادة جداً، لقد تعود «توماس» أن يحبها على هذا النحو، كعادة أهالي هذه المنطقة، الشحيحة قهوتها، الغزير سكرها. رفع الكلب، الذي ضايقته حشرة جديدة، رأسه وبحركة واحدة سريعة التقمها داخل فمه. حدق «توماس» في ساقيه العاريتين من دون مبالاة. على جلده آثار قاسية خلفها هذا المكان البعيد جداً عن الخرسانة والأسفلت؛ هي مثل الوشم؛ آثار البعوض، القراد، وبقية الحشرات الأخرى. وهناك ندبة صغيرة على سمانة ساقه اليسرى، بقيت علامة على إزالة "يرقة" إحدى الحشرات في المركز الصحي في جابوتيكابايس. أشياء تراكمت عبر السنين، منذ ذهب للعيش هناك. قريباً جداً من تلك الفتاة التي ترتدي الأبيض، وأبعد ما يكون عنها. عند قدميه خيط من عمال النمل يشق طريقه على الأرض.

لا هو بالسعيد، ولا هو بالتعس. مجرد رجل سعى وراء هذا الصمت المحدود، مزيج من نفسه ومن الغبار الذي تخلفه عربة «إلتون خافيير» وراءها على الطريق وكأنه خاطر عبر.

في غرفة معيشة صغيرة ذات أرضية حمراء إسمنتية متداعية، تقبع لوحاته في انتظار «كانديدو» ليأخذها في نهاية الأسبوع. لوحات متواضعة في حجمها

وموضوعاتها تباع الواحدة بمائة ريال، لتجد لنفسها مستقرًا فوق جدران غرف المعيشة بشقق متوسطي الدخل، أو في حجرة انتظار لدى طبيب، أو داخل مكاتب المحاماة. اشترى كاتب المحكمة في جابوتيكابايس اثنتين، أو هذا ما أخبره به «كانديدو». واحدة ليعلقها في مكتبه، والأخرى لتكون هدية زفاف ابنة أخيه. ومن حين لآخر يطلب منه أحدهم أن يرسم له بورتريه، بسعر مضاعف، وهو ما يطرب له قلب «كانديدو»، غير أن «توماس» يبقى غير مبالٍ، ويظل مزاجه رتيبًا مثل ظهيرة يوم جاف.

دوماً ما تجد في لوحات مناظره الطبيعية طريقـًا يفضي إلى لا مكان. يختفي وراء شجرة، أو حول منحنى، أو أسفل منحدر. وفي الركن السفلي الأيمن توقيعه. يقوم بالتوقيع على لوحاته لا لشيء سوى أن المشترين يصرون على ذلك. وقت أن كان في العشرين من عمره، كان «توماس» يرفض أن يلوث أياً من لوحاته بتوقيع من شأنه أن يفسد تكوينها الكلي، وكأن أحدهم يسعل أثناء حفل لموسيقى كلاسيكية، أو كأن أحدهم أضاء أنوار قاعة السينما قبل انتهاء الفيلم. كان هذا اعتقاده آنذاك. أما الآن، فهو ينفذ رغبة الزبون، والزبون يرى أن التوقيع يضفي أصالة على اللوحة، حتى ولو كان توقيع فنان مغمور. يوقع اسمه باللون الأسود وبخط طفولي. حكى له زبون ذات مرة أن ابنة أخيه سافرت إلى أوروبا. ذهبت إلى باريس. وجلبت له صورة فوتوغرافية مكبرة. كانت بالأبيض والأسود، لرجل يقبل امرأة في وسط الشارع. قال له إنه لم يكن ليعلق مثل تلك الصورة في غرفة معيشته. ولكنه سيعلق لوحته هو. فالمنظر الطبيعي فيها جميل، كما أنها لوحة زيتية، وبذلك فهي تساوي الكثير.

ابتسم «توماس» وأشعل سيجارة، فتصاعد دخان حلزوني وكأنه أفعى مسحورة. في لحظة رسم الدخان وجهًا أنثويًا، سرعان ما تبدد في الهواء. مل

الكلب من النوم، فنهض، وحك أذنه بمخلبه، ثم رفع يده في الهواء للحظات. نظر إلى البعد، فأدرك شيئاً فات الرجل. التفت وراءه فرأى الباب المفتوح في الخلف وانتابه هاجس حيواني جعله يبتسم ابتسامة حيوانية. ثم تقدم خطوتين قبل أن يرقد من جديد، فوق عشب أعلى وربما أبرد.

لم يعد «توماس» يجد جديداً في أي شيء. كلماته قليلة، ربما لمكوثه جل وقته مع طاهية لا تحب الكلام، وتتواصل معه بالبسمات وكلمات أحادية المقطع. لا يتكلم إلا حينما يذهب إلى جابوتيكابايس، وهي أقرب قرية، ليشتري بعض احتياجاته. وخلاف ذلك، يتكلم أثناء زيارات صديقته «كلاريس» له، وزياراته هو إلى «كلاريس». وهي زيارات لا يخرج منها سوى بحقيقة واحدة: لم يعد هناك أي جديد. لقد انتهى السباق، ولا يسع «توماس» الآن سوى الجلوس عند خط النهاية، الذي تصادف أن يكون هو نفسه خط البداية، وكأنه لم يتحرك بتاتاً، أو كأنه قد قطع دورة كاملة هائلة، 360 درجة. لم يبق أمامه سوى أن يراقب الأرض وهي تدور، والفصول وهي تتعاقب. وفي ظل واقع كهذا، كانت صحبة «كلاريس» مناسبة وبلا متطلبات، وبلا حراك، وبلا جلبة. فلا يوجد اختلال من شأنه أن يثير التساؤلات، فهي صحبة صامتة مثلها مثل أي شيء آخر. إن شكل الدخان وجهاً أنثوياً، فلن يكون هو وجه «كلاريس».

على أن «توماس» يدرك أن هذا الوجه يستحضر امرأة أخرى، بالرغم من كل شيء. تلك المرأة التي سيراها مجدداً في الغد.

امرأة في ذاكرته ترتدي الأبيض على الدوام.

كانت تلك المرأة ذات الرداء الأبيض، منذ سنوات مضت ـ هى «ماريا إنيس». وكانت قد زرعت "شجرة مال" مع ابن عمها الذي كان اسمه «جواو ميغيل». ابن وابنة عم باسمين مزدوجين: هذا هو القاسم المشترك الوحيد بينهما.

اشتكى «جواو» من أن "شجرة المال" لا تنمو، فلم تعقب «ماريا» سوى بأن عليه التحلي بالصبر. أتعتقد أن الأمر بهذه البساطة؟ إننا نزرع البذور فتنمو النبتة في لمح البصر؟ بل عليك أن تنتظر ثم تنتظر.

ـــ إلى متى؟

ـــ أيَّأمًا.. أسابيع.

ـــ إلى هذا الحد؟

لم تجبه. أزاحت الغبار بلطف أم، ثم تعقبت بعينيها فراشة تحلق عبر الفراغ المحدود نحو المحجر، حيث قفزت بجرأة إلى الأسفل.

وانتبه الآن، فلا تذهب لتخبر أباك أننا كنا هنا، هذا ممنوع، قالتها له «ماريا».

ـــ ممنوع؟

ـــ أجل. فهو يحظر علي المجيء إلى هنا، فهنا خطر محدق.

خاف «جواو ميغيل»، ولكن من الواضح أن شجرة المال، مثل تلك التي زرعها للتو مع ابنة عمه، ستكون في مكان سري. لا يصل إليه أحد. مكان محرم.

استغرق الصغيران ساعة قبل أن يصلا إلى أعلى التبة، ويعبرا المرعى والغابة الصغيرة بالأعلى (وكأنها بقعة شعر صغيرة تبقت فوق رأس أصلع

تمامًا)، تهاجمهما أسراب القراد، حتى حافة المحجر حيث عائلات السحالي الكسولة التي تقبع مموهة تحت الشمس.

وهما بالأعلى كانا يستندان إلى أعلى صخرة؛ فيتمكنان من مشاهدة العالم كله، أو هذا على الأقل ما بدا في عيني «ماريا إنيس» ذات الأعوام التسعة، إنه العالم كله. هذا هو النهر، شريط ذهبي رفيع، والحيوانات ترعى وكأنها مجسمات دقيقة، والدار والزريبة، كأنها ألعاب بلاستيكية ملونة. وعلى الجانب الآخر، زاد الفراغ عمقاً بفعل انحدار مفاجئ: بالأسفل عند المقر المهجور لمزرعة «إبيس»، أشباح تجول، وحلزونات مستديرة تقبع في الجدران، وتنمو النباتات على السطح. يتقشر الطلاء على النوافذ شيئاً فشيئاً. ومع كل يوم يمر يتقدم كل شيء في العمر ويصير أكثر قابلية للكتمان، أشد إيلاماً مثل بقية الحقائق التي سرعان ما ستدركها «ماريا إنيس». هل أخبرتك قبلاً عن مزرعة «إبيس»؟ سألت «جواو ميغيل»، وكذب عليها بقوله لا، فقط لأنه يريد أن يسمع منها الحكاية الدموية من جديد.

بدأت تحكي: يقولون إن صاحب المزرعة قد جن جنونه لأنه وجد زوجته مع رجل آخر. فهرع إلى المطبخ والتقط سكيناً كبيرة. يقولون إنه كان ثملاً، وأنا لا أدري إن كان بوسع أحد أن يقدم على فعلة كهذه إن لم يكن ثملاً. ربما كان مجنوناً. أحضر السكين وقتل زوجته، زوجته! هل تتخيل هذا؟ طعنها سبع عشرة طعنة. بينما نجح الرجل الآخر في الهرب واتصل بالشرطة، وألقي القبض على الزوج.

سكتت «ماريا»، كأنها تتذوق الصمت على طرف لسانها وتستوعب مذاقه الحلو المر، وكأنه حلوى التمر الهندي. ثم واصلت الحكي، وكانت حكاءة قديرة، فحكت له كيف غضب أهالي القرية الهادئة جابوتيكابايس، وكيف انتفضوا كموجة مد، واقتحموا مركز الشرطة ثم أعدموا القاتل في وسط الشارع، بالعصي

والحجارة، ثم بالرصاص. أما ابنته، الطفلة التعسة التي ورثت تلك الأراضي، فقد نضجت مبكراً غصباً عنها، وكأنها ثمرة فاكهة داخل صوبة. كان اسمها «ليندافلور». يحكي بعضهم أنها كانت ملاكاً أشقر، ويقسم غيرهم أن شعرها كان أحمرَ كاللهب وأنها كانت شديدة البياض، أو أنها كانت سمراء كبقية البرازيليين،وأن شعرها ناعمٌ كثيف . قالوا إنها كانت خبيثة كأمها، وقالوا إنها عنيفة مثل أبيها، بينما كان هناك من يقول بأنها كانت حلوة مجنونة. كما اختلفت الأقاويل حول مكانها الحالي. فهي مع عمها وعمتها في فريبورغو، وهي مع أبناء عمومتها في ريو دي جانيرو، وهي قد سافرت خارج البلاد. لم تتأكد «ماريا» من أية معلومة، ولم تكن لتسأل أبويها، فالموضوع ممنوع هو الآخر.

كانت الممنوعات تغويها بنفس القدر الذي تبث فيه الخشية في قلب «كلاريس»، أختها الكبيرة، والتي توشك أن تدخل عامها الثالث عشر، وتتصف بأنها مطيعة ككلب مدرب، فلا تفكر أبداً في الاقتراب من المحجر ولا تجرؤ على أن تسأل عن مأساة مزرعة «إبيس».

سألت «ماريا» ابن عمها الثاني وهي تشير إلى الشجرة: "هل تريد أن تعرف ما الذي سأفعله بنصيبي من المال يوم أن تنمو الشجرة وتمتلئ بثمارها من العملات؟". سوف أسافر بالسفينة، إلى أوروبا. قال لها إن والده يسافر كثيراً، إلى أوروبا بالطائرة أو بالسفينة، ولكنه لم يكن مقنعاً في كلامه.

كانت زراعة شجرة المال باستخدام عملة معدنية كبذرة فكرتها هي. وهذا طبيعي، فهي «ماريا إنيس»، المبتكرة الجسورة الفضولية. نظرت إلى ابن عمها في شفقة حقيقية. كلما تذكر «جواو ميغيل» أباه غص حلقه ولكنه لا يبكي كانت تعتريها رغبة في أن تحميه، إنه ابن عمها الوحيد المسكين الذي يسافر أبوه كثيرًا بالطائرة مع عشيقته إلى أوروبا.. إلى إيطاليا، بلده الأم. بينما تقبع زوجته

في مصحة نفسية. تدري أن مثل هذه المعلومات محرمة عليها تحريماً، ولكن لدى (ماريا) طريقة في التلصص على حكاوي الكبار. يسافر مع عشيقته. تاركا ابنه الوحيد منسياً طيلة ثلاثة أشهر هي عمر إجازة الصيف، في مزرعة أبناء عمه، في ضواحي الولاية.

مسكين يا «جواو ميغيل»، قالتها له «ماريا إنيس»، بنبرة حملت الإخلاص والسخرية واللا مبالاة في آن واحد. ضغطت بأصابعها على معصم ابن عمها الثاني وزوجها، كان معصمه قد أصيب أثناء مباراة تنس خاضها صبيحة اليوم الأحد بعد مرور خمسة وثلاثون عاماً على صبيحة ذلك الأحد الذي صعدا فيه إلى التبة البعيدة عن هنا جداً، حين اقتربا من المحجر المحرم ليرقبا ميلاد شجرة المالداعبته بلطف، وكأن أصابعها جناح حشرة عابرة، ثم عادت ترتدي نظارة القراءة لتعاود تصفح الجريدة. قالت إن صحف الأحد دوماً ما تكون غبية ولا تجد فيها ما يهم. فأخبرها «جواو ميغيل» بأن هذا هو المراد تماماً، فصحف الأحد لقارئ الأحد.

استمرت «ماريا» تقلب الصفحات، وتقف عند خبر هنا وموضوع هناك، بالرغم من أنها لا تعتبر نفسها من ضمن قراء الأحد. تصفحت المجلة الصغيرة التي تعج بالشائعات عن الممثلين الأمريكان وبأخبار عن الموضة ونصائح عن الجمال، حوار، إعلان تأمين صحي، عمود لكاتب ضحل الفكر. توقفت مجدداً لترشف آخر رشفة في قدح القهوة القوية الداكنة، كما يشربونها في إيطاليا. تعلمت أن تشرب

قهوتها على هذا النحو، بعد كل هذه الأسفار. أعادت القدح الأبيض فوق صحنه على المنضدة ذات السطح البلوري والقاعدة الرخامية البيضاء.

الطقس حار للغاية والصباح أزرق خداع. أزرق كثيف للغاية، وكأنه لون في لوحة زيتية، أزرق صناعي. في شوارع ريو دي جانيرو يمر موكب من نساء بدينات استطعن أسر أفخاذهن السمينة في سراويل قصيرة، ثم ارتدين فوقها قمصانًا فضفاضة تكشف عن أذرع سمان وكروش منتفخة تحت أثداء بالونية. وكذلك فوق الأرصفة تمشي سيدات متأنقات من الصنف الذي يعتني بحواجبه، وقد كشفت أثوابهن عن أشكال مشدات الصدر أسفلها. فوق جباههن، وخدودهن، وشفاههن، يسيل عرق لا تتوقف معه محاولاتهن لمحوه بالمناديل القطنية. بينما خلع الرجال قمصانهم، كاشفين عن كروش راسخة لوحتها الشمس. الكل لوحته الشمس، فالوجوه مثل حبات الطماطم، وخطوط أحبال ملابس السباحة ظاهرة فوق الظهور، والبشرة تتقشر من فرط التعرض للشمس، والشفاه متورمة كثمار ناضجة للغاية. القيظ في كل مكان، ولا يجدي معه الهرب إلى البحر، هذا لأن الشمس تشوي بالرغم من محاولات ماء البحر البارد المالح إقناع من يلوذ به أن فيه الملاذ. الحقيقة أن ماء البحر يزيد من شراسة آلام البشرة التي حرقتها الشمس. الحر في الرمال، وعلى الأرصفة، وفي واجهات المحال، وداخل الأسفلت، وفي الأشجار، في كل مكان، في الهواء، في الجدران، في الكلاب اللاهثة بألسنتها التي تساقط لعابها، في ثمار البابايا فوق المائدة، ومطبوع في زرقة السماء الخداعة.

على أنه كان في غرفة المعيشة الكبيرة لـ«ماريا إنيس» و«جواو ميغيل» مخدر جميل متمثل في مكيف هواء قوي القدرة. وكانت الشقة الكائنة في حي

ليبلون أقرب ما تكون إلى حوض للكائنات البحرية، حيث تجد في مياهها المثلجة عددًا من الأسماك التي لا اسم لها.

اقترح عليهم مصمم ديكور كل هذا البياض: أريكة بيضاء، وجدران بيضاء، أفكار بيضاء، كمية كبيرة من الرخام الأبيض، وقطع من الأمونيوم البراق، كما في هذين المقعدين. وخشب الليمون، كما في هذه الأرفف. عالم من الفانتازيا.

لم يأت المال الذي اشتريا به كل هذا من تلك الشجرة التي زرعاها بالقرب من محجر محرم منذ خمسة وثلاثين صيفاً مضى. بل جاء من إرث طبيعي للتجارة من «أزوباردي» الكبير، إلى «أزوباردي» الصغير، ثم الأصغر، إلى أن وصل إلى «جواو ميغيل». في ذلك العام، مثل كل عام، استقبل الكبير ضيوفه في فيلته توسكانية الطراز، حيث عاش بعد تقاعده لما وصل السبعين. كان مفعماً بالحيوية والرغبة في شرب الشيانتي ومرافقة الفتيات.

ستغادر رحلة «جواو» ليلاً. سيتوقف أولاً في كورتينا دي أمبيتسو. وقررت «إدواردا» الذهاب مع أمها إلى حيث المصير المختلف جذرياً حينما تلتقي عمتها «كلاريس»، عند أطراف الولاية، وهو مكان لم تطأه قدم سائح من قبل. وستكتشف أنه مكان يلفه الغموض، حتى في ساعات النهار.

حسب البروتوكول، سترافق «ماريا إنيس» «جواو». يمكنها وبقوامها المشوق هذا أن تخفي أي عيب في جسدها بحسن اختيار ملابسها، مع ابتسامة تعلمت أن تجعلها طبيعية على وجهها، وحضور قوي معطر، ومن دون إفراط ولا تفريط. مثلها مثل من تعلم لغة جديدة إلى حد الكمال، فانمحت لغته القديمة كلياً.

على أن عواطفها مدفونة بداخلها، ولن يمكنها التعبير عنها إلى بمفردات لغتها القديمة، لغة فتاة ساذجة إلى حد البساطة. فتاة اختارت حياة المزرعة بدلاً من فيلا بابا «أزوباردي». حياتها بدلاً من حياته. أسرارها. منفاها الاختياري.

طوت الصحيفة للمرة الرابعة، وأزاحت عن عينيها نظارة القراءة. وأكدت على «جواو» أن يستخدم قربة الثلج وأن يأخذ أقراص الحموضة. أجابها «جواو» في تحفظ وهو يشير بيده إشارة مبهمة. لم يكن يعول كثيراً على نصائح «ماريا» الطبية، بالرغم من تلك الدبلومة التي تحملها. وهي تعلم ذلك، فهزت كتفيها، وأخبرته أن يتصل «بفارغاس» في حال اشتدت وطأة الحموضة عليه. فهو المتخصص، ورقمه في دفتر أرقام الهاتف. نهضت ومشت عبر الغرفة. قالت له إنها ستأخذ حماماً، وتركت وراءها عبقًا معطرًا خفيفًا حينما لامست قدماها الحافيتان الأرضية الباردة.

لم يكن الحمام مكيف الهواء، فكان من الصعب ألا يتصبب المرء عرقاً فيه. تأملت «ماريا» تلك الحديقة المصغرة التي تنمو في الركن القصي من الحمام. حديقة مصغرة داخل حمام. نبتات صغيرة تخرج منها أزهار رقيقة. لو أن «إدواردا» لا تزال صغيرة، لكانت تلعب هناك مع الدمى؛ دمى باربي. ولكن «إدواردا» كبرت، كما أنها لم تكن تحب باربي. يوم أن تكون لدي بنت سوف أهديها كثيرًا من الدمى القماشية لتلعب بها (وحين تبلغ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة سوف تنقاد للتيار الناقم على الثقافة الأمريكية الإمبريالية مثلها مثل بقية جيلها).

بدأت «ماريا» تخلع ملابسها أمام المرآة في آلية. لم تكن تنوي تأمل جسدها العاري، فهو مألوف لها، راضية عنه كما هو. بحركة سريعة خلعت الروب لتواجه من جديد تلك الحقيقة الحميمية، جسدها، الذي لا يستحضر في عينيها بأي حال أياً

من صور باربي أو نماذج الجمال الأخرى ذات التضاريس التي يمكن تمييزها ومن ثم تسويقها. فخذاها عريضتان قليلاً وبطنها أبعد ما يكون عن أن يوصف بالمشدود. بقي ثدياها ـ كما هما ـ صغيرين ضعيفين، حتى بعد كل هذا العمر الذى أرضعت فيه طفلة. هناك ندبة سببها عملية الزائدة التي أجرتها منذ خمس سنوات. خلعت سروالها الداخلي، ولا يزال بوسعها تبين آثار العملية القيصرية، تلك الندبة الصغيرة الوردية المقوسة بطول أربع بوصات.

فتحت صيدلية الحمام وأخرجت أنبوباً أزرق: لانكوم - باريس. غسول للبشرة ينعشها ويبث فيها الحيوية. لا تذكر من أين أتت به، ولكن له عبقًا رائعًا وقوامًا رقيقًا لطيفًا. لونه أزرق مثل سماء ديسمبر الملبدة التي تقبع فوق ريو دي جانيرو وكأنها لعنة.

اقتربت بعينيها الداكنتين من صورتها المنعكسة على المرآة، ثم التقطت بالملقاط بعض شعرات من حاجبيها الرفيعين. تذكرت «جواو» ومعصمه المصاب، ثم حاولت أن تنسى كليهما. ليس من المستحسن أن يفكر المرء في قرارات اتخذها بالفعل ومنذ أمد بعيد. يبدو لها «جواو» راضياً، وكذلك «ماريا إنيس» راضية. السنوات تكفلت بكل ما ترسب ولطفت كل تهور. لم تعد «ماريا إنيس» تشعر بالألم حينما يلتقط الملقاط شعرة ويقتلعها من جذورها، ويبدو أن جلدها قد اعتاد هذا أيضاً.

ارتفع الماء حتى وصل عنقها، وللماء روح حيادية محببة. بارد، وهو أمر مطلوب في حمام كهذا، في مدينة كهذه، في فصل كهذا، حيث العرق في كل مكان. أسندت عنقها إلى حافة الحوض. أغلقت «ماريا إنيس» عينيها وأخذت نفسا عميقا، وخطر لها للحظة أن الأمر قد يكون ممكناً.

لم يعد لدى «كلاريس» الآن جراح، بل ندبات فحسب، آثار كي خافية عن الأعين. راقبت من دون اهتمام العربة الجديدة التي اشتراها «إلتون خافيير» منذ بضعة أسابيع، والتي تمرق الآن عبر الطريق المتربة، وتترك خلفها سحابة غبار كأنه خاطر عابر، شك، بقايا سؤال منسي في الماضي. ليست «كلاريس» بغريبة عن الجحيم، ولكنها نجحت في السيطرة على وقتها وفي التخلص من مخاوفها. ومع أن «إلتون خافيير» لم يعد لها منذ زمن، إلا أن العادات القديمة تبقى، ومنها ذلك الوصف الذي بقيت تستخدمه بتلقائية لم تنقطع: «إلتوني». لم تجد عيباً في ذلك.

كانت تطل من نافذة غرفة المعيشة على الحياة التي تمضي في تلك الظهيرة الساكنة، بخبرة امرأة أضحت في الثامنة والأربعين (أكبر من أختها «ماريا» بأربعة أعوام): الزمن متوقف، ولكن المخلوقات تمضي. دونت العبارة في مفكرتها، وكأنها اعتراف، ولم تفكر كثيراً في أن تدوين الخواطر في مفكرة كان عادة من عاداتها، وكذلك أختها. لا يهم، فبعد كل هذه السنوات، وتلك الحكاية التي كانت تساوي أكثر من سنوات وعقود وقرون، صار كل شيء نسبيًا للغاية. فحتى الاعترافات التي تدونها في مفكرة كانت، وبالرغم من كل شيء، سخيفة للغاية.

الثامنة والأربعون، وندبات في معصميها. تركت «كلاريس» عينيها تمسحان الأرض (لم يعد هناك الكثير منها) التي كانت ملكاً لأبيها، «أفونسو

أوليمبيو»، وقد باعتها من دون ندم، ولم تحتفظ سوى بالمساحة المعزولة ذات البنايات، حيث تعيش. رأت بيت المزرعة القديم، حيث «توماس»، حب أختها القديم، والذي يقضي أيامه الآن في رسم لوحات خاوية من الطموح؛ مناظر طبيعية فارغة من أي حياة، طبيعة صامتة.. صامتة، تجريدات لا معنى لها، وهي أصلاً لا تبتغي أن تعبر عن أي شيء. بورتريهات غامضة. يبدو أن «توماس» يسعى وراء الابتذال بنفس الإصرار الذي سعى به منذ عقود وراء تحقيق موهبة فائقة كان مقدرًا للبشرية أن تعرفها وتعترف بها. هجر كل هذا لأجل أن يجتاز محنة خسارة امرأة. سلبت منه كل شيء.

شاهدت «كلاريس» أيضاً أسوارًا تغطيها الحشائش المعلقة، وأسوارًا أبعد قليلاً من الخشب الأبيض المطلي حديثاً. رأت القطيع الواقف بلا حراك في المرعى، أغلبه قابع في الظل الوارف أسفل شجرة مانجو، تحرك أفواهها ببطء وتهش الحشرات عنها بذيولها. ثم استدارت بعيدا عن النافذة لتجد أمامها صورة فوتوغرافية «لأوتاسيليا» أمها (وقد ورثت عنها تلك الزرقة الزبرجدية في عينيها).

تحسست «كلاريس» الندبتين التوأم بأطراف أناملها، واحدة في كل معصم. ابتسمت ابتسامة حزينة، لا غموض فيها، حينما أدركت أنها في النهاية قد نجت بنفسها.

كانت الندبتان اللتان خلفتهما السكين ظاهرتين للغاية، حتى إن «كلاريس» اعتادت أن تخفيها بارتداء ساعة في يد وسوار في الأخرى، كلما خرجت إلى مناسبة عامة، وهو الأمر الذي نادراً ما يحدث. لم تكن تحتاج إلى أي من هذا الآن، وكانت تفضل دوماً أن تبقى حافية القدمين، ترتدي قميصاً قطنياً قديماً واسعاً ملطخاً بالطين، وتعقص شعرها الكثيف ذيل حصان غير مهندم.

لم يعد في إصبع يد «كلاريس» اليسرى دبلة زواج. تلك الدبلة التي كانت منذ زمن (زمن بعيد) تحمل اسم «إلتون خافيير». لقد باعتها منذ سنوات.

نجا بعض الأثاث من مذبحة الزمن. قماش الأريكة الكبيرة مهترئ في عدة أماكن، كذاكرة «كلاريس» حينما تجول في الأيام التي كان يمكن خلالها أن تستلقي بعد الغداء، في ظهيرة حارة جافة، وتنام ساعةً مرتاحة البال. وقت أن كانت حياتها ملأى بالآمال المخلصة. بقيت أمام المدفأة بضع قطع من الحطب نصبت العناكب فوقها شباكها. قضيب تذكية نارها صدئ. السجادة كالحة، ولكنها نظيفة. وأصاب إصفرار بسيط صورة «أوتاسيليا»، بورتريه غسل يديه في التاريخ. بقيت معلقة فوق نفس المسمار ولم تكن «كلاريس» لتنقلها من مكانها، لم تكن لتتخذ أي قرار يتعلق بذكرى أمها، ولا يحق لها هذا، فقد كانت «أوتاسيليا» غريبة عنها. فوق منضدة القهوة، جوار منفضة سجائر عتيقة، نسخة من رواية «توماس مان»: «الموت في فينيسيا». كتاب حرمته عليها «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو»، وهو الآن قابع وكأنه يدنس رغبتهما. وكأنما يصحح الفجوة الزمنية، بقي المصلى مفتوحاً ببابيه الخشبيين حاوياً صورة مريم العذراء والمسيح في حجرها. وبداخل المزهرية الحجرية الملساء، التي ابتيعت من أورو بريتو، وهي قرية في ولاية ميناس جيرايس، التي نشأ فيها «أفونسو أوليمبيو»، قبعت أزهار زاهية جافة، تحمل عبق أشياء غير ذات بال.

كانت هناك ثلاث غرف من الأربع مخصصة للنوم. وكأنها احتمالات لم تتحقق. تفتح النوافذ مرة في الأسبوع لتزور أشعة الشمس أرضية المكان. تمسح الغرف الثلاث وتنظف من الغبار، ويلمع الأثاث، وتختبئ الأبراص والعناكب في الفجوات في انتظار انتهاء هذه الحملة.

أما الغرفة الباقية فهي التي تشغلها «كلاريس»، وهي نفس الغرفة التي شغلتها دوماً والتي لم تنجح في الفكاك منها أبداً. لماذا لا تعترف «كلاريس» بذلك؟ فالآن وبعدما لم يعد والداها سوى اسمين محفورين على شاهدي قبرين في مدافن جابوتيكابايس، وبعدما بيعت أغلب الأرض، وبعدما قَدُمت البنايات، وصارت الزريبة والجرن والمخزن ومرآب الجرار نهباً للزمن – تعجز «كلاريس» عن الاعتراف بأنها لم تخطُ ولو خطوة واحدة. بقيت بلا حراك، رغم أنها قد تغلبت بالفعل على مخاوفها. وكأنها صفحة بيضاء لم يهتم أحد بكتابة ولو كلمة عليها.

دفنت الظهيرة بتنهيدة طويلة، وراقبت بوادر نسائم المساء وهي تمرق بنعومة عبر الأشجار. ستتظاهر بقراءة «الموت في فينيسيا» بينما تحرق الكهرباء الساكنة الجو وتملؤه بذلك المذاق المألوف الذي يسبق هطول المطر. وعند المحجر الضخم القابع فوق أقرب تل فتحت فراشة كسول جناحيها المزركشين وألقت بنفسها إلى الهاوية.

كان «الموت في فينيسيا» كتاباً محرماً؛ حرمته عليها «أوتاسيليا». اضطرت «كلاريس» أن تنتظر طويلاً قبل أن ترافق «غوستاف فون آشينباخ» وهو يغادر منزله في شارع برينزر يجنتن في ميونخ، ليتريض في يوم من أيام مايو في عام ما (مدون هناك في السطر الأول). حاولت منذ أمد، بل قضت حياة بأكملها وهي تحاول إرضاء «أوتاسيليا» حتى تستحق حبها، وهو الأمر الذي لم يتحقق أبداً.

كطفلة، كانت تشعر بأنها مضطرة إلى طاعتها واحترامها. بل وتمنت لو أمكنها أن تقرأ أفكارها حتى تتوقع كل أمنية وكل رغبة تدور في عقلها. ولكن شيئاً لم يكن ليرضي «أوتاسيليا»، ولا شيء يحركها، ولا حتى طاعة «كلاريس» لها، ولا حتى عصيان «ماريا إنيس»، ولا وساوس «أفونسو أوليمبيو»، بلكنة

ميناس جيرايس الجميلة الواضحة التي يتحدث بها، وعبق غليونه الذي يدخن تبغه في صمت أواخر كل ظهيرة. كانت بضع سنوات كافية كي تغيب «أوتاسيليا»، وتُحْجب عيناها الزرقاوان بلون الزبرجد، لتبدو كليلة باردة كلها سهاد. تزداد كآبة يوماً بعد يوم، ولا سبيل لدى «كلاريس» لتفادي الشعور بالذنب. هي متيقنة من أمها لم تحبها.

أغلقت «كلاريس» الكتاب الذي كانت تتظاهر بقراءته، ولم تهتم حتى بوضع علامة عند الموضع الذي توقفت فيه، فربما عاودت قراءته من بدايته مجدداً.. جوستاف فون آخينباخ في شارع برينزر جنتن (19..). رفعت عينيها نحو صورة «أوتاسيليا» في فستان زفافها، ولمحت ظل سمكة فضية صغيرة تمرق عبر الصورة، قبل أن تغيب.

لا توجد نسخ من لوحة «ويزلر» في الكتب القليلة التي لا يزال «توماس» يمتلكها. لوحة "الفتاة البيضاء" أو "السيمفونية البيضاء رقم: 1", وهي قصيدة بصرية. ففي ظل هذه المعيشة الطويلة عند حواف الحياة، فإن من الطبيعي أن تبقى بعض الممتلكات المادية هنا وهناك، وكأنها قشور جلد ميت. فقد باع «توماس» ما تبقى لديه من ممتلكات حتى يشتري هذه الرقعة من الأرض التي يقبع فيها هذا الكوخ الكئيب وكأنه يعتذر عن وجوده، حيث يكرر الدجاج الحبشي شدوه، وحيث قهوة «جورجينا» الطباخة، الخفيفة جداً والحلوة دائمًا، وحيث يقبع كلب بلا اسم ولا صاحب يلتهم وجبته كأنه لم ير الطعام

من قبل وبعدها يستلقي نائماً بمعدة منتفخة. اختفت كل الكتب تقريباً، ومعها تبدد الجزء الأكبر من طموحاته.

انتظر. مثل «كلاريس»، التي كانت جارته والتي يستطيع تمييز منزلها في ساعات الشفق، هناك بالأعلى، بين أشجار الكينا والصفصاف. سيكون هذا الليل القادم أطول ليل في التاريخ. بدا أن الكلب قد أنهى يومه، فها هو مستلق فوق سجادة غرفة المعيشة، وبزغت النجوم في سماء يناير. نجوم درب التبانة، تطفو في ليلة مختلفة تماماً عن ليالي المدن، حيث يخفت ضوءها وراء الأضواء الصناعية. ربما لن تمطر بالرغم من كل شيء، وبرغم ما تنبأت به الظهيرة قبل رحيلها. يسمع «توماس» ويشم رائحة شيء يقلى في المطبخ. عند قدميه فراشة نصف ميتة كانت قد استسلمت بعد صراع مع الموت، وأقام لها النمل الأسود الجائع موكباً جنائزياً يليق بها عبر الأرضية. يشيعون ما تبقى فيها من حياة.

كان كل شيء مختلفـًا منذ عشرين عاماً مضت. ورغم هذا، فمن الصواب القول بأن تلك الحقبة قد حوت جميع الأحداث اللاحقة. فقد أغارت الشرطة ذات يوم على الشقة الصغيرة التى اشتراها والداه في حي فلامنغو قبلها بشهرين فقط. كانت تبحث عن كتب هدامة، لم يتبق منها شيء، مزقوها، قبل أن يلقوا بالأوراق في مقعد الحمام لتحملها مواسير الصرف الصحي بعيداً، كما جرى العرف آنذاك. وذات ليلة مرعبة، راقب «توماس» الطائرة وهي تقلع حاملةً والديه إلى المنفى. واستيقظ «توماس» ذات صباح، ليدرك أنه قد صار في العشرين، وأنه وحيد، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. أمامه عشرون خياراً على الأقل، ولهذا ابتسم حينما لمح الفتاة في شرفة شقة بالبناية المجاورة ترتدي الأبيض وتترك شعرها على سجيته، وكأنها معجزة. شعر طويل، غزير، كثيف،

متموج. لا يمكن أن تكون سوى ما أسماها: الفتاة البيضاء، لوحة «ويزلر»: «السيمفونية البيضاء».

كان لدى «توماس» في شقة فلامنجو حيث عاش وحيداً كراسات اسكتش تحمل أفكاراً طموحة. وأخذت لوحاته تكبر في الحجم شيئاً فشيئاً. امتلأ جو المكان برائحة ألوان الزيت والأكريليك، أقلام رصاص، دمّاغات، فحم، أقلام باستيل، أوعية الجواش والحبر الهندي، وعدد كبير من الفرشات المتناثرة فوق طاولة السفرة. السفرة هي المكان الذي كانوا يتحلقون حوله لتناول الطعام والدخول في مناقشات ساخنة حول الحزب الشيوعي العتيد. كان والده صحفياً. أما أمه فدرست القانون وترأست المجلس الأكاديمي للجامعة الكاثوليكية. كان لكل منهما اسم حركي مستمد من العهد القديم، هي «إستر»، وهو «سولومون».

يرى «توماس» في أحلامه متاحف لم يزرها من قبل، ومعارض فنية راقية: بينالي، جاليري، بانوراما، يتوق إلى التجوال فيها بشغف وفضول طفل. على أن موهبته بقيت مشوشة متضاربة، عادية الإنتاج، متقلبة، غير منظمة. كما لو أن جميع الممكنات حاضرة في الوقت نفسه، وكأن اللحظة الراهنة هي الأخيرة، كما يمكنها أن تسيطر عليه تمامًا فتوقظه من نوم صبيحة أحد أو من سبات الشمس التي لا تنفك تحرق جلده. من دون حدود أو نظام أو قارات، انتشرت موهبة «توماس» حتى ضلت طريقها، أو أخذت تتخبط في جنبات الشقة وكأنها حشرة تاهت في الظلام. واختزلت لحظات الانضباط في الدروس الخصوصية التي يلقيها، كبديل للبحث عن عمل (وهو أمل شبه معدوم، إن لم يكن محالاً، بسبب ماضي والديه).

اكتشف الفتاة الساكنة في البناية المجاورة مصادفة. لمحة واحدة نحوها ذكرته بـ«ويزلر»، رسام جمع بين اللون والموسيقى في الأسماء التي أطلقها على

لوحاته: "مقطوعة حالمة بالأسود والذهبي"، "مقطوعة حالمة بالأزرق والأخضر"، "تناغم البنفسجي والأصفر"، و"السيمفونية البيضاء". حينما رآها «توماس»، فكر في رسم لوحة على غرار لوحة «ويزلر»، تستلهم "السيمفونية البيضاء". ولكن ما لم يخطر بباله، وهو في العشرين، هو أنه لا يزال من المحال بالنسبة له أن يباعد بين الفن والحب، وبين الحب والشغف. لقد قدر له أن يسقط في جنون حب ذات الرداء الأبيض.

كشفت له العقود التالية عن كل أخطائه التي ندم عليها. لم يعد لديه كتاب يحوي صورة للوحة «ويزلر»، حتى يتأملها ويعاود تقديم هذا الإحساس التعس بالعقم. لم يتفوه سوى بكلمات قليلة، ولم يتخذ سوى مواقف محدودة، وربما ذهب كل هذا، مثله مثل «ويزلر» نفسه، ومثل المستقبل المجيد، في غياهب النسيان.

تذكر «توماس» الآن، حتى ولو أضحت ذاكرته مهترئة كقطعة قماش بالية. ولا سبيل أمامه سوى أن يتذكر. تلك الليلة ستكون الأطول في التاريخ. قديمًا عندما كان «توماس» في العشرين، كان سيثمل ويشرب الروم والكوكا كولا قبل أن ينام عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة متتالية. أما اليوم فعليه أن يرضى بالسهاد.

وكذلك انتظرت «كلاريس»، ولكن لأسباب مختلفة. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة حينما ارتدت الجينز وقميصها القطني الواسع الملطخ بالطين، وارتدت خفاً هافانياً، وعبرت ظلمة الممر المفضي إلى باب «توماس». بقي المنزل الذي يعيش فيه لسنوات جزءاً من عقار امتلكه «أفونسو» و«أوتاسيليا»: كوخ في المزرعة، قديم، منعدم القيمة الجمالية، ذو جدار وشرفة لهما نفس اللون الإسمنتي الأحمر الذي يميز أرضية غرف المعيشة والنوم والمطبخ. المطبخ واسع مقارنة ببقية أرجاء المكان، فقد كان في السابق يحوي سفرة الطعام، حيث يجلس الضيوف لتناول الطعام، بالقرب من الموقد الذي

يعمل بالحطب، حيث تحلو جلسات الليالي الشتوية. قديمًا لم تكن هناك كهرباء، بل الشموع والمصابيح، وكم من حشرات غوتها تلك الشموع والمصابيح، احتراقاً حتى الموت. أما اليوم، فمصابيح كهربية تتدلى من السقف، أو تبزغ من الشمعدانات.

سألت «كلاريس» وهي تفتح الباب الموارب دومًا:"هل أنتَ مشغول؟". ليس بينها وبين «توماس» كلفة. ولهذا السبب، لم تتعمد أن تخفي عنه الندبتين البارزتين في معصميها. وتمردت خصلتا شعر على ذيل الحصان، فانسدلتا فوق أذنيها. ولا أقراط ترتديها في أذنيها. لم تكن يوماً بيضاء البشرة مثل «ماري» حتى ولو مكثت أشهراً من دون أن تزور أشعة الشمس بشرتها. "هل ترسم؟"، كررت السؤال، حتى بعدما هز «توماس» رأسه نافياً.

"ليس اليوم"، رد عليها ففهمت. سألته في خجل: "ليس لديك شراب، أليس كذلك؟ بيرة، أو حتى خمر؟". أجابها "ظننت أنك قد توقفت عن الشرب". لم يكن صوته يحمل نبرة وصاية. أجابت "بالفعل، هذا صحيح، ولكن اليوم.. تعرف".

أطرق «توماس» رأسه مؤمناً على كلامها، ولكنه أخبرها أنه ليس لديه، فهو لم يقصد المتاجر في القرية منذ فترة، وآخر زجاجة فودكا انقضت أمس. ركلت «كلاريس» السجادة بقدمها ساخطة. "يمكنني أن أصب لك بعض القهوة، أو أن نجمع بعض البرتقالات ونصنع عصيراً". "كان عصير البرتقال سيصبح رائعاً وهو ممزوج بالفودكا"، قالت له «كلاريس» مبتسمة، واكملت "ذكرتني بالحفلات الخوالي".

يكابد مصباح لينير الشرفة الأمامية. العتمة تغلف كل شيء خارج المنزل، ولكن «توماس» و«كلاريس» معتادان عليها. تبعهما الكلب حتى الباب، أعاقه

كسله اللا متناهي عن مواصلة اتباعهما لأبعد من ذلك، وعن الدوران حول أقفاص الأرانب والدجاج وعن قفز الخطوات القليلة للوصول إلى البستان الصغير حيث أشجار البرتقال. الليل منسدل على تلك الأشجار فبدت كأرواح نصف نائمة، تداعبها النسمات فتتمايل، أو ربما هي تتمايل بإرادتها. اليراعات تراوغ أغصانها، ومن ورائها تتبدى النجوم بأعداد لا تحصى.

التقطت «كلاريس» مع «توماس» ست برتقالات ناضجة. حينما كانت مجرد فتاة خجول مطيعة، قبل ريو دي جانيرو، وقبل «إلتون خافيير»، وقبل الندبتين في معصميها، وقبل أن تعرف كوخ المزرعة ، كانت «كلاريس» وأختها تتسلقان أشجار الجوافة وتلتهمان الحبات الناضجة، حتى ولو كانت بداخلها ديدان. "هل فكرت من قبل في عدد الديدان التي التهمناها من دون أن ندري؟"، سألتها «ماريا» ذات يوم. امتعضت «كلاريس» وهي تنكر في عقلها هذا الاحتمال: بل كنا حريصتين دوماً. لا يمكن أن تكوني حريصة بالقدر الكافي. ربما ابتلعنا بالفعل أجزاء من ديدان الجوافة. رأس دودة أو ذيلها. ولو ابتلعنا الرأس؟ فهل لدى دودة الجوافة دماغ ؟ لقد أكلنا أمخاخ ديدان الجوافة يا «كلاريس».

كانت «ماريا» تجد متعة كبيرة في كل ما يبعث على الاشمئزاز أو الضيق أو الخوف. وحينما كان ابن العم «جواو ميغيل» يحضر في إجازة الصيف، كانت تستقبله دوماً بضفدعة أو خنفساء في ديها، وبدا أنه تعبير منها عن حبها له، فقد كانت تعتني بابن عمها «جواو» وتحميه من كل شيء وكل شخص بشجاعة متفردة، رغم كونها أصغر سناً منه.

لا تعرف «كلاريس» شيئاً عن لوحات «ويزلر». بل لا تعرف أصلاً أن هناك فنانًا بهذا الاسم. تظاهرت بأنها تجرع الفودكا بينما هي ترشف عصير البرتقال. تجلس على أرضية غرفة المعيشة، تسند ظهرها إلى الأريكة التي منحها

«كانديدو» إياها منذ بضع سنوات بسبب كونها قديمة. تذكرته «كلاريس»، فسألته عن ذلك الذي يشتري لوحاته، صاحب المعرض.

لا يزال مهتماً بعملك؟ أجابها «توماس»، وهو يرتكن برأسه إلى البطن الأنثوية الرخامية التي نحتتها «كلاريس»، والذي يحتل رفاً معلقاً على الحائط. الجذع منحنٍ إلى الجانب، مائل بعض الشيء إلى الوراء، والكتفان عريضتان. لا ساقين ولا ذراعين، ولا رأس. تعمدت أن تجعل البشرة خشنة، وأن تترك آثار الإزميل ظاهرة. وكأنما تريد لهذه القطعة الصغيرة أن تبقى ناقصة، نصف منحوتة، نصف حجر، نصف حقيقة، نصف استحالة، نصف حالة. ربما أرادت لها أن تكون بورتريه شخصيًّا يبوح بلا مرئيات. يبوح بخطر مبهم.

انتابت «كلاريس» الجدية ونظرت إلى قدميها الحافيتين. إنهما صغيرتان، تفتقران إلى العناية. فكرت: كأنهما قدما «ماريا» منذ زمن. لا شك أن أختها تعتني بهما اليوم بالزيت والكريمات، وبطلاء الأظافر، وتغطيهما بالجوارب الحريرية والأحذية الغالية. ولكن لا أهمية لهذا، فهو مجرد فكرة تبلورت منذ زمن. تأملت «كلاريس» بعين محايدة تلك المنحوتة التي كانت قد أهدتها لـ«توماس». الحقيقة أنهما لم يكونا يفكران فيما يصنعانه من فن أبداً. فالموضوع الرئيسي يبقى «ماريا إنيس»، يبقى هو دوماً. حضورها طاغ عليهما حتى في الغياب، فهي الآن قادمة. ستصل في الغد. كانت «ماريا إنيس» دوماً بعيدة عن تداعيات المعاني، ولكن اسمها لم يكن محل ذكر أبداً، فهو واضح كالخوف.. بعيد كالحقيقة.

الفصل الثاني
ثلاثية الترومبيت.. الكمان.. البيانو

في الساعات الأولى من الصبيحة التي ولدت فيها «ماريا إنيس»، عند ضواحي الولاية، كان مطر قليل حزين يهطل. وربما لهذا السبب أحبت منذ صغرها رؤية رذاذ المطر، وكأن ذلك المطر الذي تساقط في تلك اللحظات قد انطبع في ذاكرتها مثلما انطبع اللون الداكن لعينيها وشعرها في شفرتها الوراثية. فقد جاءت «ماريا» إلى الحياة في الوقت نفسه الذي كانت فيه السماء تبكي على أرضها.

أسمياها على اسم عمتها الكبيرة التي ماتت مجنونة، ولكن والديها، «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو»، لم يصدقا أن في هذا فأل شؤم عليها. اعتادوا في عائلة «أفونسو أوليمبيو» تكرار الأسماء. فاسمه مثلاً كان على اسم أبيه، أما «أوليمبيو» فكان على اسم عمه. وأخوه، الذي لا يزال يعيش في ميناس جيرايس، اسمه «ماريانو أوليمبيو» على اسم عم آخر جاء اسمه من اسم امرأة قديمة في العائلة: «ماريانا»، قيل إنها كانت ذات كرامات، نصف قديسة كما يصفونها، هذا إن كان من الممكن أصلاً وصف أحدهم بأنه نصف قديس. كان رأس «ماريا إنيس» طويلاً كسيجار، ولكن هذا لم يقلق أمها، فقد ولدت «كلاريس» كذلك بعيبين أو ثلاثة ولكن سرعان ما اختفت تلك العيوب مع النمو، وهكذا سيكون الحال مع «ماريا».

لم تكن «أوتاسيليا» شابة ولا «أفونسو» شابًا وقتذاك، فقد تجاوزا بالفعل تلك السن المناسبة لإنجاب الأطفال، لأنهما تزوجا في سن متأخرة. كانت

«أوتاسيليا» في الثامنة والعشرين، وهو عمر حينما بلغته أمها كانت في جعبتها خمسة أطفال. وقد حمدت حسن حظها لكونها حظيت بحفل زفاف تمنته، واختارت فيه الفستان، وباقات الزهور، وكذلك الخف القماشي (الذي اشترته لها من باريس عمة ثرية تعيش في ريو دي جانيرو). وبرعشة خفية تعرفها هي وحدها، تذكرت «أوتاسيليا» ذلك الخاطر المخيف الذي راودها؛ أن تموت وهي بعد عذراء. همست لنفسها: أنا لن أموت عذراء! وبجذل وسعادة، امتلأ رأسها بأفكار أخرى، بعضها مبالغ فيه، وبعضها معقول، وقليل منها منطقية تماماً.. «أوتاسيليا» مثل دوامة، «أفونسو» مثل عبق حلو لتبغ تبددت رائحته في الظهيرة بهدوء وخفة.

التقط أخو زوجها صورة عقد القران، وقام أخوها بتكبيرها ووضعها في إطار: «أوتاسيليا»، غطاء الوجه، الإكليل، الحرير والدانتيلا، خلّدت أسعد يوم في حياتها. رغبت «أوتاسيليا» في أن تعلق الصورة في مكان بارز في غرفة المعيشة بالمنزل الذي بناه زوجها، وهو المنزل الرئيسي في مزرعة صغيرة ليست بعيدة عن منزل الطفولة، على مقربة من قرية جوباتيكابايس. تلك القرية التي لم ترد على الخريطة أبداً. علقت الصورة قرب المدفأة.

كل ملمح من ملامح «أوتاسيليا» جميل، في حد ذاته، ولكن الملامح في مجملها لم تكن على بهاء التفاصيل. اختارت لها الطبيعة عينين بلون زرقة الزبرجد، وشفتين ناضجتين، وشعر أسود حريري، وخاصرة نحيفة، ويدين قويتين، ثم مزجت كل هذا مع بعضه، ولم تأت النتيجة مرضية. غارت أختاها دوما من عينيها الزرقاوين،.

بينما أثارت ملامح «أفونسو أوليمبيو» بعض التعليقات:

- هل لاحظت أنه.. بعض الشيء.

- ألا ترين أنه .. بعض الشيء.

- لست متأكدة، وقد أكون مخطئة، ولكنه يبدو..

- بشرته سمراء تميل إلى الصفرة.

- شعره سيئ.

تقاطعهما «أوتاسيليا»: إنه ليس اصفر على الإطلاق! «أفونسو أوليمبيو» أبيض، وسمرته البسيطة هذه سببها الشمس.

عقدت الكنيسة الصغيرة قرانهما ذات صباح غسله المطر. في الشوارع المتواضعة برك مياه وكأنها تردد أصداء مطر السماء. تنفست المزرعة القريبة في خنوع وهي في انتظارهم، هادئة، بكرًا، بريئة تماما. وبعد زمن، كان على «أوتاسيليا» أن تواجه مرارة صمتها.

بطبيعة الحال، لم تكن الزيجة على النحو الذي تخيلته «أوتاسيليا». ولكن هذا موضوع محرم، ومحال أن تناقشه مع أختيها، الجميلتين بعيون ليست على نفس زرقة عينيها. تخيلتهما ليلاً، وهما في الفراش، بعد تلاوة الصلاة، وبعد أن أسدلتا الشعر، تمارس كل واحدة منهما الحب في سعادة مع زوجها. فكرت في أمها، في الخادمات، في بنات عمها، في كل نساء العالم، حتى في العاهرات (أمر محرم تماماً). ولم يتبق لها من كل هذه الأفكار سوى غصة يأس مريرة، وفي النهاية واجهت السؤال: هل سيكون الأمر مختلفـًا مع رجل آخر؟

كان قد مر على زواجها سبع سنوات وأنجبت طفلين، حينما نظرت إلى وجهها في المرآة واكتشفت التجاعيد التي تحيط بعينيها الزرقاوين، تجاعيد كانت تتلاقى سراً طيلة كل هذه السنين في مؤامرة بطيئة... فكرت في فكرة محرمة: لم يقدم العالم مصدراً لا ينتهي من الممكنات المحرمة. ليس لمخلوقات من جنسها، لديها ابنتان على الأقل، وتجاعيد حول عينيها، وزوج لا يشبع أحلامها؛ أحلام بث هو فيها الحياة من دون قصد. ممارسة الحب أضحت فعلاً ميكانيكياً مثله مثل تقشير البطاطس أو رتق جورب. لم يمنحها «أفونسو» أبداً وطوال سبع سنوات ما انتظرته منه غريزياً: الرومانسية، والنظرات الباسمة. متعة تشابك الأيدي وتشابك الجسدين، شيئًا سمعت عنه فحسب: رعشة الجماع.

لديها ابنتان، ويوماً ما ستكونان امرأتين وتمارسان الحب. لم تشك «أوتاسيليا» في أن ابنتيها ستستمتعان بممارسة الحب يوماً ما. وهو الأمر الذي وصل بالفتاتين إلى مستوى مستحيل. تخيلت رعشة الجماع كأنه إحساس بالحرية خبرته ذات مرة، وقت أن كانت طفلة، تمتطي حصاناً أصيلاً، بينما تطاردها عاصفة رعدية، وعيناها نصف مغلقتين مع ابتسامة واسعة. أو ربما هي مثل بخار يخرج من صمام وعاء طهي بالضغط ويجعلها تصدق، ولو للحظة، أن بوسع أشياء أن تتجاوز البساطة والروتين. ارتقي الجورب، مارسي الحب.



فتحت «ماريا إنيس» عينيها وتناولت المنشفة. لم يكن زواجها أبداً كما تخيلته، ولكن خطأها هو أنها تخيلت، من دون أن تسأل نفسها إن كانت

الحقيقة ستضاهي الخيال أم لا. وكما أن ذلك الدرج في خزانتها يحوي كل ما هو قديم من ملحوظات وقصاصات وخطابات وصفحات من الجرائد (حوارات برناردو أجواس)، اشياء صغيرة معدومة الجدوى، فكذلك يحمل قلبها بقايا من حياتها: يومًا، عائلة، فتاة اسمها «ماريا إنيس». طفولتها التي بدت غير حقيقية، وشجرة المال، الصبي «جواو ميغيل»، الشاب «جواو ميغيل» محبًّا في يوم، ومحبوبًا في يوم آخر، والاسكتشات، ولوحة «ويزلر» التي أسماها «السيمفونية البيضاء». لا شيء من هذا موجود حقيقةً. كل شيء تفكك كأنه مكعب ثلج طافٍ وسط سخونة صيف المدينة المرير. ليست جابوتيكابايس، بل المدينة الأخرى، المدينة الكبيرة.

الحقيقة أشد وقعاً من هذا بكثير. فالحقيقة تكونت من طعنات الألم البسيطة. ومثل طعنة حادة تذكرت مقهى فلوريان: كانت جالسة في مقهى فلوريان في فينيسيا هى وزوجها «جواو ميغيل» الذي يتحدث الإيطالية بطلاقة، فلوريان الذى يوجد عند ناصية سان ماركو، فلوريان بروست، وفاجنر، وكازانوفا. نهضت «ماريا إنيس» لتشترى بعض البطاقات البريدية، لم تستغرق سوى عشر دقائق، عشر دقائق فقط جعلتها تدرك فيما بعد ـــ وهى في غرفة الفندق وحدها ـــ أن الفارق بين الفضيلة والرذيلة نسبى، مجرد وجهات نظر؛ فمن الطبيعي أن يتبادلا الأمكنة كما لو أنهما في رقصة مابيول.

جففت شعرها القصير بالمنشفة. نهضت تاركة وراءها آثار البلل على أرضية الحمام، وعاودت النظر إلى نفسها في المرآة بلا مبالاة. لم يكن من الجيد أن تتذكر مقهى فلوريان أبداً، فحياتها مع زوجها مضت على نحو لا بأس به. تحقق التوازن بابتسامات، من دون جنس، وبالذوق وقبلات سريعة، وأجهزة التكييف، ومن دون حيوانات أليفة، ومن دون رغبة، وبالبيجامات وأرواب النوم

التي لم يعودا يتخلصان منها عند النوم، ومن دون فراش يجمعهما سوياً في حضن واحد.

مؤكد أنها لم تكن فكرة صائبة أن تتذكر مقهى فلوريان. ولكن «باولو»، ذلك الشاب الفينيسي، وجد طريقه إلى أفكار «ماريا إنيس» وكأنه صداع باغتها. يتحدث «جواو ميغيل» الإيطالية بطلاقة، ويتقن عدة لغات، وهي مقدرة لم تكتسبها «ماريا إنيس» أبداً، فهي بالكاد تتحدث إنجليزية متعثرة. ثم ظهر هذا الفينيسي المسمى «باولو». عبرت «ماريا إنيس» ناصية سان ماركو خلال أرضية انتشر فوقها الحمام، وهي تحمل مجموعة من البطاقات البريدية. ووجدت «جواو ميغيل» في مكانه عند الطاولة في فلوريان، وقد التحق به هذا الفينيسي المسمى «باولو». بين يدي «ماريا إنيس» صورة، إطارها المطبوع أبيض، وعلى الجزء العلوي من الإطار كتب اسم المدينة بالإيطالية، والصورة تظهر جدول ماء مياهه خضراء داكنة وبناية ذات نوافذ على الطراز المورى وشجرة أغصانها تعرت من الأوراق تستند إلى جدار متداعٍ. فينيسيا. طعنة ألم... ليس إلا. تذكرت «ماريا إنيس»: في اليوم التالي أرسلت البطاقة البريدية التي تحمل هذه الصورة إلى «كلاريس»، مع كلمات رقيقة مجاملة. وكالعادة، لم تبح بشيء من الحقيقة، أو حتى ما يقترب منها، حقيقة الألم، وحقيقة وسيم فينيسي اسمه «باولو».

الآلام الأخرى أقدم.. أقدم بكثير، وأشد إلحاحًا.

كانت قد رتبت للرحلة إلى المزرعة (حيث زرعت ذات يوم شجرة مال مع ابن عمها «جواو ميغيل») قبلها بعشرات الأيام، عشية الكريسماس. قرار جريء، يخرق العديد من البنود في البروتوكول الذي سنته بنفسها واتبعته على طريقتها. لن تذهب مع «جواو ميغيل» إلى أزوباردي، بابا جويليو. هذا مبهج وحزين في آن واحد، مثل الكرنفال ومثل "رماد الأربعاء"، وكأن المرء يدرك أن العادات والتقاليد تزداد ضيقاً، أو تزداد رحابة، أو هي قديمة بالية فحسب.

أما رد فعل «جواو ميغيل» على تلك الجراءة فلا شيء سوى اللا مبالاة التامة. سمعته «ماريا إنيس» وهو على الهاتف مساء الرابع والعشرين من ديسمبر، وهو يقول: "أعتقد أن بوسعنا وحتى إشعار آخر اعتماد درس الخميس". ثم انخفض صوته إلى تمتمات، إنه مدرب التنس. سرت قشعريرة عبر ذراعي «ماريا إنيس».



هذا الفينيسي الوسيم المسمى «باولو»، عند طاولة مقهى فلوريان.

عشية الكريسماس، كانت ابنتها «إدواردا» جالسة على الأريكة البيضاء وسط موسيقى لا تألفها «ماريا إنيس»، تقول الكلمات: هناك بقعة سوداء صغيرة في الشمس اليوم. هامت «إدواردا» مع الأغنية. بلغت التاسعة عشرة للتو. وفي أمسية الرابع والعشرين تلك سمعت، عندما كان «جواو ميغيل» على الهاتف مع مدرب التنس، قرار «ماريا إنيس»: بعدما تمر رأس السنة سأذهب

إلى المزرعة. بادرتها «إدواردا» على الفور بأنها سترافقها، وكان من المحال بالنسبة لها ألا تلاحظ ذلك التحفز الذي اعترى وجه أمها لثوان.

في المزرعة محجر محرم و لوحه، وبيت قديم، مزرعة «إبيس»، حيث ارتكب رجل جننته الغيرة جريمة ما. وحيث تقبع شجرة مال لم تثمر أبداً.

وهناك المزيد: طفل في التاسعة، باب موارب، دوار، خوف، رجل ناضج، نهد شاحب، تلمح عن دون قصد بجانب عينها: الباب الموارب، يدًا ذكورية على نهد شاحب، كأنه لشبح.

كانت المزرعة قديمًا محور حياة وأحلام «ماريا إنيس»، وبعدها صارت تعتريها الكوابيس المروعة. مرت عشر سنوات على آخر مرة كانت فيها هناك. مرت عشر سنوات على آخر مرة التقت فيها «كلاريس».

- "هل يود أحدكم تناول بعض الشراب؟".

كان «جواو ميغيل» وسيما أنيقاً، شعره كثيف خط فيه الشيب علامات، وعيناه داكنتان، وقد كانتا تلتمعان بكل الآمال يوم أن زرعا معاً شجرة المال. كان من المفترض أن يُسَمَّى «ميتشيل»، على اسم عم له كان قد مات صغيرا جدا، ولكن الاسم انتهى إلى «ميغيل»، لأن النسخة الإيطالية من الاسم «ميتشيل» قد تتسبب في خلط بين الجنسين في البرازيل. ثم أُضيف إلى الاسم «جواو»، لأن أمه كانت تحب الاسماء المركبة ولأن أباه كان حريصا وقتذاك على إرضاء أمه. فقد كانت وقتها لا تزال طازجة، كجريدة الصباح.

سألت «ماريا إنيس» عما إذا كان مدرب التنس سيحب حضور عشاء عشية الكريسماس. أجابها «جواو ميغيل» بأن الطبيعي أن يكون مدرب التنس مع

عائلته. وتناولت «ماريا إنيس» الكأس التي قدمها لها زوجها. فبعد كل ما حدث وكل ما قيل يبقى أصل كل شيء غاية في الغموض.

تتألف العائلة التي ستحضر عشاء الكريسماس من مجموعة من أبناء وبنات العم والخالات والأخوال والعمات والأعمام. وعلى الهدايا القابعة أسفل شجرة الكريسماس الوارفة كتبت الأسماء.

تأملت أظافرها وعليها أحدث صيحات المانيكير، ثم هندمت فستانها الذي يجعلها تبدو وكأنها قطعة أثاث مثل بقية القطع المنتشرة في المنزل.

راقبتها «إدواردا» وهي تكرر تلك الإيماءات الزائفة وكأنها صلوات يقوم بها ملحد. ثم نهضت وغيرت الموسيقى، مستبدلة إياها بواحدة من أسطوانات «ماريا إنيس». أسطوانة للبرامز: ثلاثية الترومبيت والكمان والبيانو. إنتاج مازورة 40. عاودت النظر إلى أمها مجددا، فبدت لها للحظة هشة للغاية. ما الذي دفعها إلى مصاحبة أمها في تلك الرحلة إلى المزرعة؟ لا تدري. ربما تود فقط أن تكون حاضرة.

حاضرة. كالزمن الحاضر.

بدأ الأقارب في التوافد على المنزل وعلى وجوههم ارتسمت ابتسامات مؤدبة أو واجمة. النساء مبالغات في الزينة والمكياج كالعادة. مجرد النظر إليهن يشعرك بارتفاع حرارة المكان لدرجة لا تطاق، بالرغم من وفرة أجهزة التكييف ذات القدرة العالية. تبوح وجوه بعضهن بعمليات شد وتجميل فادحة. ولا شك أن من بينهن من نفخت أثداءها بالسيليكون. وها هي فتاة على محياها مسحة من حزن تقبع عند أحد الأركان. وامرأة هيستيرية (صوتها يذكر «إدواردا» بصوت تلك المرأة الخرقاء التي تظهر في أحد المسلسلات.. مسلسل السيد

«شيفلد») لا تنفك تقرص الفتاة في حجرها، وذلك حينما تتوقف عن هدهة طفلتها بإلقائها في الهواء ثم تلقيها من جديد، فتصيب الطفلة المسكينة بالدوار والخوف. وها هو رجل قميء يتفاخر بمباريات الجولف ورحلات السفاري الحديثة إلى أفريقيا. وهذا مفكر متحذلق وممل قليلاً ولكنه نجح في لفت انتباه «إدواردا» حينما ربط بين كرة القدم والفلسفة في معرض تعليقه على مباراة كرة قدم ابتكرها «مونتي بيثون»، حيث ألمانيا تواجه اليونان، و«أرشميدس» حارس مرمى، والقديس «أوغسطين» والقديس «توماس» حكمان. هناك شابة حليقة الرأس تماماً، وتضع قرطاً في أنفها. ابتاعت ملابسها من متجر ملابس مستعملة في لندن وترتدي حذاءً رياضياً فسفورياً. وشاب حليق الذقن طويل الشعر، يرتدي تي شيرت انطبعت عليه صورة لفرقة (جنز آند روزيز) ويغطي به جسده النحيف، هو موسيقي يدرس الغيتار ويحلم بعزف منفرداً لاغنية (سلالم تقوده إلى السماء)، يرتشفون كؤوس الشراب الغالي ويتحدثون في موضوعات مكررة إلى حد الابتذال، وكأنهم أنواع من السمك اجتمعت داخل نفس الحوض بمحض الصدفة.

شربت «ماريا إنيس» كأسا، كأسين، ثلاثًا، سبعًا، ثمان كؤوس. قتلت نمل الأفكار الذي كان يسري في عقلها. ارتدت في الكريسماس فستاناً يمزج بين الأزرق والأبيض والفضي. تبادلت مع زوجها البسمات البريئة. وبعدما استولى الخمر على عقلها، توجهت «ماريا إنيس» عبر غرفة المعيشة في خطوات متأرجحة وكأنها ترقص الفالس، إلى أن استقر بها المقام في مقعد جلدي وثير في غرفة المكتب. هناك، وسط الضوء الخافت، كان أحد أبناء العم (أو هو أحد الأعمام؟ ما اسمه؟) يتفحص الكتب القابعة في الأرفف بينما تتصاعد الفقاعات في كأسه.

قال ما إن رأى «ماريا إنيس»: "منشقة أخرى".

ابتسمت كعادتها وأخبرته أنها أفرطت في الشراب.

تنهد ابن العم قائلاً بأن هذا ما ينبغي عليها فعله. وأنا لا أقصد أن أسيء إليكِ، ولكن أعتقد أنك إنسانة عصرية، ولكنها حفلات نهاية العام. ودت «ماريا إنيس» لو أنها ذكرته أن أحداً لم يكن ملزماً بالحضور. ولكن لمحة من مساع مشتركة دفعتها إلى أن تهز رأسها وتتم جملته: "إنهم مملون". استدار ليهتم بالكتب من جديد، قبل أن يقول مشفقاً: "أتعلمين أنني قد انفصلت عن «لوسيانا»؟". بذلت «ماريا إنيس» جهداً هائلاً حتى تتذكر«لوسيانا»، ذات الشعر الأحمر، الجميلة. التى رأتها في الكريسماس الماضي.

- "لم أكن أعلم. متى حدث هذا؟".

- "في الغد سيكون قد مر شهر على الانفصال. البنات معها".

واتتها صورة بعيدة لوجهين شاحبين للتوءم بالشعر الأحمر، مرتديتين نفس القبعة، قبعة ميكي ماوس. تذكرت الآن أن «جواو ميغيل» قد تحدث معها عنهما. ولكنها لم تهتم.

ظهر النادل بغتة وقدم لهما كأسي شراب بالطريقة التي دربوه عليها. بعدها غادر المكان. اختزل احتفاله بالكريسماس في العمل على أن يشرب الأغنياء حتى الثمالة في شققهم الفخمة في "ليبلون العليا". جلس العم (ابن العم؟) عند قدمي «ماريا إنيس» على أريكة عثمانية قماشها يمزج بين الأبيض والأسود على نحو ذكرها بالأبقار.

قال: "هناك ما أود أن أخبرك به". تنهد ثم استطرد: "ولكني لست موقناً من استعدادك لسماع هذا".

نظرت «ماريا إنيس» إليه بوجه ناعس وتعبير يؤكد على ما هو واضح، "ليست لدي فكرة عما ستقوله، وبالتالي فلا يمكن أن أعرف ما إذا كنت جاهزة لسماعه أم لا".إذا كان هذا أو ذاك . استمرت في تقليب هذا التناقض في رأسها، إن كنت أعلم ما ستقول، إذن سأدرك أني غير مستعدة لسماعه، وعندها لن يكون هناك فرق، فأنا قد سمعت ذلك من قبل. ضحكت، ولكنها كتمت الضحكة على الفور، فقد كان جاداً للغاية.

"أعتقد أن هناك علاقة تربط بين زوجك و«لوسيانا». هذا ما ظهر لي. يبدو لي أنهما مغرمان".

تناولت «ماريا إنيس» رشفة من كأسها، باردة، بيضاء، ثم حدقت في الأرضية الرخامية البيضاء التي تغطى نصفها بسجادة ذات تصميم هندسي أسقط فوقه أحدهم بقايا سيجارة صانعا دائرة سوداء.

- "هذا محتمل. أنا لا أعلم شيئاً عنه، ولكنه محتمل".

سألته عما إذا كان لا يزال منخرطاً في مجال السينما، وعما إذا كان يرى فرصاً لفيلم "أربعة أيام في سبتمبر" حتى ينال الأوسكار.

لم يصب أي منهما بقلق أو توتر. أتوا ليخبروها بأن أحد الأقارب من "ماناوس" على الهاتف. استأذنت من ابن عمها وتوجهت للرد على الهاتف في غرفة نومها. تبادلا التهنئة بالكريسماس. ثم ألقت بجسدها فوق الفراش. متعبة هي. متعبة من دون سبب حقيقي. متعبة من دون حق لأن تكون متعبة، وهو الأمر الذي زاد من وطأة تعبها. حضرت «إدواردا» لترى أمها، الكبيرة الصغيرة، وتذكرت لعبة الكلمات التي كانت تحفظها وهي طفلة، رجل طويل قصير بدين نحيف يجلس واقفا فوق مصطبة خشبية حجرية يقول ساكتا إن أصمَّ سمع أبكمَ يقول

إن أعمى رأى كسيحاً يركض مثل الريح. ومنها تقفز إلى لعبة أخرى، تلك المليئة بالصور السحرية التي تقول إن اليوم يوم أحد، يوم مرح شجرة الغليون، والغليون مصنوع من طين ويضرب على الإبريق، والإبريق كبير ويضرب الجرس، والجرس من ذهب ويضرب على الطعم، والطعم شجاع يهزم المحتال، والمحتال ضعيف يسقط في السطل، والسطل يصير دوامة، فهي نهاية العالم.

ثلاثة نمور مأساوية. الجرذ والحبل الروماني.

- "أمي".

فتحت «ماريا إنيس» عينيها ببطء.

جلست على حافة الفراش ونظرت إلى أظافر «ماريا إنيس» التي زينتها بالمانيكير وقارنتها بأظافرها البالية.

قالت «ماريا إنيس» لنفسها: "لأمي عينان شديدتا الزرقة". لا سبيل لديها لمعرفة ذلك.

أومأت «إدواردا» موافقة. هي لا تعرف. بالطبع لا تعرف. لم تعرف «إدواردا» «أوتاسيليا» أبداً، فقد توفيت قبل أن تولد هي.

نظرت «ماريا إنيس» إلى ابنتها وعينيها الداكنتين اللتين لم تكونا نسخة من الأزرق الزبرجدي لأمها. كانتا تفكران في المزرعة وفي «كلاريس»، الأخت والخالة «كلاريس»، وفي شيء آخر لم تسمه «إدواردا» ولكن «ماريا إنيس» فكرت فيه خلال أحلامها منذ زمن.

- "متأكدة أنتِ من أنك لا تودين المكوث مع أبيك؟".

أجابتها «إدواردا»:

- "أجل".

أغلقت «ماريا إنيس» عينيها مجدداً. وتنهدت وعادت تفكر في أن هذا قد يكون ممكناً.

رجل طويل قصير بدين نحيف يجلس واقفا فوق مصطبة خشبية حجرية.

- "من قريب أبيك هذا الذي يعمل في السينما؟ نصف الأصلع".

- "اسمه «آرتور». هو نسيب لابن عمه".

- "في نفس قرابتي ".

ابتسما.

- "كان يعترف لي".

- "انفصل عن زوجته".

لم تكن «إدواردا» بحاجة إلى من يلمح لها بأن أباها على علاقة بزوجة «آرتور» السابقة. ولم تكن بحاجة إلى كثير من الحدس لتعلم أن العلاقة فاترة بين أبيها وأمها. لدى أمها حبيب في بلاد أخرى، زميل دراسة قديم، يلتقيان مرة في العام أو شيئـًا من هذا القبيل.

لكن «إدواردا» لم تكن تعلم شيئاً عن شاب فينيسي اسمه «باولو». يجلس واقفا فوق مصطبة خشبية حجرية في مقهى فلوريان والحمام يغطي الأرض

في ميدان بياتزا سان ماركو. رائحة الجداول الساكنة أضحت طيبة. العبق طيب الرائحة الذي يبعث على الاشمئزاز، مثل رائحة بقرة قابعة في المزرعة. فينيسيا.. حلم.. كابوس.

- "لقد شربت حتى ثملت. متى سيرحل الأقارب؟".

- "لا يزال الوقت مبكرا، أماه. نحن لم نقدم العشاء بعد. أتريدين بعض القهوة؟".

أومأت«ماريا إنيس»: "أريد قهوة قوية.. قهوة وكولا، رجاءً".

سمعت أن هذا الكوكتيل هو ما يبقي سائقي الشاحنات مستيقظين. وهناك من يفضل الكوكايين، مثل «كلاريس». في حياة أخرى، قبل العيادة، قبل أن تقطع رسغيها، والمستشفى. بينما ذهبت «إدواردا» إلى المطبخ، رقدت «ماريا إنيس» على جانبها تحدق في البرواز القابع فوق منضدة الفراش. هناك عدد من الصور مقصوصة تجمعت معاً لتشكل موزايك. «إدواردا» وهي طفلة صغيرة تلعب في كثبان كابو فيرو عند البحر. «إدواردا» وأصدقاؤها في زي المدرسة في اليوم الأول من عام دراسي جديد، مهندمي الشعر، بملابس جديدة، وأحذية بيضاء لامعة، وابتسامات متوترة. السيدة «كلاريس» في العام 1970، في فستان الزفاف. «ماريا إنيس» و«كلاريس» في السابعة والحادية عشرة على الترتيب، قبل اختلاجة الكوكب، حينما تتقلب الفصول بطريقة غير طبيعية. قبل ذاك الباب الموارب وتلك الرؤيا التي ترى فيها يد رجل تقبض على ثدي شاحب لفتاة.

فكرت «ماريا إنيس» أن ابنتها جميلة. أطرافها طويلة، ملامحها معبرة، وكلامها سلس وأفكارها متدفقة. عيناها ذات لون فاتح، ولكنها ليست على درجة زرقة عيني «أوتاسيليا». «إدواردا» بسيطة التفاصيل، هوائية، ذات إيماءات بسيطة.

عادت إلى غرفة النوم وهي تحمل صينية صغيرة فوقها أدوات تقديم القهوة. قدح وصحن. بدون سكر. وعلبة الكوكا كولا المميزة بألوانها الأحمر والأسود والفضي.

- "هاك، أماه".

شعرت «ماريا إنيس» بأن كل شيء يدور من حولها، وحينما أغلقت عينيها زاد الأمر سوءاً لأنها شعرت أن الفراش يغوص في أرض أشبه بالرمال المتحركة، ويهتز كقارب وسط بحر شرس.

سألتها «إدواردا»: "متى سنرحل؟".

ـــ"إجازتي في المستشفى تبدأ في الثاني من الشهر. سننتظر حتى يسافر أبوك. ويمكننا الرحيل في اليوم التالي، وسيكون يوم اثنين".

- "كم سنمكث؟".

ـــ"كما نشاء. يومًا، يومين، عشرة، شهرًا".

- "أو لبقية حياتنا؟".

- "أو لبقية حياتنا. أتودين هذا؟".

- "ربما".

- "هناك من أود رؤيته هناك، خلاف أختي".

أطرقت «إدواردا» ولم تخاطر بالسؤال. كانت «ماريا إنيس» ثملة وقد تتفوه بشيء أكثر مما تود أن تسمعه هي. تقدر «إدواردا» أن الحفاظ على

مسافة صحية معينة أمر مهم بين الأم وابنتها. ليتحكم كل واحد في أسراره. هو أمر مفهوم في عمرها، حتى لو لم يكن دوماً على هذه الطريقة، وحتى ولو وضعت معايير جديدة بينهما مستقبلاً، حينما يختزل العمر الذي يفصل بين أمها وابنتها في رقم مبهم، مجرد معلومة مدونة في رخصة قيادة كل منهما.

ـــ "مزيدًا من القهوة؟".

تناولت «ماريا إنيس» المزيد. ثم نهضت من الفراش مثل شخص أجريت له عملية جراحية للتو، وحركتها تجعلك تشعر بأن كل خلية من خلاياها تتألم. هندمت فستانها ومررت أصابعها عبر شعرها القصير، واتسعت عيناها وهي تنظر إلى نفسها في المرآة، وتذكرت في تلك اللحظة قصة ذات الرداء الأحمر..."يالها من عينين واسعتين، جدتي".

الأفضل أن ترى تلك الكلمات التي لم تبح بها.

عادت إلى غرفة المعيشة، وهمس لها «جواو ميغيل» أن الناس بدأوا يسألون عنك.

لمست «ماريا إنيس» برقة معصمه المصاب، حتى إنه بالكاد شعر بلمستها.

"أتمنى أن تتعافى قريباً"، قالتها له، ثم اتجهت صوب الاستيريو لتعاود تشغيل المقطوعة الثلاثية. الترومبيت والكمان والبيانو. حدجها الموسيقي الأمرد طويل الشعر ذو قميص فرقة (جنز آند روزيز) بنظرة رفض صريحة.

في المستشفى الحكومي الذي تعمل فيه «ماريا إنيس» هناك من لم يرعياناً من قبل في حياته مضرب تنس، ومن لم يسمع من الأصل بجداول فينيسيا، ومن سيضحك ملء فيه لو قدر له أن يطالع الأسعار في قوائم الطعام بالمطاعم الفخمة. هذا ثمن قطعة لحم؟ لابد أنك تمزحين أيتها الطبيبة.

اسم «ماريا إنيس» هناك هو الطبيبة. ورغم مرور عقدين من الزمان، إلا أنها تجد وقع الكلمة غريبًا حينما يناديها أحدهم بها، ولا تجد في نفسها افتخارًا به. هي ليست بطبيبة محنكة، ولكنها تحب في مهنتها رؤية الناس. طبيبة أمراض جلدية: حب الشباب، الذئبة القرصية، الصدفية، التهاب الجلد الشعاعي، مرض هانسن، سرطان الجلد، داء الليشمانيات.

وصفها رئيسها ذات يوم بأنها مجرد برجوازية تشعر بالملل فتتسلى ببعض الأنشطة الإجتماعية ما بين شاي الظهيرة وموعد التزين بالمانيكير، وكأنها توزع نقوداً على شحاذي إشارات المرور، وتتحاشى الانخراط معهم حتى لا يسرقها أحد. هذا الرئيس بعينه هو من أعفي من منصبه بعدها بشهر، حينما وجدوا توقيعه على فواتير مضروبة لمستلزمات جراحية، وهو أمر يحدث كل يوم، ولكن سوء حظه هو الذي أوصل الموضوع إلى الصحافة.

نقلوه إلى قطاع آخر.

توفيت «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو» حينما نالت «ماريا إنيس» الدبلومة من الجامعة الاتحادية عام 1979. ومن ضمن الدفعة التي ترفع أيديها فتظهر الخواتم الزمردية (حقيقية أو مزيفة) في يد وشهادات الدبلومة في اليد الأخرى كان هناك شاب اسمه «برناردو أغواس»، كان حسن الصوت فتخلى عن الطب ليصير فيما بعد مغنياً عالميا مشهوراً. ارتبطت «ماريا إنيس» بعلاقة غرامية مع «برناردو أغواس»، تلتقيه على فترات متباعدة، مرة أو مرتين في العام. كلما أتى إلى ريو هاتفها، فيلتقيان ويشربان في بار يطل على المحيط ويستمعان إلى الموسيقى في سيارته، ثم ينهيان اليوم في شقته التي يحتفظ بها في ريو، فيمارسان الجنس، ولكنه جنس لا علاقة له بحب أو بصداقة. وكأنه تدريب يعود على كل منهما بمكسب ما، أو هكذا يخيل لهما. صار «برناردو أغواس» يذكرها بفترات الظهيرة

الرطبة عند البحر، وكؤوس الشراب، وأغاني عصر النهضة، والباروك الرقيقة: مونتيفيردي، جون دولاند، مارك أنطوان شاربنتييه، بورسيل، جوزوالدو، لولي. وهي أغان لا تتلاءم وجسده الضخم، وذقنه الأشيب، وشعره المعقوص ذيل حصان...دون جوان. إنه دكتور «جيكل» ومستر «هايد». شعرت «ماريا إنيس» أنها قد وقعت في غواية كليهما، أو ربما هي ما اتصفت به هذه العلاقة من قسوة، وتصنع أساسه الحنين إلى الماضي، وزيف، وكلمات حلوة.

تعرف أن لـ«برناردو أغواس» عشيقات أخريات في ريو، وفي مدن أخرى، وأنه مغرم بأن يعيش طقوس الحريم هذه. ولم يحاول أن يخفي عنها هذه الحقيقة، وحكى لها ذلك ذات مرة، وكأنه حصان فحل يتباهى بأفراسه: هل فكرت أنا يوماً في أن أبتاع خريطة للعالم ثم أقوم بوضع علامات على الأمكنة التي لي فيها عشيقات؟ ثم بدأ يسميها: ريو، ساو باولو، قرطبة، لندن، لوفين، باريس، ميلانو...

قالت لنفسها:"أحمق". ورغم هذا قبلته مجدداً. هي بالنسبة لـ«برناردو» مجرد علامة ملونة فوق خريطة للعالم. ورغم ذلك، أحست براحة لأنها كانت في موقف كهذا بلا اسم.

مع الساعات الأولى لصباح الخامس والعشرين من ديسمبر، وبعدما تبادلت العائلة الهدايا زاهية الألوان، وبعدما شربت الكثير من الكوكا كولا مع القهوة

وكذلك الكثير من كؤوس الشراب، استلقت «ماريا إنيس» لتنام وحلمت بـ«برناردو أغواس» حلمًا جنسياً، وهي لم تحلم أبداً بـ«توماس».

حينما استيقظا في الصباح التالي، لم يكن صداع «جواو ميغيل» أشد وطأة من صداع «ماريا إنيس». وكان قد نسي تماماً تشغيل جهاز التكييف. كان «جواو ميغيل» قد نجح بدوره في اصطناع حلم وغمس نفسه بداخله. جلس إلى المقعد الأبيض وأخذ ينظر إلى زنابق الأكريليك الغريبة، الاصطناعية بفظاظة، وسيقانها البيضاء، داخل تلك المزهرية الملتوية. حرارة الصباح لزجة، يشعر بها «جواو ميغيل» في مؤخرة رأسه، ولكنه لم يهتم.

الحياة بهية الألوان ومشوقة، كأنها طبق طعام هندي أو مثل ركوب قطار حلزوني في مدينة الألعاب .، كأنها قطعة مخمل مزدانة بالترتر والخرز، كأنها ذراعا «لوسيانا» القويتان المفرودتان برائحة بودرة التلك، وفوقها الشعر الذهبي الخفيف المنساب هنا وهناك. حلم «جواو ميغيل» بها، واستيقظ وذكره منتصب كمراهق. كان بوسعه أن يمد يده ليلامس كتف «ماريا إنيس» نصف العاري، وربما وجد راحة له في جسدها، ولكنه فضل أن يترك كل شيء على حاله، وقصد البقعة الخضراء في غرفة المعيشة ليكمل حلمه.

في شقة مجاورة تلقى طفل غني هديته من بابا نويل الثري، لعبة إلكترونية تطلق أصواتـًا يمكنك أن تسمعها خافتة على البعد. ولكن الصوت عال بما يكفي لإقلاق راحة «جواو ميغيل» وإخراجه من أحلام اليقظة. قام بتشغيل جهاز الاستريو ليستمع إلى ثلاثية البراهما. شعر بأن بوسعه أن يغتصب شيئا من «ماريا إنيس»، وأن يدنس خلوتها، وأن يطلق الكلمات القذرة على شواهد قبور أسلافها.

أتت «إدواردا» إلى غرفة المعيشة وجلست على الأرض، بالقرب منه، وعلقت بفروغ صبر مصطنع: "هذه الموسيقى هي الشيء الوحيد الذي سمعناه في هذا المنزل طوال الوقت منذ أمس".

أخذت تتناول ثمار التمر والتين والخوخ المجففة التي تبقت من الحفل.

سألها: "هل أنتِ متأكدة من عدم رغبتك في المجيء؟..لايزال هناك وقت لحجز تذكرة لكِ، إذا غيرتِ رأيكِ".

ـــ"أنا متأكدة. فأنا أود زيارة خالتي «كلاريس»".

تحدثه بنظراتها. تريد أن تؤكد له أنها تفضل الخالة «كلاريس» على الجد «أزوباردي». لتغيظه بلا سبب.

رفع «جواو ميغيل» حاجبيه وهز كتفيه في تسليم.

ـــ"هل ستذهب إلى تدريب التنس في الغد؟".

ـــ"لا أعتقد. رسغي لا يزال يؤلمني قليلاً".

نبرة صوته تذكر «إدواردا» بالشوكولاتة بالنعناع: نبرة راقية، ناعمة، حلوة بما يكفي لتتناولها بعد الثامنة.

ألقت «إدواردا» ببضع حبات خوخ مجففة أخرى في فمها. تحب هذا اللون. شعرت بمذاق حلو خفيف على لسانها. البراهما، دروس التنس. ارتدت بلوزة قصيرة تكشف عن سرتها، التي تضع فيها قرطاً فضياً صغيراً. مد «جواو ميغيل» يده إلى طبق الفواكه المجففة والتقط حبة تمر.

ساعات بعد الظهر لطيفة عذبة. رائحة أشجار السرو رائعة، وهي مليئة بتلك البذور الخضراء الصغيرة التي يحب الأطفال تجميعها. إنها تلك اللحظات المراوغة بالذات، وقت أن تتوارى الشمس وراء التلال ولكنها لم تسحب نورها بعد عن الدنيا.

تسع سنوات من العمر تعني الكثير والكثير من الوعود. الحياة لحظات متميزة وأفعال لا متناهية. الأمل مثل تيليسكوب مثبت أسفل سماء الليل الواسعة، أو هو الميكروسكوب الذي يتفحص قطرة ماء. أوه، رائحة السرو جميلة للغاية! وجسم هذا الطفل الصغير، كم هو انسيابي! كل شيء مكثف. كل شيء يهم، بلا بقايا هامشية، وبلا رفض. لكل شيء وظيفة، حتى بذور السرو الخضراء الصغيرة؛ فسرعان ما سيحولها الأطفال إلى عملة بديلة ويتفاوضون حول قيمتها:

—"كم ثمن كعكة الطين المزينة بزهور الأقحوان هذه؟".

—"خمس بذرات سرو".

ابتسامة، ابتسامتان، ثلاث ابتسامات. نمر، نمران، ثلاثة نمور مأساوية.

إنه العمر الذي يكون فيه للزمن رائحة، بل يمكن أن يصنعوا من الزمن عطراً. بالطبع فكرت البنت ذات الأعوام التسعة في هذا.

تركض، وحيدة سعيدة – سعادة حقيقية، من النوع الذي لا يحتاج أن تتعرف عليه – بين أشجار السرو. لكل شجرة سرو جسد ووجه، ولكل منها روح، هي لا تشك في هذا. لهذا تستأذنهم أولا قبل أن تجمع البذور الخضراء. السماء فوقها خفيفة ونظرة إليها تمنحك الشعور باللا منتهى. ولكن هذا اللا منتهى قد يتبدد في ثوان.

أو قد يموت اللا منتهى في ثانية فيتجمد فيدوم للأبد، وهذا نقيض اللا منتهى، التناهي المطلق. لحظة بوسعها أن تختصر كل اللحظات. لحظة تقبض على الطفولة من عنقها، وتسجنها، وتسحق صدرها الضعيف حتى تختنق. لحظة تسلب الجنين من رحمه فتطيح بحياته، وتجفف جذور أشجار السرو، وتحطم كعكات الطين بزهور الأقحوان تحت قدميها.

رائحة القاعة في المنزل مثل رائحة الأرضيات حين ينظفونها. تمشي على أطراف أصابعها، تعتقد أنها بذلك تتدرب لتصير بالّيرينا، وهي تريد أن تصبح باليرينا حينما تكبر، ولديها دمية (هدية من جدتها لأمها) بزي الباليه: الرداء، وخفي الباليه، والشبكة التي تلم الشعر تحتها، وتاج فوقها مرصع بأحجار بيضاء تعتقد هي أنه ماس حقيقي، لابد أنه كذلك، فجدتها بالغة الثراء. تمسك بيديها بضع حبات سرو. هي أيضا ثرية، مثل جدتها.

الباب المفضي إلى غرفة النوم موارب، على غير العادة.. وأحياناً يتسلل إلى الداخل وحش بعين واحدة، يرغي ويزبد ويزمجر بفكيه المرعبين. الوحش الذي يفترس الطفولة. أيكون شيئاً تتوهمه؟ يكشف الباب الموارب عن منظر قد يكون جميلاً للغاية: الجزء الشاحب الذي لا تعرفه ذات السنوات التسعة بعد في جسدها: النهد.

تكوين مصنوع كله من منحنيات، من دون زوايا حادة، يرتبط بكتف مستديرة، وذراع ناعمة، وبطن مسطحة كالورقة. تنظر مشدوهة إلى يد ذكورية تقترب لتلامس ذاك الجسد، وأصابع قوية تداعب النهد، وتنزلق عبر الوادي الذي يصيبك بالدوار حتى تصل إلى الحلمة المرتعشة فتمسكها للحظات بين الإبهام والسبابة. وكأن الإصبعين يملآن ساعة يدوية.

سقطت بذور السرو من بين يديها. تود أن تغلق عينيها وتعود بالزمن إلى الوراء. في تلك اللحظة تبدأ الشمس في استلاب نورها ولكن الليلة الوليدة مختلفة عن بقية الليالي: إنها ليلة ولدت مجهضة، ميتة. تناثرت البذور فوق الأرضية اللامعة وارتسم الألم والفزع على وجه البنت، التي تهرب الآن، على أطراف أصابعها. لكنها هذه المرة نسيت أنها تفعل ذلك لأجل أن تكون باليرينا. تريد ألا يسمعها أحد، تريد ألا يعلموا أنها تعلم.

بقيت بذور السرو منثورة فوق الأرضية.

الفصل الثالث
ورود حمراء متوهجة

حينما فردت أولى فراشات الصباح جناحيها لتحلق فوق المحجر، الذي كان بعيداً عن منال بنتيها، كانت «أوتاسيليا» قد استيقظت بالفعل منذ برهة. تأملت فجر اليوم الجديد وانسحاب العتمة شيئاً فشيئاً من فوق الوادي كالبساط. إنها روح ساعات الصباح الأولى، تولد ما بين الثالثة والرابعة، حيث يتبدى العالم كفاصل بين زمان وآخر، أشياء لم تولد بعد وأخرى تموت. أن تكون مستيقظة، وأن تجوب المنزل ومدخله الأمامي، أمر أشبه بأن تطفو في طي النسيان، شاهدة على الحياة بالداخل والخارج بطريقة تستعصي عليها. تبزغ الشمس، فتبطل التعويذة، وينهض العالم منتصبا يفتح عينيه، فيعتصر الأسى «أوتاسيليا».

في ذلك الصباح الصيفي الحار الرطب، انسابت دمعتان على وجنتيها.

فهناك قرار يتشكل، قرار يبث السكينة، وإن كان قد تأخر كثيراً. قرار لا يمكن الجزم بمقدار أهميته بأي حال من الأحوال.

حوالى السابعة والنصف، استيقظ «أفونسو أوليمبيو» وتوجه إلى المائدة، حيث كانت الخادمة قد وضعت الحليب الدسم بالفعل، طازجاً من البقرة، وإلى جواره القهوة والسكر، وخبز الذرة، والخبز العادي، والزبدة، والجبن، والبابايا. ومن بين أصوات عدة تصدح كل صباح، تميز شدو طيور الدج والكيسكادي.

ألقى تحية الصباح على «أوتاسيليا»، التي كانت تطل من النافذة وهي تحمل قدح القهوة، بعدما أضافت إليها سراً شيئاً من البراندي.

ـــ"صباح الخير، «أفونسو أوليمبيو»".

طرقع عظام أصابعه بحركة سريعة سلسة، وتنهد بعمق وهو يتأمل في شهية مائدة الإفطار.

قال في جذل: "مؤكد أننا اليوم سنبيع ما تبقى من الفاصولياء، الثلاثين جوالاً"

لا يزال فيه الكثير من «أفونسو أوليمبيو»، الذي اكتشف «أوتاسيليا» الوحيدة مكسورة الجناح في منزل والديها، نفس الرجل الذي تزوجته في أسعد أيام حياتها. رجل من ميناس جيرايس ويتصرف مثل أهلها، كلماته قليلة وإيماءاته محددة. كان من السهل جداً عليها أن تصدق «أفونسو أوليمبيو» وأخلاقه، وأيام الأحد الهادئة التي يمضيها بصحبة كتاب في حجره وغليون في فمه. فبعد خمسة أيام، وحتى بعد خمسة أعوام، من الحياة معه أدركت أنه ليس لديه ما يخفيه عنها، أو حتى يدهشها به. لا مفاجآت معه. بدا لها أن «أفونسو أوليمبيو» مجموعة من مظاهر، وهو طيب من دون شك، مثله مثل غيره من الطيبين. ضئيل، نحيف، إنه حتى لا يشغل حيزاً يعتد به من الفراغ. يمكنك أن تختزله في ذلك التبغ حلو الرائحة الذي يدخنه في تمهل.

"لابد أن أذهب إلى الطبيب في الغد"، ذكرته «أوتاسيليا»، فأطرق برأسه، سيصطحبها بالسيارة، التي نادراً ما يخرجها من المرآب (يدير المحرك كل يومين حتى لا تعطب البطارية)، سيصطحبها ويسندها بساعده. وقبل هذا وذاك، سيبذل جهده حتى لا يعلم أحد، وخاصة البنتين. ففي هذا المنزل يخيم قانون سامٍ بموجبه توجد أمور، ولكن أبداً لا يكون هناك اسم لها، تبقى غير ملموسة أو محسوسة.

ويجب الإمتثال لجميع هذه القواعد المصطنعة، والمظاهر، والبسمات، حتى ولو كان كل شيء في حقيقته دنسًا.

تنهدت «أوتاسيليا»، وعدلت من نبرة صوتها وهي تقول ببرود: "قررت إرسال «كلاريس» إلى ريو دي جانيرو للدراسة".

ازدرد «أفونسو أوليمبيو» لقمة خبز الذرة التي مضغها للتو.

أخذ رشفة من القهوة ومسح ركن فمه بالمنديل. لم ينظر إلى زوجته، وهو دوماً لا ينظر إليها في عينيها، القواعد بينهما واحدة، على الرغم من كل شيء. سعل سعلة مهذبة مكتومة، وغطي فمه بيده اليسرى بينما قبضت يمناه على أذن فنجان القهوة المعلق في الهواء. بالخارج، استمر شدو الدج والكيسكادي بإصرار.

ـــ"ما سبب هذا القرار؟". كان هادئـًا كالعادة؛ صوته خفيض و كلماته ناعمة.

أشاحت «أوتاسيليا» بيدها بطريقة غامضة: "لمستقبلها. لا يمكنها أن تدرس هنا. هناك في ريو دي جانيرو يمكنها الالتحاق بمدرسة ثانوية، وتعلم الموسيقى والفرنسية".

ـــ"لا أعتقد أنها فكرة صائبة".

قالت كاذبة

ـــ"أنتِ لا تضيعين الوقت".

سكتت «أوتاسيليا». شبكت أصابعها وكأنها تصلي، كما كانت تفعل أيام إيمانها بوجود رب، وأيام كانت تحضر موعظة الأحد في جابوتيكابايس بدافع من ذاتها، وليس رياءً أمام الناس.

ـ"إذن.. تحدثتِ مع ابنتك بشأن هذا الأمر".

أومأت «أوتاسيليا» برأسها.

كانت خائفة، وكذلك كان «أفونسو أوليمبيو» بطريقة ما. خوف تتزايد وحشيته ومراوغته للحواس، خوف تجهله طيور الكيسكادي والدج التي تشدو في الخارج بأصوات عذبة واضحة. كانا قد نسيا إصلاح ساعة الجد، فبقي البندول معلقاً كسلاناً صامتاً.

استأذنت وتوجهت إلى غرفة نوم «كلاريس» وأدارت مقبض الباب. لا توجد في هذا المنزل أبواب مغلقة بمفاتيح، وممنوع على البنتين إغلاق أية غرفة عليهما. لم تجدها في فراشها. مشت عبر الردهة وفتحت باب غرفة «ماريا إنيس» حيث وجدت البنتين نائمتين في نفس الفراش بشكل متعاكس ، لمزيد من المساحة. كانت «ماريا إنيس» نائمة وفمها فاغر ورأسها نحو الوسادة. على منضدة الفراش كوب ماء مغطى بصحن (تخشى «ماريا إنيس» أن تسقط بعوضة في الماء فتشربها دون أن تدري) وإلى جوارها عروس الباليه؛ كنزها الأعظم. وعلى الأرضية، جوار الفراش، خفان من القماش، خف أصفر، وخف أزرق في أبيض. خنفساء سوداء تتسلل على أدراج الشفونيرة بأقدامها المغبرة. ستساعدها «ماريا إنيس» حينما تستيقظ، وتنظفها، ثم تعيدها إلى الحديقة. لم تنادِ «أوتاسيليا» على «كلاريس»، بل سكتت وهي تكبت دموعها، وأغلقت الباب من جديد.

ترى «أفونسو أوليمبيو» جالساً إلى المائدة ساكتـًا خاويًا لا يكشف وجهه عن شيء. عادت لتجلس إلى المائدة من جديد، لتأكل نصف قطعة خبز مع الزبدة، رغم أنها ليست جائعة، ولكن هذا هو ما تتناوله في كل صباح.

كانا قد ضبطا ساعة الحائط حينما ظهرت «كلاريس» للإفطار. تنهض دوماً قبل «ماريا إنيس»، لم يحدث العكس أبداً، ولم يحدث أن بدت شبيهة بأختها؛ بشعر غير مهندم، مرتدية ملابس النوم، وتفوح منها رائحة النوم؛ بل تظهر «كلاريس» على الدوام في كامل أبهتها، وقد عقصت شعرها وارتدت حذاءها.

"صباح الخير"، قالتها بعذوبة وأدب، وجلست، ثم أعدت لنفسها فنجان القهوة بالحليب، وبعدها تناولت قطعة من خبز الذرة.

ـــ"أخبرتني أمك أنكما قد تناقشتما حول الدراسة في ريو، وأنك وافقتِ".

حدقت في فنجان القهوة وتظاهرت بنزع القشدة عن وجه الفنجان بالملعقة. اضطرب قلبها مثل محرك قطار بخاري قديم يتحرك فوق قضبان عتيقة، وفضحتها قشعريرة سرت في ذراعيها حتى وصلت إلى يديها. أطرقت برأسها موافقة على ما قال.

وصلت «ماريا إنيس» في اللحظة المناسبة تماماً، بشعرها غير المهندم، وبرداء النوم، نعسانة، تفرك عينيها بقبضتيها. ورغبت «أوتاسيليا» في أن تنهي اللعبة، وأن تتجاوز كل هذا، وهكذا قالت، حتى قبل تحية الصباح، وكأن كل شيء قد حسم بالفعل: "لدي خبر سعيد لك، «ماريا إنيس»؛ أختك ستذهب للدراسة في ريو دي جانيرو".

أطلق وحش يجوب أرجاء المنزل خواراً عميقاً، سمعه الأب والأم والبنتان، ولكنه تبدى لكل منهم بوجه مختلف، وبنبرة صوت مغايرة. لم تأت «أوتاسيليا» على ذكر الموضوع مرة أخرى طوال اليوم، ولم يعلم أحد أبداً أنها قد امتطت جواداً قبل مساء نفس اليوم وذهبت بنفسها إلى جابوتيكابايس لمهاتفة «بيرينيسي»، عمتها في المدينة الكبيرة، وطلبت منها طلباً لا يمكنها أن ترفضه.

كانتا تلعبان في الطين عند ضفة النهر. أحبت «كلاريس» ذلك الإحساس حينما يدخل الطين تحت أظافرها. لديها ثلاثة أصدقاء: «دامیایو»، وهو صبي أسود ضئيل عمره عشر سنوات ودوماً ما يشاكس «ماريا إنيس»، و«لينا» السوداء الجميلة غير المدركة لأنوثتها وما تصنعه في الرجال من حولها، و«كاسيميرو» الشقراء مثل ملاك عصر الباروك، وإن كانت تعاني من الديدان في بطنها. ذهبت «لينا» إلى المدرسة، ولكنها بليدة، وبالكاد تجيد القراءة. أما «كاسيميرو» و«دامیایو» فلم يذهبا، لأنهما يذهبان إلى الحقول.

لم تعلق «كلاريس» بشيء عن الحكاية التى لم تفهمها هي نفسها: ريودى جانيرو.. الدراسة.. ماذا تدرس؟.. وأين تعيش؟.. ومع من؟.. ولماذا؟.. هى تعرف لماذا، ولكن عليها أن تسكت ولا تتكلم.

هي تعرف كيف تسكت، تمرنت وتعلمت هذا طيلة حياتها.

ساعدتها «لينا»و«دامیایو» و«كاسيميرو» في حفر الطين عند النهر، لتحصل على الصلصال الذي ستستخدمه فيما بعد في منحوتات تشكل بها أحلامها وأشياء يمكنها أن تؤمن بها، منحوتات من خلالها تحاول أن تجد الخلاص لنفسها. كانت حافية وشعرت، تحت قدميها، بالأحجار الصغيرة عند ضفة النهر. البق يحتل قدمي «دامیایو».

"مر على منزلي لاحقاً، «دامیایو»، واطلب منهم أن ينادوا علي، وسوف أخلصك من هذا البق".

اتسعت عينا الصبي شديدتا السواد ناصعتا البياض عن آخرهما في امتنان ممجوج. كثيراً ما تقوم «كلاريس» بهذا، بإبرة تعقمها بالنار قبل أن تفتح الجلد في الأماكن التي أسكن البق تحتها بيضه، وبعدها تضع الإيودين على الجراح. ودائماً ما يهاجم البق «دامیایو» في باحة منزله، ودائماً ما يرتدي خفاً ممزقاً. وكان الحذاء السليم الوحيد لديه هو ذاك الحذاء العتيق الضخم الذي رماه صاحب الأرض مستغنياً عنه، وهو لا يرتديه إلا وهو ذاهب إلى الكنيسة.

كان شعر «لينا» في حالة يرثى لها. هي لم تدرك بعد أن لديها نهدي امرأة، فترتدي بلوزة ضيقة جداً، مهترئة من فرط الاستخدام. بدت طفلة في تصرفاتها بدرجة أكبر من «دامیایو». سمعت «كلاريس» ذات مرة من يتحدث عن احتمال أن تكون «لينا» متخلفة عقلياً. أحبت «لينا» أن تصفف شعر «كلاريس» وأن تهدهد «ماريا إنيس» في حجرها كالرضيعة.

"ذات يوم ستكون لدي ابنة، وسأسميها «ماريا إنيس كلاريس»".

والد «لينا» سكران دوماً، حتى إنه كثيراً ما يرقد فاقد الوعي على جانب الطريق. أما أمها، التي تمتهن الغسيل والكي، فدوماً ما تراها تمشي وقد وضعت فوق رأسها تلأعجيبًا من الملابس، وبكل اتزان. لا أحد يدري أنها تلتقي بين حين وآخر رجلاً ليس بسكير مثل زوجها، لتشعر معه بشيء من السعادة التي تظن أنه يعيشها.

ـــ"اجلسي هنا على هذه الصخرة، ولا تتحركي، «لينا»".

ـــ"لماذا؟".

ـــ"سأصنع لكِ منحوتة".

بينما كانت «كلاريس» تشكل الصلصال، اختلست «كاسيميرو» قطعة صغيرة من نفس الصلصال، فأكلتها. كان يوماً صحواً، والذباب يحوم فوقهم، بينما أفراس النبي تجوب سطح النهر. كانت اثنتان من تلك الحشرات ملتصقتين ببعضهما.

ـــ"انظرا"، أشار «داميايو» في خبث، وضحكوا من مشهد التزاوج هذا، عدا «كلاريس».

أخبرتهم «كاسيميرو» أن مشهد تزاوج الكلاب مضحك أكثر، بينما أكدت «لينا» أن مشهد تزاوج الجياد أشد غرابة.

تنهد «داميايو»: "المشهد الذي لم أره هو تزاوج الرجال والنساء"، ولكن «كلاريس» قاطعته وأمرت بأن يتوقف الكلام عند هذا الحد، والآن!

"سكوت". أسفت على نبرتها الآمرة، فعقبت: "أنا أصنع منحوتة هنا وأنتم تشتتون انتباهي بهذا الكلام الساذج". إلا أن كلماتها بقيت مشوبة بالحزن. مرت في السماء سحابة واهنة بينما بدأت النسور تحوم حول تبة قريبة. وفي الأرض، جوار «كلاريس»، ظهرت قرادة سرعان ما سحقتها هي بقدمها. ثم حاولت التركيز على ما تقوم به، جسد «لينا» الذي لابد أن تخرج المنحوتة تشبهه، نزوات طفلة في ثوب امرأة.

في تلك اللحظة تحركت السحابة الواهنة التائهة في السماء يميناً فصارت أمام الشمس، فأضحت السماء غائمة، تماماً كأفكار «كلاريس». العينان في منحوتة «لينا» غائرتان عميقتان، ولاحقاً، حينما عملت «كلاريس» على إتمامه تحت أضواء الشموع في غرفتها، قررت أن تسمي المنحوتة: "الموت".

بعد أسبوع، نادت «أوتاسيليا» عليها في منتصف الليل، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية.

ـــ "أريد أن أريك القمر، «كلاريس»، لقد بزغ للتو".

خرجتا إلى باحة البيت حافيتين في صمت. ارتفع قمر أصفر ناضج خلف بستان أشجار الصنوبر، فحول تلك الأشجار إلى هياكل هائلة. الهواء ساكن ساخن. لم تتشابك يدا الأم وابنتها. نعيق بومة في الجوار، وهشهشة خفافيش تحوم سريعة بين الأشجار، وسرب من النمل الأسود يعبر المسافة بين شجيرة ومسكنه. أمكن لـ«أوتاسيليا» و«كلاريس» سماع زمجرة ذاك الوحش الذي لم ينم.

ـــ "لن نرى بعضنا كثيراً بعد الآن"، وفهمت «كلاريس» أن أمها تقصد موضوع ريو.

لا اعترافات بينهما، ولا عناق.

اندهشت «كلاريس» من إصرار أمها على إبعادها. في الأمر سر لا تفهمه، وتعجز عن سبر أغواره.

ـــ "كما أنني مريضة"، عقبت «أوتاسيليا» فكسرت قاعدة من القواعد بينهما.

– "ممّ تعانين؟"ــ"لا يعرفون بعد.. لا داعي لأن تقلقي، فلديك ما يشغل بالك، ولا تخبري «ماريا إنيس»".

هكذا حرمت عليها الموضوع بلطف. لم تتبادلا النظرات.

ــ"مع من سأقيم؟".

ــ"عمتي «بيرينيسي». لديها شقة في حي فلامنغو، قريبة من الشاطئ".

عضت «كلاريس» على شفتها، وهي عادة تأصلت لديها.

ــ"ستفتقدني «ماريا إنيس»".

ــ"لا تكوني غبية، لدى «ماريا إنيس» أصدقاء، وابن عمها «جواو ميغيل» يأتي هنا كل إجازة. يمكنكما أن تتراسلا".

ــ"ربما يمكنها أن تأتي لزيارتي بين الحين والآخر".

تنهدت «أوتاسيليا» بعمق، وبدت ضعيفة، مثل ورقة شجر جافة معلقة تنتظر أضعف نسمة هواء لتسقط إلى حيث مصيرها المحتوم.

ــ"ربما".

بقيت «كلاريس» تحدق في القمر.

"سوف يرسل الأمريكان رجالاً إلى هناك"، أشارت نحوه بإصبعها، ولكنها سرعان ما سحبت يدها في جزع، فقد سبق وحذرتها «كاسيميرو» من أن الإشارة إلى القمر تجعل البثور تظهر على طرف ذلك الإصبع. هزت «أوتاسيليا» رأسها نافيةً وأخبرتها بأنهم لن يتمكنوا من ذلك.

جزعت «كلاريس»، تخشى ألا يتمكنوا فعلاً من الصعود إلى القمر. تعتقد أن المهم جداً أن يخرج الإنسان إلى الفضاء، وأن يعيش على الكواكب، وأن يطأ

أراضٍ بكر لم تشهد بعد أفكاراً أو رغبات أو ذكريات، كأنه ميلاد جديد. تذكرت أنه يوم ميلادها، ستتم خمسة عشر ربيعاً، وهو العمر الذي تنخرط فيه الفتاة في حفلات لا تتوقف خلالها عن الابتسام وهي مرتدية فستانـًا ورديًا، وترقص على موسيقى "الدانوب الأزرق" مع أبيها الفخور بها. لم تكن ترغب في حفلة.

ــ"ما المرض الذي تعانين منه، أماه؟".

ــ"أخبرتك ألا تفكري في الأمر".

رغبت «كلاريس» في أن تحتضنها. رغبت في أن تداعب شعرها، قبل أن تبكي طوال الليل في حجرها. أطلق الوحش الذي لم ينم أنين ألم وتعثر في بذور سرو سقطت في الردهة ، لقد كنست هذه منذ أمد، ولم يشك أحد أبداً فيما كانت تستخدم فيه تلك البذور الميتة. ولكن «كلاريس» تعجز عن محوها من ذاكرتها وهو ما يؤلمها أكثر من أي شيء آخر.

ريو دي جانيرو. من يدري.

ــ"لندخل الآن".

أطاعتها «كلاريس»، وبقيت تفكر في كل شيء طوال ليلة سهاد، لم يتوقف خلالها الوحش عن خمش باب غرفتها. يتأوه، ثم يئن، ثم يزمجر. بعدها رغبت «كلاريس» في الذهاب إلى ريو دي جانيرو، بل تمنت أن تذهب إلى هناك في أقرب وقت، بالرغم من كل شيء، وبالرغم من «ماريا إنيس»، ومن مرض «أوتاسيليا»،

ومن «كاسيميرو» و«لينا» و«داميايو»: اذهبي إلى ريو دي جانيرو. لو كانت أمريكية لأمكنها الصعود إلى القمر. حتى تتنفس الكون الهائل وتوقن أن لا شيء آخر يهم، وأن كل شيء يزول تماماً مثل الليل عند بزوغ الفجر.

غيرت الرياح اتجاهها وهو ما يعني قرب هطول المطر. كانت «ماريا إنيس» وابن عمها «جواو ميغيل» يعقّدان أرجوحة مصنوعة من حبل وإطار قديم إلى أدنى غصن من أغصان شجرة مانجو، وتراهما «كلاريس» عبر نافذة غرفتها بينما تضع ملابسها وحاجياتها، وحدها، فوق الفراش. إنها تجهز حقائبها. هما حقيبتان، وحقيبة منفصلة لأوراقها. إنهما ضئيلان ، ضئيلان جداً. عقدت «ماريا إنيس» شعرها في ضفيرتين، والآن تتلاعب بهما الرياح ليتحولا للحظات إلى حيتين مسحورتين. لم تكن رائحة الجو مريحة.

كانت «كلاريس» قد أخذت حماماً بعد خروج أمها منه، ولاحظت كرة شعر داخل حوض الاستحمام، كانت كبيرة. كان الجو حارًا، ورغبت «كلاريس» في حمام بارد، غير أن الماء يأتي من ينبوع تحت الأرض غاية في البرودة لدرجة تزرق معها شفتاها. خلعت ملابسها كلها في الحمام وتحسست ساعديها الباردين بيديها، وهي تشعر أن المرآة الصغيرة تبتسم لها وأن الدبابير تتوسل بناء منزل جديد لها عند النافذة.

الآن، حسمت اختياراتها. كانت مبتهجة لسبب غامض، كما لو أنها استعادت وعداً ما، عطرًا من أيام الطفولة، وبعض يقين بأن الواقع يتحقق بهذه الطريقة، وليس بتلك الطريقة. وجدت فستاناً كانت قد نسيت أمره تماما، أصبح قصيراً جدا عليها الآن. يمكن أن تعطيه لـ«ماريا إنيس». وهذا الحذاء ضيق جدا. هزت الريح نافذة في مكان ما في المنزل. ثم وجدت «كلاريس» فستانها الأبيض، الجديد الذي لم ترتده قط لأنها ظنت أنه لا يناسبها. يمكن

لـ«ماريا إنيس» أن تأخذه أيضاً لترتديه حينما تكبر، وتتدرب على خطوات الباليه أمام المرآة. بينما يراقبها شاب في الجوار خفيةً.

سيقام في تلك الليلة عشاء وداع (وهو في ذات الوقت احتفال حصيف بعيد ميلاد «كلاريس» الخامس عشر)، وقد دعا والداها حشدًا من الأقارب الذين يعيشون في جابوتيكابايس، وكذلك مالك الأرض المجاورة وزوجته وابنه ، وهو صبي نحيف يدعى «إلتون خافيير»، لديه شارب مراهقين سخيف ويحب أن يتظاهر بأنه يرقب جميع سيقان النساء وأردافهن. سيصبح زوج«كلاريس». وكذلك طليق«كلاريس». وبعد أمد بعيد، سيشتري عربة غالية الثمن.

لدى «كلاريس» عدد قليل من الكتب:«بوليانا»...«بوليانا تكبر»...«الفتيات الصغيرات». أشياء من هذا القبيل، وهي تعتزم تركها لـ«ماريا إنيس»، على الرغم من أنها موقنة من أن شقيقتها لن تقرأ أياً منها. عبأت «كلاريس» حقيبتين ولفت أوراقها في حقيبة ورقية بنية اللون. هذا كل شيء. كانت ستسعد لو أن ما ستأخذه معها أقل من هذا، وكان قلبها سيطرب لو أمكنها ترك كل شيء خلفها. ولكن «أوتاسيليا» أمرتها بأن تعبئ حقيبتين.

كانت «لينا» في المطبخ، حضرت للمساعدة في عمل الحلويات، وبدت «أوتاسيليا»، المسؤولة عن كل شيء منكمشة، رقيقة، هشة، وهي جالسة مشغولة. جاءت «كلاريس» لتعرض المساعدة واكتشفت أن المطبخ قد استحال مصنعاً، حيث امتزج عبير كثيف قوي مختلط، وحيث باقة من الألوان، وحيث نساء يتصببن عرقا وقد انغمسن في البيض والدقيق مثل الجنيات. الكريم كرامل في مقلاة كبيرة، وهناك ثلاثة أطباق كومبوت شهية فوق الطاولة؛ أحدها لا يزال فارغاً، والطبقان الآخران يحويان كومبوت البابايا وكومبوت القرع والجوز. تقشر «لينا» الجوافة وتأكل القشر. كانت قد أحاطت شعرها بمنديل

معقود كان ملكاً لـ«أوتاسيليا» منذ زمن، ولا تزال تظهر عليه رسمات الورود التي كانت يوماً ما حمراء مفعمة بالحيوية.

ـ"هل انتهيت من منحوتتي؟...هل ستعطيها لي هديةً قبل أن ترحلي؟"، قالتها بعفوية.

كانت «كلاريس» قد أخفت المنحوتة في الإسطبل، فوق كابينة كبيرة صدئة لا يستخدمها أحد إلا في تخزين الخردة و ما لا منفعة له.

ـ"بالتأكيد، سأمنحها إياك هدية إذا أحببت، ولكنك أجمل منها بكثير".

ضحكت «لينا»: "سأقدم إليك في الصباح الباكر لتوديعك وحينئذ أعطيني إياها".

ـ"اتفقنا. وأريد منك إتقان دراستك حتى تتمكني من كتابة رسائل لي".

وافقت «لينا» من دون حماس: "حسناً...سأدرس".

ـ"وعد؟".

أومأت برأسها بفم مملوء بقشر الجوافة.

ليلة غائمة مغبرة، مليئة بالأفكار الغامضة. وبينما وصل «إلتون خافيير» ومعه باقة من الزهور، حسن الهندام، مغرورًا في غواية، كانت «لينا» قد أجهزت على طبق من الأرز والفاصوليا ولحم الخنزير في المطبخ. وبعد آخر لقمة منه بدأت تبكي.

بادرتها «كلاريس»: "لا تبكي. سنبقى أصدقاء للأبد، وسوف أحضر عرسك وسوف أكون الأم الروحية لابنتك".

ابتلعت «لينا» دموعها، وطلبت رشفة قهوة، قبل أن ترحل.

ــ"سأحضر في الصباح...الصباح الباكر".

ــ"وأنا سأعطيك المنحوتة".

غسلت يديها وفمها في حوض بالخارج، عند ذلك الخزان الأسمنتي الموسوم بتاريخ وتوقيع وكأنه عمل نحتي في حد ذاته. ثم غادرت و«كلاريس» تراقبها وهي تبتعد، بملابسها البيضاء، وذاك الوشاح الذي يحمل ذكريات ورود حمراء كانت يوماً ما زاهية.

خلال العشاء، بدا كل شيء طبيعيًا لدرجة تبعث على القلق، كما الحال دوماً: الابتسامات، الكلمات، اللمحات، ابتسامة «أوتاسيليا» المحمومة، وابتسامة «أفونسو أوليمبيو» الضئيلة المخيفة، وساعة الحائط ذات البندول التي تبتسم أسفل طبقة من الخشب المصقول وهي تعد الثواني بإيقاع متسارع.

أكلوا، وشربوا، وتكلموا. ألقى عم من جابوتيكابايس دعابة على مسامعهم، وجدتها «أوتاسيليا» غير لائقة فسمعتها بحنق، فغير العم الموضوع وبدأ يتكلم عن أسعار الحبوب.

وعلى مقربة منهم، كانت «لينا» تسير في الطريق، في رحم ليلة بلا قمر.

وابتكر «إلتون خافيير» جملة مشفرة لأجل «»كلاريس. أراد أن يفوز بقلبها، وربما اختلاس قبلة في المستقبل القريب.

بينما لعبت «ماريا إنيس»، غير المدركة لما في اسمها من تعقيد، لعبة الكلمات المعكوسة مع «جواو ميغيل».

كانت «لينا» في طريقها للبيت، تفوح منها رائحة العرق وتشعر بتعاسة متنامية في أعماق قلبها. هي على استعداد لأن تتعلم القراءة والكتابة كما ينبغي، حتى يتسنى لها مراسلة «كلاريس». ويكفيها الآن أن تنال تلك المنحوتة، على الأقل.

أحضر «جواو ميغيل» ورقة ليدون عليها جملة تحدته «ماريا إنيس» أنها تقرأ على النحو نفسه سواء من اليسار أو من اليمين:

Neil, a trap! Sid is part alien. neila trap si diS part a lieN

كان مسموحا في تلك الليلة لكل صبي وفتاة بكأس واحد من البانش. وغير مسموح لهم بتناول القهوة، وإلا فلن يناموا.

خرج الرجل من بين الشجيرات، خلف بستان أشجار السرو. كان ينتظرها، يعرف الكثير، بالرغم من كونه غريبًا عن المنطقة. يعرف الكثير وكان ينتظرها هي، «لينا»، وخرج لها كالشبح من خلف بستان السرو. سواد الليل جعله كائنـًا بلا ملامح، ثنائي الأبعاد، وكأنه ليس بشريًّا، بل مجرد رسمة على ورقة.

لم تصرخ «لينا»، فقد بادر بسرعة وبحركة محسوبة بتغطية فمها بيد قوية للغاية. لا حاجة لكل هذه القوة لتحكم غلق فم فتاة مثل «لينا»، ولتسيطر عليها وتمنع صراخها.

استغرق الأمر نصف الساعة ولم يكن يعني الكثير. لا شيء. وحينئذ هطل المطر، ظالماً بلا رحمة.

تهامسوا في الصباح التالي:

لطالما ظننت أن مأساة كهذه ستحدث لتلك البنت.

ليس لديها أي عقل.

ربما هي من جلبت لنفسها هذا، ألم تلحظ ملابسها؟

مستفزة.

بلا حياء.

قررت « أوتاسيليا » و«أفونسو أوليمبيو» أن الكلام في هذه الواقعة محرم، فأمرت «ماريا إنيس» و«جواو ميغيل» بالدخول، وطلبت من سائق التاكسي الذي كان بانتظار «كلاريس» (ليقلها إلى محطة حافلات جابوتيكابايس، حيث ستستقل الحافلة إلى نوفا فريبرغو، ومن ثم إلى ريو دي جانيرو) أن يدير المحرك.

ساد المكان عبق غريب، غير حقيقي، يتصاعد من الأرض الرطبة. حضنت «كلاريس» منحوتة «لينا» ووقفت أمام أبويها. نظرات متبادلة في تمهل، تبوح بالحقيقة لأول مرة. «كلاريس» ووالديها. كل ما هو حولهم مرتبك مشوش، وكأنه كرنفال الثلاثاء بأبواقه الصاخبة وبائعي الأقنعة وكل تلك الألوان والأوراق والأشرطة اللامعة. كرنفال بالمقلوب؛ بلا أقنعة ولا تنكر حقيقي.

تشاجرت «ماريا إنيس» مع «جواو ميغيل»، الذي لم يكن يريد أن يفترق عنها ولو للحظة: اتركني وحدي دقيقة!، ثم ركضت، ووراءها الضفيرتان. ركضت لتشاهد السيارة المغادرة، التي ستأخذ «كلاريس» إلى ريو دي جانيرو.

ومع كل ما اعتمل داخلها من شحنات متضاربة، وجدت في نفسها المقدرة على أن ترتجل دعاءً لأجل «كلاريس»: "يا رب، نجها".

دلفت «كلاريس» إلى السيارة وسط حشد من الناس الغادين والرائحين، من وصل منهم ممتطياً جوادًا، ومن جاء بسيارة، بوجوه واجمة أو باكية. وفي مكان ما تقبع «لينا»، التي لم تعد «لينا»، بعد أن سلب منها ما كان يجعل منها «لينا»، أجبرت «كلاريس» عينها على الانغلاق، ولكنها استسلمت لذكرى عنيفة (ليس لها علاقة بـ«لينا») تتعلق بشيء أسوأ من الموت بكثير. انتهى الأمر. ولكن ما معنى انتهى الأمر؟ هل ستعتري هذه الطفولة المبتورة فورة، في ذاكرتها، فتعود إلى طبيعتها؟ استمرت الطيور على شدوها ،وبدأت السيارة تتحرك ببطء، والسائق يتمتم بكلام عن الجريمة، كلمات بدت مشوهة لـ«كلاريس»، عجزت عن أن تميز أية كلمة من هذه التمتمة.

لم تكن تفكر في «لينا»، ليس تحديداً. شعرت بغثيان وطلبت من السائق أن يوقف السيارة لحظة. فتحت الباب وتقيأت على جانب الطريق المترب، نفس الطريق الذي عليه اغتصبت وقتلت صديقتها، تلك هي الكلمات المحرمة. وشاح لينا كان هناك على الطريق الطيني بفعل المطر، ذلك الذي كان عليه ذات يوم ورود حمراء زاهية اللون بوضوح وقوة.

ثم نظرت «كلاريس» ناحية منزلها، ناحية ماضيها، ورأت على البعد والدها... ضئيلاً نحيفـًا.

الفصل الرابع

“Si ch’io vorrei morire...”

"سيسعدني أن أموت..."

دائماً هي، دائماً «ماريا إنيس». لقد تمكنت من صنع وشم لنفسها بطريقة أقرب إلى السحر، صنعت وشمًا على جسدها تماماً كما توشم الماشية، بالحديد والنار، في وجود «توماس»و«كلاريس». هناك قوس قزح ظاهر في السماء عقب المطر. شبكية العين ممسوخة بفعل أشعة الشمس. الندبة التي خلفتها الجراحة، أو الندبة التي خلفتها سكين (أولفا). الدخان المنبعث في الهواء بفعل إشعال عود ثقاب، وعبق البخور الماكث بعد تبدد عوده. ووشاح باهت.

في ذلك المساء الحار في المزرعة، عشية وصول «ماريا إنيس» بعد سنوات عديدة، قالت «كلاريس» لـ«توماس»، وهي تنحت دوامات في قطعة من الخشب بمدية: كانت لي صديقة اسمها «أبريلينا»، ولكننا كنا نناديها «لينا».

داعب «توماس» فراء الكلب القابع جواره.

"ماتت منذ ثلاثين عاماً".

أخبرته حكاية «لينا»، الجميلة التي كانت تلعب دوراً مساعداً في فيلم حياتها، دورًا عابرًا ، وأضحت مجرد حادثةموت عابرة سرعان ما نسيها الناس.

في ذلك المشهد البعيد، خلال عشاء الوداع الذي كان في ذات الوقت احتفالاً بعيد ميلاد «كلاريس» الخامس عشر، حدجتها «ماريا إنيس» بنظرة نارية،

نظرة لم تنسها «كلاريس» أبداً، وكانت من القوة لدرجة أنها أضحت هي المقابل الصوري لـ«ماريا إنيس» في ذاكرة «كلاريس».

دائماً هي، دائماً «ماريا إنيس». إنها متضاربة، مستعصية على الزمن، محصنة ضد الفراق، وعلى أية محاولة مقصودة أو غير مقصودة لإبقائها بعيداً.

كانت «ماريا إنيس» بمثابة مرآة مشوهة لا تكشف سوى عن الأسوأ. ولا يمكن لـ«كلاريس» وأيضا «توماس» أن يغفرا لها، وكذلك لا يمكن لـ«كلاريس» و «توماس» شكرها بما يوفيها حقها، على كل شيء، حتى ولو فعلا ذلك طوال حياتهما. لقد أعطت «ماريا إنيس»، ثم منعت. منعت، ولكنها قبل ذلك كانت قد أعطت. دائماً هي.

عندما وصلت إلى ريو دي جانيرو وطرقت باب العمة «برينيسي» ومعها حقيبتان وحزمة من الورق البني، كان قلب «كلاريس» قد انفطر نصفين؛ نصفـًا ينطوي على حزنها على «لينا» والحاجة الماسة للالتزام، والنسيان، ودفن الماضي، ونصفـًا مغلقـًا على كل معاني التناقض والعبثية واللا غفران، وبين هذا النصف وذاك تقف «ماريا إنيس» بنظرة نارية، لتدرك «كلاريس» أن القصة لم تصل بعد إلى نهايتها.

عندما وصلت إلى ريو دي جانيرو في العام 1965، وطرقت باب العمة «برينيسي» ومعها حقيبتان وحزمة من الورق البني، كان قلب «كلاريس» قد

انفطر نصفين، وكان قلبها قد هرم وكأنه إسفنجة بالية. لم تطرح عليها العمة «برينيسي» أسئلة، وعانقتها بمودة ومن دون ميلودراما، ثم عرفتها على غرفة نومها التي كانت جاهزة وتنتظرها، «كلاريس»؛ غرفة نوم مختلفة جدا عن غرفتها في المزرعة. لم يكن في هذه الغرفة نوافذ تفتح على الخضرة وعلى منظر «ماريا إنيس» فوق الأرجوحة ومن خلفها الضفيرتان، وإنما على الشارع وبعض المباني السكنية المجاورة، ومن اليسار، على صف من الأشجار في متنزه أتيرو والبحر من ورائه. ستعيش في غرفة النوم هذه لخمس سنوات، ومنها سوف تذهب مباشرة إلى الكنيسة الصغيرة في جابوتيكابايس، حيث حشد ينتظر رؤية العروس وحيث يقف «إلتون خافيير» في انتظارها جوار القس.

كان إلتون خافيير نجل ملاك الأراضي المجاورة، قد انتزع وعداً من كلاريس الليلة السابقة أن تكتب إليه. واختطف قبلة عابرة، في القاعة التي تفصل غرفة المعيشة عن غرف النوم، وهي تستند إلى جدار متجعد كما لو كانا حبيبين لاتينيين. كبلت «كلاريس» تلك القبلة، فقد كان يضغط بشفتيه على شفتيها بقلق قليل الخبرة. الآن تذكرتها، وتذكرت معها «لينا» والوشاح الباهت، وأشياء أخرى كثيرة، والطريق الطويل الذي يفصلها الآن من «ماريا إنيس»، و«أوتاسيليا»، و «أفونسو أوليمبيو»، انفصال بالجسد.

شعرت بغصة في معدتها وصداع في رأسها. أخبرت العمة واندهشت من نبرة صوتها، وكأنها لم تتكلم منذ سنوات عديدة.

"هلا تناولتِ دواءً، رجاءً؟ وارتاحي، واخلعي عنكِ هذه الملابس وارتدي شيئاً أكثر راحة، وسوف أجلبِ لك بعض الدواء وشيئاً تأكلينه".

"لا بأس بكوب من الحليب ".

ولكن عمتها، التي تسمع ما يروقها فقط، قررت أن تتجاهل هذه الجملة الأخيرة وأن تجهز صينية عليها الحساء والخبز والزبد وعصير الليمون والبودنغ. وتحدثت بصوتها الكريمي بينما تأكل «كلاريس» طعامها، فذكرت لها ما رتبته من نزهات خلال الأسبوع القادم، فهناك الكثير من الأمكنة الجميلة في ريو، والشباب الوسيم، والابتسامات.

ـــ"سوف نلحقك بمدرسة ممتازة. وماذا بعد؟ نعثر لك على معلمة بيانو؟ وأخرى للفرنسية؟ أمامك الكثير لتفعليه حينما تكونين في الخامسة عشرة".

نظرت إليها «كلاريس» بامتنان ممزوج بالحزن. وتناولت من الطعام ما يكفي لكي تبدو غير مهذبة أمام كرم العمة «بيرينيسي»، التي أسدلت الستائر قبل أن تخرج طالبةً منها أن ترتاح.

ـــ" ارقدي في سلام"، قالها عقل «كلاريس»، ولكنها تذكرت أن هذه عبارة تقال للموتى. كما لو أن الميت يسمع. ربما يسمع، من مكان ما. وربما من يسمع هو ذاك المسؤول عن مصائر الموتى.

ألقت بنفسها على السرير بمفروشاته اللينة النظيفة، كما لو كان حقيبة تسوق متخمة. وفي تلك اللحظة بالضبط، ومن دون أن تدرك، بدأت نشاطها الذي سيبقيها مشغولة بشكل محموم لسنوات طويلة تالية، نشاط شكل «كلاريس» جديدة، تماماً كما تشكل هي تماثيل من كتل طينية لا ملامح لها.

النسيان بعمق. يخلص روحها بمشرط جراح. النسيان، طالما أن التغيير غير ممكن. ولكن لا: فقد أضحى لغز الألم بمثابة حاسة أخرى لديها، سادسة، أو سابعة، فيما وراء حاسة اللمس. وحينما داعبت «كلاريس» بهدوء الشعر الخفيف على ذراعها، وجدت أن تواصلها مع نفسها يشوبه شيء من الألم.

النسيان بعمق. من خلال الستائر المغلقة تتسلل إنارة داكنة عتيقة تضفي تجانساً على الغرفة. أدركت «كلاريس» أنها في أمان ولكنها أدركت أيضاً أنها لن تكون في أمان تام طالما عجزت عن النسيان.

النسيان بعمق. قامت من الفراش بصعوبة وبحركة فيها مشقة. في إحدى الحقيبتين (لم تكن قد أفرغتهما بعد) دلالة صغيرة على التمرد، الدلالة الوحيدة: كمية صغيرة من الطين الرطب الذي لفته في غلاف بلاستيكي ثم في جريدة احترازًا. أخرجت الطين بحرص، ثم فردت الجريدة فوق الأرضية. قد تتمكن من صنع منحوتة تتناسب وأحد العناوين التي تدور في عقلها (مرت على «كلاريس» أوقات كانت تصنع فيها منحوتاتها من وحي اسم قصة قصيرة أو أغنية):

النسيان

النسيان التام

النسيان الحقيقي التام

النسيان الحقيقي الأكيد التام

حرصت «كلاريس» على ألا تتسخ أرضية عمتها الودود (ذات الصوت الكريمي) بالطين، وهكذا قيدت حركة يديها فوق المساحة التي تغطيها الجريدة، لم يتشكل شئ، ليس بسبب افتقار «كلاريس» إلى الأفكار، ولكن كما لو أن ليس للنسيان وجه أو شكل.

النسيان بعمق. كانت «كلاريس» خائفة لأنها شعرت أنها تخلط بين شخصيتها كلها وبين قطعة من نفسها، قطعة واحدة فقط، قطعة من تاريخها. أيمكن أن يُسلب منها كل ما تبقى؟ إنها في حاجة إلى ذلك النسيان. بقي الطين

هناك، فوق الجريدة، لا ينم عن شكل يمكن تمييزه. وفي هذه الأثناء انسحب ضوء النهار على مهل من الغرفة.

لم تعد عينا «ماريا إنيس» ملتهبة. وضعت الماسكارا على أجفانها ومشطت بسرعة شعرها القصير الذي لا يحتاج إلى تمشيط، بل إن الفرشاة أفسدت طبيعته. شدت طارد المياه في المرحاض وراقبت السائل الأزرق المطهر وهو يمتزج بالماء هابطاً. ثم نظرت في المرآة مجدداً للتأكد من مكياجها، ومسحت بقعة ماسكارا التصقت بركن رمشها الأيسر. هي تحب أن تبدو عيناها عميقتين بالمكياج، غارقة في داخل رموشها المغطاة بالماسكارا، ومن حول الرموش طبقة خفيفة من " ظل العيون" البني مع لمسة من "الكحل" الأسود. أخفت «ماريا إنيس» تلك الهالة أسفل عينيها بالمكياج، ثم وضعت كريم الأساس. لم تضع المكياج على بقية وجهها، وهي لا تضع على شفتيها أحمر شفاه.

تأكدت من أن المفاتيح معها. كانت بداخل كيس النقود، داخل حاوية مفاتيح جلدية ذات لوحة معدنية صغيرة عليها حرفان منقوشان عشوائياً. ياللسخافة! حاوية مفاتيح بأحرف لا تخصها. وتخيلت «ماريا إنيس» واحدة عليها الحرفان "م...إ"...قبل أن تتعجب من سخافة الفكرة.

لقد حان وقت الرحيل. حقائب «جواو ميغيل» في السيارة بالفعل، كانت قد عرضت عليه اصطحابه إلى المطار. بهدوء، ظهرت «إدواردا» في غرفة

المعيشة، ترتدي حذاءً رياضياً، ومن الواضح أنها ستذهب إلى المطار كذلك، على الرغم من أنها وقبل ساعات قليلة لم تبد أي اهتمام.

"أبي لم يجهز بعد". بالطبع، فهو ليس جاهزًا لأنه حدد موعد درس التنس في وقت متأخر بعد الظهيرة(لم يتعافَ تماما من إصابة الرسغ) ومن ثم فقد بقي لفترة أطول يشرب "تيكيلا صن رايز" عند البار بجانب حمام السباحة. لم يغضب هذا«ماريا إنيس» الآن، بل بدا لها كما لو كانت الأمور تغير اتجاهها من دون قصد. لحسن الحظ...ربما.

لم تغضب، ولكنها، وبعد ذلك بنصف الساعة، أدارت وهي تقود السيارة شريطاً لأغنية بعينها لـ«كلاوديو مونتيفيردي» التي يشاركه الغناء فيها «برناردو أغواس».

Si ch'io vorrei morire

Ora ch'io baccio, amore,

La bella bocca del mio amato core.

أجل، سيسعدني أن أموت

وأنا أقبل الآن، حبيبتي

شفتي حبيبتي الجميلة

انطلقت السيارة عبر "لاغوا رودريغو دي فريتاس"، بحيرة المنطقة الجنوبية لريو، التي كانت مظلمة الآن، وفي وسطها تنتصب شجرة كريسماس هائلة، وضاءة منيرة. كانت المدينة بأسرها تشهد كماً هائلاً من الأضواء

الصناعية المتنوعة والخلابة، صنع تايوان، على الأشجار والمتاجر وواجهات المباني وشجيرات الأزهار والنوافذ، كل شيء. دخلوا النفق ثم خرجوا في حي "ساو كريستوفياو"، وبعدها دخلوا طريق "لينيا فيرميليا" السريع حيث تبلغ السرعة القصوى خمسة وخمسين ميلاً، إلا أن السيارات تتجاوزها وصولاً إلى ستين أو خمسة وسبعين، بل وأحيانا خمسة وثمانين ميلاً في الساعة. خلال دقائق سيعبرون منطقة على العكس تماماً من منطقة البحيرة؛ منطقة غابات نتنة الرائحة تنتشر فيها مشاريع إسكان ذوي الدخل المنخفض التي تظهر هنا وهناك من خلف لوحات إعلانات الهواتف المحمولة. مروا على مستشفى الجامعة، وفي النهاية على "إليا دو غوفرنادور" والمطار الدولي.

شعرت «ماريا إنيس» برجفة خفيفة لم تبد لها شيئاً مقارنةً بالمرة التي ذهبت فيها للقاء «برناردو أغواس» في المطار، وقت أن وصل ليقضي أسبوعًا واحدًا فحسب في البرازيل، لسبب يتعلق بتأشيرة على جواز سفره. كان ذلك قبل أن يشتهر، وقبل وجود طريق "لينيا فيرميليا" السريع أيضاً. توجها مباشرة من المطار إلى نزل في أفينيدا برازيل.

لم يكن من الجيد أن تتذكر ذلك، ولكنه ليس بالأمر السيئ تماما. بحثت «ماريا إنيس» عن مكان للسيارة، وكانت الموسيقى قد انتهت. لكنها استمرت تدندن كلمات الأغنية...ch'io vorrei morire، بنطق متعثر وعلى الرغم من أنها لا تفهم سوى الكلمات المشابهة للغة البرتغالية. ولكنها لم تهتم، فمن قال أنها مغنية أصلاً؟

وتلك الحياة الأخرى مختلفة للغاية: أين ذهبت أشجار الجوافة التي تتسلقها وتلتهم ثمارها، وهي خائفة دوماً من أن تبتلع دودة؟ اليوم التالي. أين ذهبت طيور غينيا وديوك الفجر؟ أين ضفادع الأشجار البرازيلية؟ Sapo cururu na beira

ضفادع .do rio. Quando o sapo grita, maninha, é que está com frio الأجار الصغيرة عند ضفاف الأنهار؟ والضفادع لا تقوم بالنقيق إلا حينما تشعر بالبرد. كم كان سيصبح من الرائع لو أن ذكرياتها عن المزرعة وطفولتها مركبة من وقائع ريفية بسيطة، من أشياء تغنيها مع الغيتار وسط أصوات نشاز حول النار، يدخون الحشيش، ولكن هيهات.

داعبت حاوية المفاتيح في كيسها وهي تفكر في اللوحة المعدنية من جديد. "م...إ...أ". بدأ ركاب درجة رجال الأعمال في الصعود إلى الطائرة. في نفس الوقت كان هناك عدد كبير من ركاب الدرجة السياحية الذين يتدافعون ويتجادلون حول المساحات الفارغة في خزانات الأمتعة فوق المقاعد. هنا، كان «جواو ميغيل» بين ركاب درجة رجال الأعمال، حيث يشربون "السكوتش" ويأكلون "البلينيس دي سومون". وهناك، سيحمل جواز سفر أخضر يبث الشك دوماً في نفوس مسؤولي الجمارك في العالم الأول.

شعرت «ماريا إنيس» براحة لأنها لن تركب الطائرة، وبسعادة لأنها لن ترى أزوباردي بعد الآن، ولن تشرب "التشيانتي" على مائدة «فيلته» الجميلة. لن تكون الزوجة المحبوبة (الزائفة) (التي لم تكن من قبل على هذا القدر من الزيف) للثري «جواو ميغيل» الذي لم يكن من قبل على هذا القدر من الثراء. ودعا بعضهما عند البوابة بحضن كان يمكن أن يعني الكثير، فيه طلب للصفح والغفران، للنسيان، لعدم الصفح والغفران: لقد أخطأت.. لقد أخطأنا.. لا تقل شيئاً، أرجوك، اتفقنا؟ يمكننا البدء من جديد.. اسمع، عليك أن تسرع.. انتبهي وأنت تقودين السيارة.. هاتفني.. لا تهتم.. ارحل وانسَ.

ستكون تلك الليلة الأطول في التاريخ. هناك في ليبلون في شقتها البيضاء. تمنت «ماريا إنيس» نوماً هانئاً لـ«إدواردا» وذهبت لتجهز حقائبها وتضع فيها كل شيء تمهيداً لرحلتها.

ها هي قد اجتازت مجدداً حفلة رأس السنة، حيث تزداد شقتها البيضاء بياضاً مع كل هذا الجمع الذي يرتدي الأبيض تيمناً وطلباً للسعادة. لا تحب «ماريا إنيس» الحفلات. ولكنها كانت محاطة بهم. وكان قد صبغ أظافرها بالأبيض ولم ترفض. تعمدت «ماريا إنيس» التنازل عن حقها في الرفض. على أنها اختارت في تلك السنة تنازلاً أخيراً، بل وسألت نفسها إلى أي حد يمكن أن يكون لا غنى عنها في مثل هذه الحفلات. فربما تكون هناك في العام المقبل ولا يلحظ وجودها أحد.

أين ستكون في يوم واحد وثلاثين ديسمبر القادم؟ عند نهاية العقد، نهاية القرن، نهاية الألفية. هل ينبغي عليها أن تشعر بكونها محظوظة نوعا ما؟

كل شيء غاية في الاتزان، متزن لدرجة الهشاشة. ويمكنه أن يمتد عبر الألفية الجديدة، ولعقدين أو ثلاثة أو أربعة من الزمان. هل هي محظوظة؟ لا شك أن في هذا الاتزان ميزة، كما أنه مكلف.

على أنها تحتاج في الوقت الحالي إلى الحركة. رفرفة سلسة لأجنحة فراشة زاهية الألوان تطير فوق محجر محرم، وتلامس بجسدها الهش فكرة شجرة المال التي لم تزهر أبداً. في تلك الليلة، آمنت «ماريا إنيس» مرة أخرى بأن هذا ممكن.

كانت «إدواردا» تشاهد التلفزيون في غرفتها. سمعت «ماريا إنيس» صوت إشارة الاتصال المنبعثة من قناة تعرض المسلسلات الكوميدية: " الأصدقاء"، "مجنون بك"، "ساينفيلد"، العشرات من المسلسلات. تجاوز الوقت منتصف الليل، ولكن أياً منهما لم ينم أو يبحث عن النوم. كل واحدة في غرفتها، فهما تحتاجان إلى تناقض هذه الصحبة الانعزالية. ألقت «ماريا إنيس» بحقيبة صغيرة على الفراش، وشرعت في فتح الأدراج ببطء، بدافع من فضول، وكأنها لا تعرف ما ستجده بداخلها.

الصيف موسم الناموس، الناموس المنزلي العادي، البطيء، الغبي، الذي يسهل عليك قتله، وكذلك الحشرات الضئيلة السوداء، التي تطن حول أذنيك. أشعل «توماس» و«كلاريس» عود دخان طارد للناموس. لا يزال «توماس» ممسكاً بكأسه الفارغ بينما تسمرت عينا «كلاريس» عند يديه.

احترق عود الدخان ببطء شديد. ولأول مرة، أخبر «توماس» «كلاريس»، وكأنه يعترف بفعلة حمقاء أو بسر مضحك: "لقد تذكرت لوحة بعينها لحظة أن رأيت أختك لأول مرة".

نظرت «كلاريس» إليه بشيء من فضول.

"لوحة لـ«ويزلر» أسماها (فتاة ترتدي الأبيض) أو (السيمفونية البيضاء) رقم 1".

كلمات مقدسة، جديرة بأن تكون ملاذاً، في حضرة ثناء رب لا يعبده سواه، هكذا فكر «توماس». ماتت تلك الأسطورة عندما وطأ بقدمه خارج حدود أحلامه التي لم يعد لها معنى الآن على الإطلاق، وكأنها محنطة ملعونة تحت الأرض.

من الواضح أن «كلاريس» لم تهتم، فقد بدت كلماتها بلا هدف وهي تسأله:

ـــ"ألديك نسخة من تلك اللوحة هنا؟".

يحفظ اللوحة عن ظهر قلب. فالخلفية عبارة عن ستارة بيضاء ثقيلة، وسجادة الفراء (بدا فراء ذئب أو دب، والفم مفتوح والأسنان البيضاء حاضرة) أسفل قدمي الفتاة، تخفيهما، باقة أزهار سقطت فوق السجادة. والفتاة الغارقة في الأفكار، يظهر وجهها الشاحب بحضور قوي في إطار من شعرها الداكن. يداها بيضاوان مثل فستانها الطويل، بالكاد شفتاها ملونتان. وهناك زهرة بيضاء رقيقة في يدها اليسرى.

أجابها بأن ليس لديه واحدة، وأنه لم يفكر في الاحتفاظ بواحدة، وانشغلت «كلاريس» بمحاولة استخلاص صوت من حافة الكوب الفارغ (من دون نجاح: فهو لم يكن من البلور النقي، بل من زجاج سميك، وكان من قبل برطماناً لسبع أوقيات ونصف من الجيلي) كانت تصفر نغماً مرتجلاً.

التقت «كلاريس» «توماس» منذ أكثر من عشرين عاماً، خلال تأبين «أفونسو أوليمبيو»، وقد ارتبك حينما وجد أن «كلاريس» و «ماريا إنيس» لا تبكيان لوفاة أبيهما. بدتا له في حالة غشيان، وجوم، تخدير. حدث هذا قبيل طلب «كلاريس» الطلاق من «إلتون خافيير» وقبيل أن تقبل «ماريا إنيس» عرض الزواج الرسمي الذي قدمه ابن عمها «جواو ميغيل أزوباردي». وقد تغلب هذا العرض على عرض «توماس»، الفنان الشاب الذي اضطر إلى أن يدفن عواطفه تماماً كالكلب الذي يدفن عظمة في باحة منزل.

دقائق...ساعات...أيام...أعوام.

ـــ"لقد فقدت القدرة".

نظرت إليه «كلاريس» في تساؤل.

ـــ"القدرة التي كانت لدي وقت أن كنت مع «ماريا إنيس». أن أكون مرناً، طيعاً".

وتذكر أنه قد مارس اليوغا بضع سنوات وتعلم منها أن يتخذ وضعيات تثير الإعجاب، وهو ما أضحى محالاً الآن، فقد تحول إلى مجموعة من تروس صدئة.

ـــ"إن كانت هذه مقدرة حقاً. أعتقد أنها مسألة إرادة، تدري، أن تحب، وألا تحب. أن تستلم. أن تستمر".

ـــ"ولكن هذا كله يعتمد بالأساس على المقدرة".

كان الكلب يحلم بكوابيس ويعوي بصوت خفيض. لكزته «كلاريس» بقدمها لتنقذه من كوابيسه، وهي تقول: "قد يكون العكس هو الصحيح".

أتاهما من الخارج صوت قطرات المطر الثقيلة التي بدأت تهطل، بعد فترة تحضير بدأت منذ نهاية الظهيرة.

الفصل الخامس
النسخ الرسمية

تتسم ريو دي جانيرو بالرطوبة الشديدة. وهو أول شيء لاحظته «كلاريس» ما إن استوعبت أنها كانت تعيش خيالات مدينة أسطورية (كانت قد نسجت حولها آلافًا من الأوهام التي بدت زائفة الآن). قالت معلقة للعمة «برينيسي»، خلال أول جولة لهما في شوارع فلامنغو: "أحياناً ما يكون للمحيط رائحة قوية، أليس كذلك؟".

ابتسمت العمة «بيرينيسي»، وتنهدت بعمق، وهي تغلق عينيها في استمتاع: "أجل، أليس هذا رائعاً؟". لم تشأ «كلاريس» أن تجادلها، وفضلت أن تلوم نفسها: "ولكني أعتقد أني غير معتادة عليها. هذا أكيد. فقد أصابتني الرائحة ببعض الغثيان".

حارة رطبة. تشعر بالعرق يتجمع تحت إبطيها وكذلك عند نحرها، أسفل هذا الفستان الخفيف قديم الموضة. تمشتا إلى ساحة لارغو دو ماكادو، حيث ابتاعت عمتها الذرة لتطعمها الحمام، ومن ثم تناولتا الآيس كريم، وأسرعتا الخطى في طريق العودة، لأن عمتها أخبرتها أن هناك شحاذًا متسولاً يتبعهما. ونجحتا في التخلص منه عند ناصية الميرانتي تاماندراي.

ضحكت «كلاريس» فجأة، وجدت كل ذلك مسلياً جدا، اعترتها موجة طفولة باغتت ربيعها الخامس عشر (وهو ليس بأي ربيع، بالرغم مما تعتقده هي). نظرت إلى البنايات الشاهقة، ورأت فيها جمالاً، وإلى الناس، وسحرتها السيارات التي تمرق جوارها، بل وأحبت همهمة المدينة المستمرة - على العكس

من صمت المزرعة – وخمنت أن تلك الهمهمة سرعان ما ستستحيل صمتاً عندما تعتاد عليها، تماما كما يصبح التأكيد نفياً، كان من الجيد أن تتصور ذلك. ضحكت «كلاريس» وكذلك العمة «بيرنيسي»، وهي تنظر إلى وجهها.

تمتلك «كلاريس» الآن استوديو صغيرًا متواضعًا. فقد خصصت العمة «بيرينيسي» جزءاً صغيراً من منطقة الغسيل الكبيرة جوار المطبخ (بأرضيتها السيراميكية) حتى يتسنى لها صنع منحوتاتها، وأفرغت رف تخزين بأكمله في غرفة نوم الخدم والتي لا يشغلها أحد (لا أحتفظ هنا سوى بسنوات من الكراكيب، عزيزتي) حتى تضع عليه «كلاريس» منحوتاتها لتجف.

هي لا تزال بحاجة لنحت النسيان. ولكن النسيان يرفض أن يتشكل على أيدي «كلاريس»، وكأنه نغمة تستعصي على العزف. وبينما كانت تنتظر، اكتشفت قطط العمة «بيرينيسي»، التي ألهمتها سلسلة من المنحوتات. قطط نعسانة فاتنة استحالت منحوتات هادئة رقيقة.

أحياناً كانت تساعد العمة «بيرينيسي» في المطبخ، مثل تلك الظهيرة التي تعلمت خلالها أخيرا وصفة بسكويت كاسادينيوس: 3 كوب دقيق، 2 كوب سكر، 6 صفار بيض، 3 بياض بيض، ملعقة صغيرة من البيكنغ باودر. فكرت في «لينا» كثيراً في البداية ولكن حدة التفكير خفت لاحقا. اضربي بياض البيض حتى يتيبس، ثم أضيفي الصفار والسكر، واخفقي جيدا، وبعدها يضاف الدقيق مع البيكنغ باودر.

مرت أيام عصفت فيها رياح بشقة فلامنغو بقوة لم تعرفها «كلاريس» حتى في المزرعة: إنها رياح ساحلية. ولم يكن غريباً أن تصبح النوافذ لزجة بفعل الهواء المالح، وأن يصدأ كل شيء بسرعة أكبر.

اسكبي المزيج بالملعقة على صاج الخبيز بعد دهنه بالزيت. وبعد ذلك الصقي كل بسكويتتين معاً بالحشو الذي تفضلينه (الكرامل، الجيلي، إلخ). وضعي فوق البسكويت طبقة محلاة عن طريق مزج 8 أوقيات من السكر بودرة مع الماء حتى يصبح كريمة خفيفة القوام ثم اغمسي البسكويتة فيه. وبعد ذلك اتركي البسكويت ليجف.

في مارس هطلت الأمطار الغزيرة التي غسلت الشوارع الأسفلتية ودفعت المشاة إلى المشي بخطى متسارعة الإيقاع. واستمتعت «كلاريس» بمشاهدة تنويعات المظلات وهي تمر على طول الأرصفة في شارعي كاتيتي ولارانجييراس، ولكن تلك البرك التي تشكلت فوق أسطح المتاجر، وعند مداخل البنايات، وفوق بلاط الكنيسة، بثت فيها حزناً متفرداً.

تذهبان أيام الأحد إلى القداس، أحياناً إلى كنيسة إغريجا دا غلوريا، وهي الأقرب، وأحياناً إلى كنيسة إغريجا دو أوتييرو، وهي الأعلى بإطلالتها على سطح البحر.

استمرت نفس الأحلام تراود «كلاريس» ليلاً. وسوف تستمر تراودها طيلة تلك السنوات الطوال التي مرت ببطء شديد (في المستقبل ستعاود صياغة تلك الفكرة: طيلة تلك السنوات الطوال التي توقف خلالها الزمن). كبرت، واحتفلت بأعياد ميلادها، وكان لها صديقات وأصدقاء، قليلون. وتعرفت على صديق في العام 1966، شاركته الرقصات والأحضان والقبلات المختلسة. كان اسمه «ألمير»، ولم يعرف بأمره أحد من عائلتها، سوى العمة «بيرينيسي».

في أول عام، زارت المزرعة مرتين ولم تندهش من نسيان الكل لأمر «لينا» تماماً. كان المنزل ممتلئـًا بالناس المحتفين بزيارتها، فالكل موجود، وخاصة «إلتون خافيير»، ابن الجيران المزارعين.

سألها حينما التقيا مجدداً في يوليو: "هل تتذكرين إذن؟".

تذكرت تلك القبلة عند الحائط المتجعدالذي سبب لها ألماً في الظهر. القمر قطعة فضة الآن، متوهج بروعة في كبد السماء بينما تجلس «كلاريس» مع «إلتون خافيير» في الشرفة الأمامية، قريبين من كلام الكبار في غرفة المعيشة، يشربان الكاكاو الساخن.

أمسك يدها في يده وسمع تأنيبها الهامس أن ليس هنا!

"أين إذن؟". ولكن في تلك اللحظة ظهر ذلك العم من جابوتيكابايس (الذي ألقى ذات ليلة تلك الدعابة التي وجدتها «أوتاسيليا»سخيفة) في الشرفة وهو يحمل تيليسكوباً ومن وراءه ثلة من الأطفال الفضوليين، ومعهم «ماريا إنيس». "إنها ليلة مثالية لمراقبة النجوم". (ثبتوا التيليسكوب فوق كومة من التراب، على بعد خطوات من الشرفة، واندهشت «ماريا إنيس» حينما اكتشفت أن ما ظنته نجمة واحدة تراها عياناً هو في الحقيقة عشرات من النجوم. كما اكتشفت أن لِزُحَل حلقات حقيقية).

كان الوقت الذي أمضته «كلاريس» مع «إلتون خافيير» غريباً. ناقصاً. ولكن بقيت بينهما الرسائل، وهي التي جعلتهما يعتقدان أن لا مسافة بينهما، وأن هناك رباطًا يوثق الصلة بينهما، وأن حميمية تترسخ. صنعت تلك الخطابات خيالات ونمتها، كما أنها أخفت بشاعة الحقائق. احتوت تلك الرسائل على جمل وقصائد منقولة (تعمدا في بعض الأحيان عدم ذكر أصحابها)، وبعضها اتسم بالإخلاص والسذاجة، ودل على أنه كتب في جلسة واحدة، وكانت هناك قطرات من العطر وبتلات الزهور الجافة. وهناك صور أحيانًا، صور مقصوصة من مجلات.

أخبرتها العمة «بيرينيسي» ذات مرة أن من المستحسن أن تكتب التاريخ في أول الرسالة، ووجدت في نبرة صوتها لمحة من حزن دفين على الماضي. غير أنها سرعان ما صححت نبرتها وعقبت بجذل: "الحقيقة أن التواريخ مستحسنة دوما! لابد أن تعرفوا ذلك أنتم الشباب".

كانتا في المطبخ تصنعان كعكة برقوق لصديقات العمة «بيرينيسي» اللاتي سيأتين للعب البريدج عقب الظهيرة. ضعي البرقوق ليغلي في كمية كبيرة من المياه، هكذا بدأت «كلاريس» تقرأ، ودعيه يغلي ثم أخرجيه من الماء، بعدما لا يكون قد تبقى من الماء سوى ما يعادل كوبًا. هناك قطتان ترقبانهما خلسة، عند باب المطبخ، أملاً في أن تقوما بإعداد السردين أو السلمون، بدلا من هذه الكعكة، هذا إذا ما صادفهما الحظ.

سرعان ما ربط الغرام بين «كلاريس» و«إلتون خافيير» بالمراسلة. وسرعان ما دار الحديث بينهما عن الارتباط الرسمي. الخطوبة. الحقيقة أن الكل كان يتحدث عن احتمال خطبتهما، وكأن ذلك من طبائع الأمور.

في ذلك الوقت، وبين مواسم الصيف بصحبة ابن العم «جواو ميغيل» وتلك السنوات الطوال التي غابت خلالها أختها، وهو الأمر الذي زرع فيها الحزن وبث فيها الثقة في آن واحد، كانت «ماريا إنيس» تكبر.

تماماً كما كبرت الأشجار والشجيرات حول منزلها، وفي الغابات البكر التي لم يطأها أحد. وحدها المراعي، التي لا تنفك تقتات عليها الماشية، بقيت صغيرة. نضجت شجرة المانجو، التي علقت عليها مع (جواو ميغيل) أرجوحتهما المصنوعة من إطار قديم. بدأ طحلب ينبت على أعلى الفروع. زهرة بروميلياد تستقر على غصن شجرة إيبا أرجوانية ويخرج منها برعم أحمر متوهج غريب نوعاً ما. وأضحت الجهنمية قرب باب المطبخ خليطاً مرتبكاً من الأغصان الملتوية والزهور مؤلمة الألوان. وتكاثرت نبتة الحية وشجيرات الحب مفلوقة الورق على طول أخدود جوار المنزل، في البستان، وألقت شجرة الجابوتيكابا بظلالها وأثقلت أشجار البابايا المرهفة بفاكهتها، وارتفعت شجرة الثمرة النجمية من دون أن ينتبه لها أحد، وأضحت الآن مليئة بالفاكهة الشمعية الصفراء على أغصانها.

وحدها شجرة المال، التي زرعتها «ماريا إنيس» مع «جواو ميغيل»، لم تنم ، ولكنهما كانا قد نسيا أمرها تماماً، بطبيعة الحال. لديهما الآن رغبات ملحة تسري في جسديهما، تمتزج بدمائهما.

كلا، لم يعرف «جواو ميغيل». لن يعرف «جواو ميغيل» أبداً. ولكنه لاحظ أن «ماريا إنيس» لم يعد مرحبا بها في منزلها، وهو موقف يزداد وضوحاً مع مرور السنوات، ويترسخ ويلحظه الكل بأقل قدر من الانتباه.

كما أنها بدورها ترغب في الرحيل إلى ريو دي جانيرو، أجل، المدينة الكبيرة الأسطورية، ولم يخطر ببالها أنه سيكون في انتظارها أحد معجبي «ويزلر»، مع صور مبهمة تموج بحياته الشابة.

على أنه لم يكن من السهل استشفاف ما استقر عليه رأي «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو». ما هي الحقائق والأكاذيب التي يشكلان بها مستقبلها. الحقيقة أن «ماريا إنيس» حانقة عليهما معاً، وطاعتها الزائفة حانقة أيضاً عليهما، وما تبدي من اهتمام مصطنع بهما. كانت تحتفظ لنفسها ببعض الكروت. دائماً ما تدس «ماريا إنيس» أنفها في أمور لا تخصها، وتتفوه بكلمات تعلمت ألا تقولها (كتلك المرة التي جاء فيها قس جابوتيكابايس في زيارته السنوية للمزرعة ليباركها، حينما باغتته، بعدما قبلت يده النحيفة الباردة: هل سبق لك أن كنت مع امرأة، امرأة حقيقية، من قبل؟)، وتسبح في النهر تحت المطر البارد، أواخر الظهيرة وقتما يكون الطقس غير مستقر، كما تحب التقاط الضفادع والخنافس بيديها.

والمهم أن لديها ذكريات تتعلق ببذور السرو المتناثرة على أرضية الردهة. وهي تتسلل بحرص ووسط الظلام.

لا تزال «ماريا إنيس» تحب الذهاب إلى المحجر المحرم. وحدها، في أغلب المرات. في الصيف، مع »جواو ميغيل».

ـــ"انظر إلى مزارع الإيبا".

ـــ"ها أنتِ تعودين مجدداً إلى تلك الحكاية".

سكتت عندئذ، إلا أن صرخات القتيلة بقيت تتردد في أذنيها، وبقيت عينا الزوج القاتل اللامعتان (كأنهما بلورتان) وفمه المزبد منظراً راسخاً على مرآة ذاكرتها. وهناك الآن صورة مروعة للحبيب، بعريه العقيم، وعضوه المسكين بين فخذيه، وجوربه وحذائه المرمي على أرضية غرفة النوم، ويديه اللتين تحملان رائحتها، والعرق البارد على جبينه، والصرخة المجهضة في حلقه.

بدأت تجمع بين «جواو ميغيل» و«ماريا إنيس» أشياء أخرى مشتركة خلاف الاسم المركب. لديهما سمات القادرين على استشراف المستقبل، حتى ولو كان هذا المستقبل المستشرف يتصادم مع المستقبل الحقيقي.

ولكن لكل شيء مساره المقدر له. فقد كبرت «ماريا إنيس» من دون أن تستأذن أحداً، وأضحت امرأة وهي بعد في الخامسة عشرة. تكبر «توماس» بعامين. في ذلك الشتاء جرت عليها المقادير، حتى ولو برغم إرادتها الواعية.

جاءهم خبر والدة «جواو ميغيل» التي استراحت أخيراً، ذات مساء بارد، كانت من النوع الذي يعج بالآمال ويحرس الأسرار، كالموتى. ليال تشبه طقوس انتقالية. ظهر أحدهم ممتطياً جواده فنقل النبأ. ومن ثم ابتعد ذلك الشخص ليستمر كل شيء على حاله، وكان التعليق الوحيد الذي سمعته «ماريا إنيس» من أمها هو أن المرحومة استراحت أخيراً، بينما أخبرهما «أفونسو أوليمبيو» أن بوسع «كلاريس» الذهاب إلى الجنازة لتمثيل العائلة فيها.

دخلت «ماريا إنيس». كانت وحدها ، يقضي «جواو ميغيل» عادة إجازة يوليو هناك، ولكن حدث في هذا العام ما استبقاه في ريو دي جانيرو، مثل هاجس غامض يراود شخصاً لا يؤمن بالهواجس. داخل المنزل، كانت ساعة الجد تزعج الصمت، وهي تصدر إيقاعاً خفياً يتناغم مع حركة الكرسي الهزاز القديم حيث يقرأ «أفونسو أوليمبيو» كتابه المجلد ذا الأحرف الذهبية على ظهره: "أماديس الجالي"، تحقيق بتصرف من «أفونسو لوبيز فيبرا». في نفس الغرفة، حيث لا هي بقريبة جدا ولا ببعيدة جدا عن زوجها، طرزت «أوتاسيليا» زياً لوليد سيرزق به ابن عمها قريبا. بالخارج يبوح العالم بأشياء مختلفة، يهمس بها. وهناك العديد والعديد من الأصوات.

في تلك الليلة أشعلت «ماريا إنيس» ناراً مع بعض جذوع الأشجار، بعيدا عن أنظار الآخرين. تحب «ماريا إنيس» النار. ثم جمعت عدة أوراق قديمة من صحيفة وبدأت تشكل منها بالوناً على شكل ما يسمونه «بريتاس غاليناس» الدجاج الأسود، وذلك بسبب ما تنتجه من تأثير ، ثم حرقتها، فتصاعدت سوداء منتفخة متوهجة في سماء الليل، لتسقط بعيداً تذروها الرياح. ارتفعت واحدة منها لتسقط جوار بستان البامبو، تماماً عند بداية المرعى من جهة المنزل. بدأت النار هناك بطيئة، ولكن كل شيء كان يواتيها؛ الرياح وجفاف الجو، وفي لمح البصر صار هناك لهب برتقالي جميل يلتهم البامبو، الذي أخذ يتداعى. بدت «ماريا إنيس» كالمنومة مغناطيسياً، جالسة في مكانها تراقب المنظر. تراقبه بجذل. وتستمع إلى أسرار رطبت جو الليل.

وحينما صحا «أفونسو أوليمبيو» و«أوتاسيليا» من عدميتهما التي استغرقتهما متظاهرة بإراحتهما، كان أحد عيدان البامبو الطويلة قد سقط بنيرانه بالفعل على المرعى.

لم يتمكنوا من السيطرة على الحريق إلا في الصباح الباكر - عشرة رجال يحاولون من دون توقف - وما تبقى من المرعي كان شريطا أسود طويلا سيستغرق وقتا طويلا قبل أن يعود كما كان. وفي ذلك الصباح استدارت «أوتاسيليا» نحو زوجها وقالت، وهي دائما ما تتحاشى النظر مباشرة إليه: "تعلم أنه كان متعمداً". تلك الأشياء هي التي تفعلها. ولكن «أفونسو أوليمبيو» لم يرد. قالت «أوتاسيليا»: "حان وقت إرسالها بعيدا". ولكن «أفونسو أوليمبيو» لم يرد.

بقيت الأمور على حالها لبرهة من الزمن. فسكتا واستغرقا في النوم. وكانت الأشهر التي تلت ذلك الشتاء أطول وأكثر حزنا. بدأ «جواو ميغيل» الالتحاق بوالده

في رحلاته، فذلك جزء من تدريبه الذي قبل به من دون كثير من الاحتجاج. فالمحاماة هي مستقبله بالطبع؛ محام يمتلك شقة بيضاء في ألتو ليبلون، و يحب الذهاب إلى فينيسيا ولعب التنس لأسباب قد لا تكون واضحة للعيان.

أشهر ستة. عام واحد. وغلفت العزلة «ماريا إنيس» لتخنقها، ولكنها تتعلم الصبر.

وحينما التقت «ماريا إنيس» ابن عمها اللقاء الثاني كان قد ربى شارباً سخيفاً لم يستمر طويلاً تحت أنفه لحسن الحظ. وبدا أكبر سناً.

كان اللقاء في كنيسة جابوتيكابايس، بينما كان «إلتون خافيير» يرتجف كورقة شجر في انتظار «كلاريس»، عروسه، عند المذبح، مرتديا حلة داكنة جميلة في عروتها زهرة القرنفل الأبيض، وهناك لؤلؤة في عقدة ربطة عنقه الرمادية (التي أحسن عقدها).

سألت «ماريا إنيس» «جواو ميغيل»: "كيف تجري أمورك؟".

ــ"لا بأس بها. مستغرق في الدراسة".

تعلم سبب استغراقه في الدراسة، وتعرف أنه يستعد لامتحانات القبول في كلية الحقوق. يرتدي بدلة بدا مرتدياً إياها بطبيعية وبساطة تفوق ما تخيلته

«ماريا إنيس»، أما هي فكانت ترتدي فستاناً تظنه بشعا، بلون الأفوكادو الخضراء، ينتهي بغتة عند ركبتيها، مع أكمام طويلة تنتهي عند كتفيها.

كان الجو باردا في ذلك الوقت المتأخر بعد الظهر، على الرغم من حلول أكتوبر بالفعل. برد معتدل، برد ربيعي. كانت الجدران الداخلية للكنيسة الصغيرة زرقاء مع لفائف دوامة كانت في يوم من الأيام ذهبية. هناك تسرب ظاهر في أحد الأركان، مما حول جزءا صغيرا من السقف أسود عفناً. النوافذ المزججة متواضعة والفسيفساء البسيطة تكشف عن حمامة وشمس مشرقة وصليب، وعلى الجانب المقابل يتكرر التصميم بألوان مختلفة.

زينت جميع مقصورات الخشب الأسود بالبابونج الأبيض أو الزنبق. وهناك باقة كبيرة من الزهور الصفراء والبيضاء. ترتدي جميع النساء الحاضرات، ومن دون استثناء، ملابس مبالغاً فيها.

بالغت «كلاريس» فيما ترتديه. يذكر فستان زفافها بأجواء كرنفال الثلاثاء، بدا وكأنه نكتة، هفوة. ولكنها بدت جادة جدا من وراء ابتسامتها، وتحت أحمر الشفاه، وأحمر الخدود، وأسفل ظل العيون الأزرق، وتحت إكليل القماش المزهر، ووراء القلادة الياقوتية التي تنتمي إلى أسرة «خافيير»، وفي فستانها الدانتيل، وداخل الكعب العالي الذي يقتل قدميها.

شاركت في مراسم الزفاف وكأنها تخص غيرها. وتناولت دبلة الزواج بهدوء من يد «إلتون خافيير» المرتعشة وحاولت أن تتذكر، خطوة خطوة، كيف انتهى بها المطاف إلى هنا. عجزت عن ذلك. ترى والديها وحماها وحماتها والوصيفات ورفقاء العريس بطرف العين، ألوان جذلة يمتزج فيها الأحمر والأزرق والأصفر والأسود. شغلت نفسها بالاهتمام بهم وهي تخوض بعينيها في القس من دون أن تراه. لم

تسمع كلمة واحدة من كلامه، ولكنها سمعت عازفي ا الأورج والكمان وهما يعزفان مقطوعة لـ«باخ». هناك شيء من نشاز، صحيح، ولكن ما الفارق؟ فلاحقاً تطوعت واحدة من خالات «إلتون خافيير»، تعقص شعرها للخلف وترتدي قرطاً ثقيلاً يمط أذنيها، بغناء "إ آفي ماريا" لـ« غاونود».

طرب قلب «كلاريس» لسماعها. وبقيت سعيدة حينما سمح القس لـ«إلتون خافيير» بتقبيل العروس (رغم أنه كان يمكن أن يستغني عن هذا الإذن)، وتخيلت أن كل شيء سيصير مختلفـًا الآن. أغلقت عينيها في انتظار القبلة كما رأت الفتيات تفعل في الأفلام الأمريكية. ولكنها ما إن أحست بشفتي «إلتون خافيير» تقبلها حتى فتحت عينيها ، أهو الخوف؟ رأت أولاً النوافذ المزججة للكنيسة الصغيرة، ثم انتبهت إلى أنها مكتظة بالبشر، ثم نظرت نحو «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو» وتخيلت أن حجمهما قد تضخم. فأغلقت عينيها مجدداً وبقوة، أهو الخوف؟

ما هو التصرف الأكثر حكمة حينما تكون خائفاً؟ الأكثر راحة؟ الأكثر فعالية؟ أغلق عيني أم أفتحهما؟ أستسلم، أسلم، أبتعد أم أتمسك، أتشبث، أسيطر؟

«كلاريس» متزوجة الآن. ظنت أن هذا سيحدث فارقا. وهكذا نزلت من المذبح ومشت فوق السجادة الحمراء المهترئة: ليست بالطويلة ولا القصيرة. تكدس الناس على الجانبين، وحيثما نظرت، مما جعلها تشعر وكأنها مقدمة سفينة تشق طريقها عبر المحيط. تمشي «كلاريس» وسط الكنيسة مثل السكين في الزبدة.

تشق «كلاريس» حياتها نصفين، عن عمد. إنها تريد أن تتعرف على نفسها في هذه القسمة: قبل وبعد. وكان المسيح إلى جنبها؛ «إلتون خافيير». المخلص. الذي يحبها لأنها بلا أسرار.

في تلك الليلة، وبعد الحفل، وجدت «أوتاسيليا» نفسها مع «ماريا إنيس» في المطبخ. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل والصمت يكتب أسئلة غير مرئية في الهواء. لم تتفاجأ البنت حينما قالت الأم أن الوقت قد حان للحديث عنها.

الحديث عن «ماريا إنيس». من غير الممكن الحديث عن «ماريا إنيس».

قالت: "أود الذهاب إلى ريو دي جانيرو. أتظنين أن العمة «بيرينيسي» ستوافق على أن أعيش هناك؟"

ـــ"بلا شك. فلقد وافقت على أن تعيش «كلاريس» هناك".

(بالطبع كانت العمة «بيرينيسي» في حفل الزفاف بملابس وعادات أهل المدن، وبخصوصيات السيدات الكبار، وبحساسية من لدغ الحشرات. كانت قد أحضرت في حقيبتها - المزينة بورود بألوان الباستيل - هدية راقية أملت أن تكون هدية لا تنسى: تخيلت «كلاريس» وزوجها، بعد عقود من الزمن، وهما يعرضان على أحفادهما فضة كريستوفل ويتفاخران بأن هذه هدية من الغالية الراحلة العمة «بيرينيسي»، انظروا كم هي رائعة.. رائعة).

تحدثت «أوتاسيليا» من دون أن تنظر إلى «ماريا إنيس»، وهي تصب لنفسها كأسا من الماء من الفلتر (لم يكونوا بحاجة إلى هذا الفلتر، لأن مياه الصنبور تأتي مباشرة من نبع تحت الأرض. بدا مثل حماسة زائدة تضاف على هذا الوضع الخاطئ، بغايته الخاطئة، ونتائجه التي كان يمكن الاستغناء عنها كليةً).

أمسكت «ماريا إنيس» بتلابيب الفرصة، واقترحت: "ربما أمكنني الذهاب في نوفمبر".

هزت «أوتاسيليا» رأسها: "ديسمبر أفضل".

ولكنها لم تفسر السبب، ولم ترغب «ماريا إنيس» في أن تسألها. لا ترغب في أن تمنح أحداً اليد العليا عليها: أن تسأل.. أن تطلب يعني أن تنقاد. انتظرت «أوتاسيليا» أن تسألها «ماريا إنيس» عن السبب، ولكن السؤال لم يظهر، وهكذا حبست الرد. للحظة، نظرت الأم والابنة إلى بعضهما، بين الثلاجة وحوض المطبخ، وشكلتا قوسا متوتراً متحدياً وكأنهما على وشك الدخول في جولة مصارعة ذراعين.

ديسمبر إذن، تأكدت «ماريا إنيس» بنبرة صوت تثبت أنه اتفاق رسمي. نبرة برائحة مكتب محاماة، مع كل الدمغاتوأختام كاتب العدل. ثم كادت تسأل «أوتاسيليا» عن صحتها، ولكن السؤال بقي حبيس الرغبة، فاكتفت بمراقبة أمها وهي تبتعد ضئيلة، ضعيفة، مريضة، معدومة الفائدة. «أوتاسيليا» الحقيقية التي عليها الآن أن تتعامل مع أحاسيس العزلة في صحبة «أفونسو أوليمبيو» الزوج الذي اختارته في سن الثامنة والعشرين، في واحد من أسعد أيام حياتها.

بعد دقائق وصل «جواو ميغيل»، من دون معطفه، ومن دون رباط عنقه، وقد فك الأزرار العلوية من قميصه.

ـــ"وبعد؟".

سؤال لا يسأل شيئاً. عضت «ماريا إنيس» على أظافرها وهي تراقب برصاً يتسحب على السقف.

ـــ"لا تبدو والدتك بخير حال، عليها أن تذهب لأحد الأطباء في ريو دي جانيرو". كان اهتماماً صادقاً.

أمنت «ماريا إنيس» على كلامه بلا مبالاة قاسية، وكأنها تتعمد عدم الاهتمام.

ثم التقطت كرسيا ثلاثي الأرجل وتوجهت إلى خزانة الطعام، وصعدت لتجلب زجاجة خمر نصف فارغة. علقت بنبرة منتصرة: "يعتقدان أنني لا أعرف أين يخفونها".

صبت كأساًمن خمر برتقال بيتي.

ـــ"هل تريد كأساً؟".

ـــ"كلا".

أخبرها أنه شرب كثيراً في الحفل. الكل يشرب كثيراً في مثل تلك الحفلات. وهو شاب ناضج. وفي هذا المكان، ومع تلك العائلة، هناك أمور واضحة تتحكم فيها قوانين صارمة جداً، محددة للغاية (بينما هناك أمور غير واضحة تتحكم في نفسها، وتفرض نفسها، وتعاود ابتكار نفسها، وتستديم بنفسها). فالشاب في السابعة عشرة من عمره يصير حقيقة وواقعاً، ويمكنه – مثلا – أن يثمل في حفلات الزفاف.

بعد أن شربت كأس الخمر، أخبرته: "سأذهب في ديسمبر".

ـــ"ريو؟".

ـــ"أجل، ريو" (وهل هناك من مكان آخر؟!).

طرب قلب «جواو ميغيل» كطفل، بهذه السرعة! عظيم!

شرع يتحدث عن الأمكنة التي سيذهبان إليها، وعن الأفلام التي سيشاهدانها، وعن الشواطئ التي سيرتادانها، وعن الأندية التي سيرقصان

فيها، وعن محال الآيس كريم التي سيجربان فيها أنواع الآيس كريم ، الفستق أو جوز الهند (هي ممتازة في تلك المدينة الكبيرة).

لم يكن «توماس» ليخطر على باله طبعاً. كما لم تخطر أمور عديدة أخرى على باله ولكنها ستحدث في حياة «ماريا إنيس»، وفي حياته، وفي حياتهما معاً كزوج وزوجة بعد بضع سنوات. هي حقائق ماكرة مراوغة، تكون في بعض الأحيان ملونة زاهية كما هي لافتات احتفالات القديس «جون» في شهر يونيو، وفي بعض الأحيان تكون هشة كطائر تحت المطر، حقائق تداعبك لفترة قبل أن تدوسك، تتحمس لها مثل عجلة فيريس، ثم تتآكل مثل الصدأ، وتمكث صامتة كملاك نعسان واجم.

استمر زواج «كلاريس» ست سنوات. مرت بطيئة، ولكنها، في ذلك المساء من أكتوبر، ليلة زفافها، كانت ترتجف من الفكرة التي كانت لا تزال تؤمن بها. تعطرت وارتدت قميص نوم من الدانتيلا. تأملت أظافرها، وأعجبها أنها مطلية بلون النبيذ وطويلة كما تراها في أصابع نجمات السينما. واقترب «إلتون خافيير» واستلقى إلى جوارها، وبدأ شيئاً فشيئاً يتلمس ممتلكاته التي منحتها إياه مراسيم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الرسولية، ولم تكن «كلاريس» تعتقد أن هذا الشيء سيكون بمثل هذه السهولة، وهذه الرقة، وهذا السحر.

عرفت أنها كالمحكوم عليه بحكم لا يعرف عنه شيئاً. شيء أشبه بمرض لا شفاء منه. شيء محدد، حتمي. ولكنها بقيت مطيعة كما هو عهدها دائماً.

بعدما أنهى «إلتون خافيير» (الرقيق المحب «إلتون خافيير») أداءه الذي لم يكن على ذلك القدر من التوقعات، ثم تكور بجسده كالطفل جوارها، كالجنين، محتضناً الوسادة، تطوعت هي فسحبت الغطاء عليه حتى كتفيه. كانت ليلة باردة، وأغلق «إلتون خافيير» عينيه متظاهراً بالنوم، ولكنه كان يفكر.

يفكر ويعود ليفكر في ذلك السؤال الذي لم تكن لديه شجاعة صياغته: أيكون هناك رجل آخر في حياتها؟ هو نفسه ليس متمرساً على مثل هذه الأمور، ولكنه تعلم، من الكتب ومن حكايات سمعها، ما يفترض أن يكون عليه الأمر مع امرأة تمارس ذلك للمرة الأولى. كل الصعوبات، والألم، والنزف، وغيرها من أمور. فكر وفكر. لم يحدث كل ما كان يتوقعه مع «كلاريس».

فضل في نهاية المطاف أن يتناسى الموضوع. كان هذا هو خيار «إلتون خافيير» الوحيد: أن يتناسى الموضوع، وأن يسعد بزوجته التي يعشقها. وهكذا نسي، وهكذا صار في غاية السعادة مع زوجته التي يعشقها، إلى أن جاء اليوم الذي رحلت عنه فيه من دون سابق إنذار، ومن دون كلمة، ومن دون شيء.

ارتدت «كلاريس» قميص النوم من جديد، ثم ارتدت عليه سترة زرقاء داكنة. وضعت قدميها في جورب صوفي طريف الشكل، صناعة يدوية، كانت قد وضعته في حقيبتها. وغادرت غرفة النوم.

لا يشبه منزل عائلة «إلتون خافيير» منزل عائلتها في أي شيء. فهو أقدم بكثير، يكاد يناهز القرن عمراً. بناه العبيد من أموال البن. عاش فيه أحد البارونات وخلف لمن بعده صورته في مجموعة من البورتريهات الصفراء ذات البراويز البيضاوية. «فرانسيسكو ميراندا»، 1875، هكذا قرأت «كلاريس» على أحدها. كما أنه أكبر بكثيرليحوي عشر غرف نوم وليس أربع غرف فحسب. به كنيس صغير يحوي صور مريم العذراء والمسيح في حضنها، والقديس «جوزيف» والقديس «يهوذا تداوس»، ومكتب صلاة مبطناً بالمخمل العتيق الأخضر. وكانت هناك غرف متعددة، حتى ظنت «كلاريس» أنها قد تضل طريقها. في واحدة منها، كانت تسمى غرفة القراءة (وجميعها بالمناسبة ذات أسماء: غرفة القراءة، غرفة الموسيقى، غرفة الإفطار، غرفة اللعب، غرفة الطعام، غرفة الجلوس)، وجدت صقراً وتمساحًا صغيرًا محنطين، وودت لو أمكنها أن تتخلص منهما أو على الأقل أن تخفيهما في رف خزانة. وهناك جوائز وميداليات. وهناك العديد من الوجوه داخل صور فوتوغرافية عتيقة لدرجة جعلتها تفكر أنه إذا كانت هذه الوجوه تعيش في المنزل إلى الآن فإنه لن يأتي أبداً يوم تتمكن فيه من حفظ اسم صاحب أو صاحبة كل وجه.

فتحت نافذة غرفة القراءة الطويلة فانسل إلى داخلها نور القمر الروحاني الأبيض. كانت ساعة الحائط تقول إن الوقت هو الثالثة والنصف. تلك الساعة من الليل التي تتوه غالباً في غياهب النوم. مالت تنظر من النافذة فرأت كيف

غمر نور البدر الوادي بأكمله. كان البدر قد استحال أصفر اللون. النهر يجري على مقربة من المكان، هي لا تراه، ولكن أذنيها تميزان صوت جريانه. ومن خلف النهر مراعٍ رحبة، ومن بعدها الطريق، ومن بعده التل الذي بث فيه القمر حياةً من نوع خاص، ومن خلفه حظيرة حيوانات كبيرة، يعقبها منزل عائلتها (وحظيرة حيوانات كبيرة أخرى).

ابتعدت، ولكنها لم تبتعد كثيراً.

تجولت «كلاريس» في بقية الغرف، ثم اتجهت نحو المطبخ لتلقي نظرة على القطط. كثيرة هي، منكمشة عند الموقد الذي لا يزال تنبعث منه بعض الحرارة – كجسد عاشق في جنح الليل.

كجسد «إلتون خافيير»، السعيد في براءة بتلك الحالة الجنينية. عادت إلى غرفة النوم، وانسلت إلى الداخل من دون صوت بفضل جوربها الصوفي. كان «إلتون خافيير» قد تقلب في فراشه فكشف عن نصف جسده العاري: ساقه اليسرى، عورته وبطنه، من دون خجل ومن دون شعور بالذنب. عادت «كلاريس» لتشد الغطاء عليه ثانيةً إلى كتفيه. لاحظت أن شعره أشقر للغاية، حتى في وسط الظلام. هذا ما ورثه من سلساله الأوروبي، من مستعمرة سويسرية في نوفا فريبورغو. يجيد «إلتون خافيير» الألمانية، فقد تعلمها في منزله. وقد لقن «كلاريس» الأرقام من واحد إلى عشرة بالألمانية، وكذلك كلمة أو كلمتين: دي بلوم. دي شفارزكيرشه، تعني الكرز الأسود. دير فالد. دير شتين.

دي ليبه.

دي ليبه.

الحب.

والأسرار.

رقدت «كلاريس» في الفراش، فوق الأغطية، من دون أن تخلع الجورب ظريف الشكل وكذلك سترتها. ومن وراء أجفانها المغلقة، انتظرت أول شعاع شمس، وأول صياح ديك أسفل نافذتها.

الفصل السادس
السيمفونية البيضاء

امرأة في ذاكرته ترتدي الأبيض على الدوام.

في ذلك الوقت كانت شقة فلامنغو فوضوية بطريقة جذابة جداً، فرائحة الطلاء مهيمنة حتى معمساعي «توماس» الحثيثة من حين لآخر إلى أن يختبر موهبته في الطهي، ولكن من دون نجاح دوماً، فهو يتناول طعامه أغلب الأحيان في الخارج: شطيرة، أو طبقًا مخصوصًا في مطعم متواضع؛ فهو مفلس بالطبع. في العشرين من عمره.

إنها شاعرية الاكتشاف والرؤية. كانت السماء غائمة في ذاك الصباح الذي استيقظ فيه «توماس» ليدرك أنه قد صار في العشرين. صباح مبهم، يعج بالوعود الزائفة. أفكاره متكلفة بقدر ما هي غير منظمة، وهو لم يدرك حتى الآن أنه بحاجة إلى ترويض موهبته. لتكون أكثر تحضراً، أشد تمدناً، يصل بها إلى مستوى الإنجاز، وأن تكون حقيقة، علامة في هذا العالم، وليس محض أحلام وتأملات. كان يرتدي قميصا بالياً، مهترئ الأطراف وملطخًا في جميع الأنحاء، أخذ يتأمل لوحاته، واسكتشاته، ودراساته، ورسوماته، ومواده. فكر في «جيمس أبوت مكنيل ويزلر» الذي أنجز هذه اللوحة في العام 1862. وفكر في الفتاة الشاحبة (ذات الملامح الباهتة، أمام خلفية باهتة، مرتدية فستاناً باهتاً) التي أضحت متجسدة أمامه في هيئة فتاة تميل بجذعها عبر شرفة الشقة المجاورة. محال أن تفصل الفن عن الشغف. لدى «توماس» كراسة اسكتشات لرسوماته. وهو يسمي هذه اللحظة في حياته...ما قبل كل شيء.

وهي، الفتاة في الأبيض، تستمع إلى موسيقى الباليه، تشايكوفسكي. وصل "الفورتيسيمو" إلى أذن «توماس» عبر نافذته، وهو في العشرين وبصره وسمعه لا يزالان بحدة نصل السكين. شعر الفتاة كثيف غجري، ثابت بلا حراك، ولكن جسدها يتمايل برقة من جانب لآخر. لا تسمى تلك اللحظة في حياتها ما قبل كل شيء، ولكنها ومن دون أدنى شك سابقة على أحداث جذرية، وضعت بذورها في الماضي ضد رغبتها، ولم تثمر أبدا قطعا نقدية مكان الفاكهة.

شاهد «توماس» الفتاة، ولكنها لم تره بعد. لذلك، غادرت الشرفة من دون تكلف وعادت إلى ظلمة غرفة نومها، وانحنت أمام التسريحة، تتأمل في هزل وجهها في المرآة البيضاوية، ثم التقطت حواف فستانها الأبيض الذي هو ملك شقيقتها الكبرى، لتتحول إلى باليرينا، بحركات (ضعيفة قليلا) ذراعيها وساقيها. شاهدها «توماس» منوّماً ، ليس لأن الفتاة كانت جميلة، ولكن لأنها كانت تجسد لوحة «ويزلر».

الآن هي على سجيتها. هي«ماريا إنيس»، في ذلك الصباح، نفسها الحقيقية. «ماريا إنيس» تلك البقعة الخافتة التي خلفتها لوحة رفعت من مكانها بعد سنين من الحياة فوق نفس الجدار. هي «ماريا إنيس». حياة «توماس» التي انتهت قبل أن تبدأ.

وقتما كان في العشرين من عمره (قبل كل شيء) تملك «توماس»هاجس أن يرسمها، أن يرسم تلك الجارة التي تحب التدرب على الباليه أمام مرآة التسريحة، بشعرها الطويل الكثيف الداكن الأشبه بالروح. رسم اسكتشات لها، قبض على صورتها، وأسرها، وأحبها. أخرج أفضل ورقة لديه، وأفضل أقلام الرصاص وأقلام الفحم والباستيل، وشرع في هذا العمل المحفوف بالمخاطر: أن يعرف «ماريا إنيس». وهو عمل قدر له ألا ينتهي.

ربطت رؤيته الأولى بينها وبين فتاة «ويزلر»، وأعقبتها رؤى أخرى. ربما هي «دورا مار» بيكاسو التكعيبية. أو هي «ميلى رينوا» البهية، «جورجيت شاربنتييه»، وأخريات، مثل «فتيات فراغونار» لجان هونور. ولكن أياً منهن لم تكن على ذاك القدر من الإخلاص والإقناع.

بيضاء مفعمة بالشباب، في ذلك الوقت كانت «ماريا إنيس» في السابعة عشرة. تلقت رسائل «كلاريس» من ضواحي الولاية: تفصلنا مجدداً المسافات، نفس المسافات، والغريب أننا لم ننجح سوى في تبادل الأماكن. صرتِ أنتِ في المدينة الكبيرة، مكاني، في نفس الغرفة التي عشت فيها، وعدت أنا إلى هنا، وسط كل المناظر التي ألفتها، ونفس التلال، ونفس دورات الحياة، ونفس الوجوه. الحقيقة أنني أعتقد أن هذا أنسب لي بكثير.

وبقي يأس «كلاريس» متوارياً مثل قرط محفوظ في صندوق مجوهرات، وصار في يدها اليسرى الآن خاتم زواج ذهبيًا يحمل اسم «إلتون خافيير» محفوراً بداخله.

لم تكن الخطابات المتبادلة بين الأختين كثيرة، فهي محدودة الشكل والمضمون والعدد، من ريو دي جانيرو، المدينة الكبيرة (حيث المطارات والطائرات التي تحلق على ارتفاع منخفض)، كتبت «ماريا إنيس» لها أن دراستها على ما يرام: الثانوية، والبيانو، ودروس الفرنسية. وهو ما لم يكن حقيقياً نوعاً ما. وكتبت أنها سعيدة بالعيش في هذه الشقة الواسعة قرب المحيط. وأنها أحبت مرآة التسريحة الكبيرة في غرفة نومها، التي تحولها إلى باليرينا.

ومن المزرعة، كتبت «كلاريس» أنها سعيدة في زواجها، وأنها تتمتع بالعيش مع «إلتون خافيير» ووالديه في ذلك القصر العتيق ذي الجدران البيضاء

البراقة والنوافذ الزرقاء. وهو ما لم يكن كذباً كله. فقد كان لديها نصف فراش تحوزه لنفسها، ودولاب، وتسريحة أيضا. ولكنها لم تتحول إلى باليرينا، ولا تزال تفضل ذلك التفاعل البارد المكثف مع الطين والحجر وهي تحول الأحلام والكوابيس إلى منحوتات. أرض عائلة «إلتون خافيير» تتاخم أرض «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو».

اذهبي.

لكن ليس بعيدا.

وكانت هناك تلك الكلمات الصريحة الخام، التي لم تتبادلها «ماريا إنيس» و«كلاريس» أبداً. فقد تعلمتا من الأب والأم الصمت والكتمان. بعض الحقائق لا يصح التصريح بها، ولا حتى التفكير فيها. الأمور في هذه الأسرة محكومة بآلية خاصة جدا قادرة على القبض على التعاسة وحبسها في مسارها بين داخل أحشاء الأسرة، ووضعها خلف قناع من حجر؛ لذلك استمرت «ماريا إنيس» في حبس تلك الكلمات الدموية وحرصت على ألا تؤذيها بقدر الإمكان.

درست الباليه، على الرغم من أنها أكبر سناً من التفكير في أن تنخرط فيها كمهنة. فهي باليرينا لمرآتها وحسب. هي على وشك الانتهاء من الدراسة الثانوية، وتتلقى دروس العزف على البيانو لا لسبب معين على الإطلاق، مع «هانون». وقد كرهت الموازين الإيقاعية و«الأربيغيوس». ولكن المثابرة أمر جيد وجديد.

يزورها ابن العم «جواو ميغيل» ثلاث مرات أسبوعياً على الأقل، هي وعمتها. ودوماً ما يجلب معه أزهارًا أو شوكولاتة. تقول لها عمتها بصوتها الودود إنه مهتم جداً بك، هي نبرة اكتسبتها من التعامل لعقود مع الكلاب والقطط والكناري وبقية الحيوانات الأليفة.

و«ماريا إنيس» تعلم هذا.

ـــ"إنه مهتم جداً بي".

ـــ"أعتقد أنه سيتقدم لطلب يدك في نهاية المطاف".

ابتسمت «ماريا إنيس»، وسكتت.

ولكنها سرعان ما لاحظت أن هناك جارًا يمضي الساعات مطلاً عبر نافذته، وفي يده كراسة، وواضح أنه يرسم: أهو ينظر إليها؟ فكرت: ربما هو يرسم البناية، النوافذ، الواجهة. يقولون إنها نموذج جيد لعمارة «آر ديكو» (أول مرة تسمع فيها هذا المصطلح نطقته «آرت ديكو» ولكنهم صححوا لها النطق وعرفت أنه مصطلح فرنسي!). عاشت هي وعمتها «بيرينيسي» في بناية آر ديكو، التي بنيت في عشرينيات القرن العشرين. ربما ذلك الفتى في المبنى المجاور (والذي لم يكن آر ديكو) يتأمل المعمار. فكرة أعقبت الأخرى، إلى أن انتهى اليوم، وانسحبت معه من دون أن تعرف إن كانت تلعب دوراً مساعداً أم أنها البطلة الرئيسية في الفيلم. ولكنه سرعان ما وضح لها كل شيء: "مرحبا...فتاة الطابق الخامس". وردت بصوت طفولي مندهش: "مرحبا...فتى الطابق السادس؟".

ـــ"رسمت بعض الاسكتشات. أتودين رؤيتها؟".

فكرت «ماريا إنيس» للحظات، قبل أن تسأل نفسها – إن كان في الرد تأدب – ثم سألته وكأنه مهتمة: "ما اسمك؟".

ـــ"«توماس»".أومأت برأسها وكأنها تلقت منه الإجابة الصحيحة في برنامج مسابقات وستسلمه الآن جائزته.

ـــ"يمكننا الالتقاء في المدخل".

ـــ"بنايتي؟".

ـــ"كلا. بنايتي".

كان من الواضح ومنذ البداية أنها هي من ستتولى إدارة الدفة. في مدخل بناية الآر ديكو مرآتان متواجهتان تدخلانك في سلسلة لا تنتهي من الصور المتكررة، وهناك مقعدان توأمان. اختارت «ماريا إنيس» واحدة وجلست إليها وسرعان ما شاهدت «توماس» يقترب، وتأملت عينيه الشفافتين طويلاً قبل أن تلحظ أن أظافره متسخة بالألوان. كانت هي، «ماريا إنيس»، في الاسكتشات. ترتدي الأبيض في غالبها.

مثل لوحة من لوحات «ويزلر».

ـــ"أيمكن أن تمنحني واحدة منها؟".

ـــ"اختاري ما تحبين".

عندها فقط بدأت تشعر بشيء من الخجل، فهو بالرغم من كل شيء غريب، وكانوا في عصر يغلف فيه مجال مغناطيسي الأجساد مثل العطر.

سارعت بالقول: "لا بأس. تعال يوماً والتقِ عمتي. أسعدني لقاؤك".

لوحت له وهي تبتعد نحو المصعد. رآها «توماس» للحظة أسيرة المرآة، التي أعادت نسخ صورتها إلى ما لا نهاية.

بمراهقة، احتل رسم «توماس» مساحة على جدار غرفة نوم «ماريا إنيس»، فوق الفراش. ومن دون نوايا سيئة، اقتربت العمة «بيرينيسي»، بملابسها المغطاة بشعر القطط، بفضول، قبل أن تطلق تنهيدة عميقة كلها حنين. قالت العمة لنفسها إن من المحزن ألا يواكب الجسد العقل في جموحه. شعرت بتقدمها في السن، جسديا. بدا لها أن لا مزيد من الكلمات لديها لتفهمه. ليس هناك أحد ليطرح أسئلتها، فقد كان عالمها هادئاً للغاية. حينما بدأت تدخل هذا الجو الميلودرامي، خاطرت العمة «بيرينيسي» بالانغماس في مشاعر التقدم في السن وسقطت في دائرة شريرة، ولكنها امتلكت مقدرة غير عادية على تجاهل أفكار بعينها وأن تقتطف الفروق الدقيقة من السماء. توجهت إلى النافذة وشاهدت فتى الطابق السادس في البناية المقابلة. بدا لها وسيماً، وجميعهم هكذا في مثل هذه السن. شعره داكن مجعد. لوحت له من دون خجل، فخشخشت أساورها الثقيلة على معصمها السمين، وارتج لحمها أسفل بلوزة بلون الكراميل.

تذكر «توماس» تماماً ابتسامة العمة «بيرينيسي» ذات الغمازات.

الزمن يتوقف، والمخلوقات تمر.

وتلك الأساور المليئة بالسحر، وتلك الثلمات الطفولية في مرفقيها. وتذكر تلك الإثارة في عينيها عندما استقبلته أخيرا في شقتها. وحرصها اللطيف على أن تتظاهر بأنها لا تعلم أي شيء.

الزمن يتوقف، والمخلوقات تمر.

دخل «توماس» عالم «ماريا إنيس». بدءا يلتقيان في الظهيرة ليبتعدا عن الكل. كما لو كانا حيوانين يهمان بالنزوح عن مكمنهما. سارا بطول شاطئ فلامنغو، ومسحاه بأعينهما، مندهشان باستمرار من قدرة المحيطات على أن تبقى كما هي وأن تجدد نفسها في ذات الوقت. كانا يسعيان وراء هوياتهما ويجدانها. تحدثا بشفرة خاصة بينهما، وضحكا من اندهاش العابرين من حولهما. فتحا الباب لاحتمالات لا حصر لها بمجرد النظرات: كل شيء ممكن. آمن «توماس» بهذا حقاً.

كانا متعجلين، ولكنهما أضاعا الوقت. فتى وفتاة. طائشان. اتخذ الواقع هيئة جديدة لا يعرف سرها سواهما. وهكذا تمكن «توماس» من التعجيل بكل شيء. وبالنسبة لـ«ماريا إنيس» فقد كان من الممكن النسيان وتأجيل كل شيء. وصارا سرمديين متجددين مثل المحيط، وكذلك غامضين، مبهمين.

وكذلك هناك بشرتهما، وتلك الرائحة المنبعثة منها، فكان من الطبيعي وذات ظهيرة شهدت الكثير من الإيحاءات الصريحة أن تلتقي شفتا «توماس» وشفتا «ماريا إنيس» بكل لهفة وشوق، ولكن من دون استغراب. وهكذا فاز الفنان الشاب على ابن العم «جواو ميغيل»، الذي كان قد سبقه في أن يكون جزءاً من حياة «ماريا إنيس»، وبطريقته الخاصة (وهو الذي سيستمر في الحضور كل أمسية في كامل أبهته وبابتسامته الحلوة، والزهور وعلب الشوكولاتة).

في شقته، كان هناك، بالإضافة إلى رائحة الألوان، بيانو معطوب يفتقد إحدى نغماته. وبعد ظهر ذلك اليوم، أدار «توماس» المفتاح في القفل، وأشار إلى «ماريا إنيس» أن تدخل. ذهب إلى المطبخ ليعد القهوة، بينما اللهفة تعصف

بقلبه. فوق البيانو نحت عجيب، شيطان صغير يلعب على آلة الكمان، أو ربما هو «الساطير»، إله الغابات عند الإغريق. وكان هناك ميترونوم على شكل هرم. جلست «ماريا إنيس» أمام المفاتيح وحركت بخفة أصابعها على المفاتيح البيضاء، ثم بدأت تعزف مقطوعة بسيطة كانت قد تعلمتها خلال دروس العزف على البيانو. عاد «توماس» من المطبخ وأوشك أن يصارحها بأن القهوة لديه قد نفدت، ولكنها كانت تعزف، وهكذا جلس على الأرضية الخشبية يستمع. أياً كان ما تعزفه.. أي شيء.

أي شيء، سيئ أو جيد، تعزفه ببراعة أو بسذاجة، طالما كانت هي، جسدها، أصابعها. إنها موسيقى «ماريا إنيس». مقطوعات افتتاحية بسيطة من "ميكروكوزموس" بالا بارتوك، بسيطة، وجميلة.

ممكن. لابد أنه ممكن. فما سرى في قلب «ماريا إنيس» سيبقى مبهماً غامضاً، ولكن الحضن تشكل في قوس رغبة «توماس». ظهرها وذراعيها، وجسدها الذي يتمايل وهي تعزف ورأسها المتمايل يمنة ويسرة مع يديها. فيما بعد ستقول له: "أرجوك، «توماس»، لا تغرم بي"، وعندها سيسألها مبتسماً: "لماذا؟"، وسترد :"لأنني لست مغرمة بك". ولكن في تلك اللحظة، وحتى بعدما عرف أنها لا تحبه، طمأن «توماس» نفسه: "ممكن. لابد أنه ممكن". لأن حبه سيكفيهما معاً، وكأنه وليمة ضخمة في مطعم كافية لإطعام اثنين، برغبة مضاعفة قادرة على التأثير على مصيرهما سويا، بل وربط هذين المصيرين.

لا يتخيل حياته، من الآن فصاعداً، من دون «ماريا إنيس»، فحياته من دونها ستكون بالمقلوب. لا حياة. هي تلك اللحظة التي تجلس فيها تعزف البيانو تحت الشيطان الصغير (أو هو الساطير) الذي يعزف الكمان، هي تلك اللحظة التي ضرب فيها الحب ضربته، ومنذ تلك اللحظة لم يعد يهم «توماس»

ما ستقوله أو كيف ستكون ردة فعلها. فهناك أوقات يتغذى فيها الحب على هذا اللا حب. وهناك أوقات يتسبب فيها الطرف الآخر في دوار عارم، ولا شفاء منه سوى بترويض ذلك الحب ، تماماً كما يلجأ السكير إلى كأس في الصباح ليقضي بها على صداع السكر الذي يأسره منذ الليلة السابقة.

أن تحب وأن تؤمن أنه ممكن. كل شيء متوقف على ذلك الحضن الذي يتوق إليه «توماس»، وأن يصل إلى ظهرها وشعرها الغجري الذي يتمايل مع تمايل رأسها وتمايل جسدها مع حركة ذراعيها التي تتبع حركة يديها على المفاتيح السوداء والبيضاء، بالا بارتوك. هرم الميترونوم الصامت. لابد أنه ممكن.

أسدل «توماس» الستائر في تنبيه مهذب. كل شيء سلس شفاف، هدوء أواخر الظهيرة، ورطوبة البحر، إحساس اللمسة، الكلمات، وذلك الإحساس العارم الذي دائماً ماكان حاضراً بينهما. كان «توماس» نحيفاً، نحيفا للغاية، ولكن «ماريا إنيس» شعرت براحة وهي تمرر أصابعها على كتفيه، كما فعلت على بطن رسم لم يكتمل له، ولم تشعر باندهاش أو بأي إحساس غير بسيط. الرعد يقصف السماء ، سوف تمطر. وكأن «توماس» يرسم «ماريا إنيس» من دون قلم، من دون ورقة، وحتى من دون التزام بالصمت. رسم اسكتشات كالوشم، مباشرة على جسدها الحساس. مضى كل شيء بيسر واستمر كذلك، شحوب «ماريا إنيس» ونحافة «توماس»، من دون طقوس ومن دون ألم، والآن استحوذ «توماس» أخيراً على جسد «ماريا إنيس».

ثم أخبرها بأنه ظل يحلم بهذا منذ زمن. وعندئذ عاد كل شيء إلى مكانه، وابتسم، وخيل إليه أنه يرى صورة ابتسامته على وجهها: مثل البحر، سرمدية، متجددة.

هكذا دخل «توماس» عالم «ماريا إنيس» ، عالم المسرات الحزينة، هشًا مثل زخرفة على تورتة. تشكلت هي في جسد امرأة، مائة بالمائة امرأة (لقد احتلت هذا الجسد، وشكلته كما أرادت)، ولكنها بعد فتاة صغيرة. بالطبع. وكانت خائفة من الأشباح لأنها تعرفها منذ زمن طويل. بينما «توماس» لا يخشى شيئا، وكرس نفسه لحبه الأول برؤية كلها حيوية وطيش شاب في العشرين. كان إمبراطور نفسه وملاكه لا يعترف بحدود. لأجل الحب، أمضى ليالٍ بأكملها في محاولة أن يعيد تشكيل تلك الفتاة التي ترتدي الأبيض بأقلامه الرصاص، تلك الفتاة التي اكتسبت الآن ثلاثة أبعاد وصوت ورائحة وطعم. لأجل الحب، أطاع جموحه، كمن يتسلق قمة جبل فقط ليتأمل في محدودية العالم، الذي عجز عن أن يحتضن مجرد اتصال بسيط: بأطراف أصابعه، لبشرة (ماريا إنيس). لأجل الحب، أصبح الآن ميالاً للشعر ويجده في كل شيء حوله؛ الحافلات القذرة، في عربات القمامة المكدسة، في المجموعات التي تلعب كرة القدم على الشاطئ، وبطبيعة الحال، في المناظر المفضلة لدى المحبين ؛ غروب الشمس، براعم الزهور، وأمواج المحيط، والآفاق التي توهمك بالتوازن، وذاك السُكر الذي يناقضها، والرفض، وكذلك التسليم. لأجل الحب، رغب في «ماريا إنيس» بشدة، سواء كان بعيدا عنها أو كانت هي بين ذراعيه، فحضورها مهما تجسد لا يتسامى إلى فكرتها في عقله. لأجل الحب، يحتاج دوماً إلى الكلمات بصورة محمومة ويحبط حينما يجد أنها محدودة مهما بلغت قوتها. كتب لها: "أحبك"

في بيت شعر، فبدت له ركيكة وغير مكتملة. لأن «توماس» يعرف، من دون أدنى شك، أن لا يوجد إنسان أحب بذلك القدر الذي يحبها به، وأن جميع العاشقين واهمون إن ظنوا أن ما هم فيه هو الحب. أما عن إنكار «ماريا إنيس» لهذا الحب: "أرجوك، «توماس»، لا تغرم بي"، فقد كان على يقين من أنه محض كلمات جوفاء، بلا معنى ولا جوهر. فكر في عدة أسباب محتملة لقولها هذا عدم الإحساس بالأمان، ثقة زائدة في النفس، قلة خبرة، خوف، أم أن الحقيقة وببساطة هي أنها لم تألفه بعد. لم تنضج الألفة. لا طائل من وراء التفكير ملياً في هذا. لابد أنه ممكن.

يفكر «توماس» في جسد «ماريا إنيس» في كل وقت، وفي بياض نهديها، وفي تلك الندبة الصغيرة أعلى فخذها اليمنى، تذكر شغب الطفولة (لم يتصور، بالطبع، أن المستقبل سيحمل لهذا الجسد أثر ولادة قيصرية وكذلك أثر جراحة الزائدة الدودية)، تجعيدات الشعر على مؤخرة عنقها التي يحب أن يقبلها، والتضاريس الأخرى التي تكرر وتجدد نفسها. يمكن لنظراته أن تتسلق الآن ساقيها، فخذيها، ولم تعد تنحسر عند حافة تنورة قصيرة أو قطعة ملابس سباحة، بل تستمر وتتقدم بكل حرية ومن دون أن تتلصص. هكذا دخل «توماس» عالم «ماريا إنيس» وجسد «ماريا إنيس» (البحر، الهواء المالح، عروس البحر) وأضحت الدقائق ساعات، ثم أيامًا، وبعدها سنوات.

على أن الحقيقة هي أن «ماريا إنيس» لن تكون أبداً له.

استيقظت قبل السابعة، وهو أمر ليس بمستغرب إلى هذا الحد، فحاجتها إلى النوم تقل كلما تقدمت في السن، هذه هي طبيعة البشر. أما المستغرب فهو أنها قد وجدت ابنتها مستيقظة بالفعل، بل وأخذت حماماً، وارتدت فستاناً قطنياً يغطي جسدها الرشيق، وصندلاً جلدياً. ولو دققت لوجدت أنها قد وضعت خاتماً فضياً نحيفاً في إصبع قدمها. ويفوح منها عبق كولونيا طفولية.

الشقة البيضاء في سبات. لا خدم يمسحون شرايينها بحثاً عن زجاج متسخ أو شباك عناكب، أو يهندمون الأسرة، أو يضعون الشراشف على المائدة، أو يلتقطون حبات الفيشار من على الأرض أمام التلفزيون. جميع الأجهزة ساكتة، عدا صانعة القهوة التي يخرج منها البخار في خجل بالمطبخ. لا وجود لـ«جواو ميغيل»، فربما هو الآن نائم في مقعده، على ارتفاع ثلاثين ألف قدم في الجو.

لدى «إدواردا» حقيبة بيروفية صغيرة مزينة بنقوش، رجال ونساء صغار بقبعات، وحيوانات لا شك في أنها اللاما. روكويردو، تذكار من رحلة إلى ماتشو بيتشو. لدى «ماريا إنيس» جراب عليه نفس الأحرف التي على حاوية المفاتيح (التي لم تكن م. إي. أيه.). كانت الأمتعة في حدود الحاجة، فلا حاجة إلى أية زيادة. من الأفضل أن تجرد، وأن تزيل، مثل نحات يقف أمام كتلة حجرية. كلما كان أقل وأصغر كلما كان أفضل، وأن تؤكد على معاني الصمت والعري والحرية. الأفضل أن تكون خاوي اليدين. وإلا فقد المشروع كله معناه.

مشيا بطول الشاطئ، من دون سبب محدد. كان أطول درب، وأجمل درب.

يعج المشى الساحلي بالهائمين، الغادين والرائحين، ومن يركضون والعرق يملأ ملابسهم وأحذيتهم الرياضية المستوردة. تمرق الدراجات في مسارها، وكذلك من يرتدون الأحذية ذات العجلات. المربيات بزيهن الأبيض يدفعن العربات التي

تحوي الذرية وردية البشرة لسيداتهن (اللاتي يقبعن الآن في مكاتبهن في حللهن الأنيقة، ونظاراتهن التي تساير أحدث الموضات، متزينات بأبهى الإكسسوارات). يذهبن، ثم يعدن. تلحظ السائحين حتى على البعد، فهم دوماً أطول وبوجوه أشد احمراراً، وأحياناً تميزهم الحواجب شديدة الشقرة. كما تميز العاهرات بتنوراتهن القصيرة الضيقة، وأحذيتهن عالية الكعب، ووجوه كما هي منذ الليلة السابقة، يشربن البيرة مع آخر زبون في ظل كشك شطائر. لم ينتهِ الليل بالنسبة لهن، وكأنها مفارقة زمنية شاعرية ووحشية فجة في آن واحد.

عندما توقفت السيارة عند الإشارة الحمراء، اقتربت فتاة تتسول المال، ضربت على النافذة المغلقة براحة يدها وهزت «ماريا إنيس» رأسها (ليس معها مال؟ لا ترغب في منحها إياه؟ لا تشعر أنها مسؤولة بشكل شخصي عن مشاكل الفتاة الاجتماعية وحاولت تغيير الأمور بالتصويت للسياسيين المناسبين، إلخ، إلخ؟). وقفت الفتاة في مكانها، خالية الوفاض، ولاحظت «ماريا إنيس» جماعة تجلس على الرصيف: أمًا، وطفلين، ورضيعًا يحبو ويلهو بورقة. يجمع بينهم الفقر والقذارة. بدت الأم شابة. ثم انتبهت «ماريا إنيس» إلى الرضيع أكثر عمره خمسة أو ستة أشهر. ربما أقل. يرقد فوق قصاصة جريدة ويتقلب من جنب لآخر. الرضيع بلا ساقين، ويرتدي حفاظاً لا يناسبه؛ فالحفاظات لم تصنع لرضع بلا سيقان. هناك بقايا ساق يمنى تراها تتحرك، أما في اليسرى فلا توجد أية بقايا.

ـــ"أهذا الذي هناك هو أخاك؟".

ـــ"أجل".

ـــ"ليس لديه ساقان؟".

ـــ"كلا، وله في يد خمس أصابع وفي الأخرى ثلاث فقط".

يلهو الرضيع بكيس ورقي فوق قصاصة جريدة على الرصيف.

حكت لها الفتاة: "ذهبت أمي تتبول ذات يوم، فولدت أخي فجأة، لقد جاء مبكراً. ولهذا صارت لديه هذه التشوهات".

تمرق الدراجات. تحولت الإشارة خضراء، وتشاهد «ماريا إنيس» في مرآة السيارة سيارة غراند شيروكي سوداء وهي تراوغ في الطريق في محاولة لدهس حمامة متهورة قررت فجأة أن تحط على الطريق. ولكن المحاولة فشلت.

توسلت الفتاة: "سيدتي، أعطيني بعض المال". كانت تضع شعرها الطويل في بيريه أحمر. "أو اشتري بعض اللبان".

حطت الحمامة التي هربت من هجوم الشيروكي فوق إفريز نافذة يطل منها أغلب جسد خادمة تنظف زجاجها. عندها انطلقت أبواق السيارات، فالكل متأخر عن العمل، أو هم مجرد هواة لإطلاق نفير تلك الأبواق. لم يعد أحد ينظر إلى الرضيع، الذي ربما تحول إلى مجرد رقم، أو مجرد وسيلة لإيقاظ أحاسيس الشفقة والرحمة. واستمر توالي إشارات المرور والسيارات على عهده.

ثم وصلت «ماريا إنيس» و«إدواردا» إلى جسر خليج غوانابارا، حيث كانت حركة المرور مزدحمة بعض الشيء بالقرب من بوابات تحصيل الرسوم. تشبثت «إدواردا» بالصمت مثل جنين، واعتدلت في مقعدها فصار ظهرها إلى «ماريا إنيس».

بعدها مرت الساعة الأولى من الرحلة قبل أن تبدأ المراعي في الظهور تباعاً، حتى ولو لم يكن بها قطعان جذابة المنظر. وبين حين وآخر، تجدان أكشاكـًا بنيت كيفما اتفق، تباع الفطائر المحلاة وعصير القصب والخبز والسجق والموز المجفف. وعندما مرتا بالقرب من قرية صغيرة، ارتجت السيارة فوق المطبات التي دائما ما

يزداد عددها مع تنامي اتساع القرى حول الطرق السريعة – بعدها سينقلون الطريق السريعة وتنمو قرى جديدة حول الطريق السريع الجديدة، وما هي إلا سنوات حتى تظهر مطبات صناعية جديدة. تمرق شاحنات ضخمة مكدسة بصناديق الموز، أو أكياس الأسمنت، أو أقفاص تحمل الدجاج الحي.

بدت «إدواردا» نائمة، يهتز جسدها مع إيقاع الطريق أسفلها، بينما تستمع «ماريا إنيس» إلى الموسيقى، وهي لم تعد تسمع «مونتيفيردي» أو فرقة البراهما الآن، ولكنها موسيقى فيلم "غود ويل هانتنغ" التي استعارت أسطوانتها من ابنتها، فتلك الموسيقى تعيد إليها شيئاً من شبابها. يطير «جواو ميغيل» الآن فوق المحيط ويحلم، و«ماريا إنيس» تعلم فحوى ذلك الحلم بل وتكاد تراه، وكأنها تشاهد "غود ويل هانتنغ" في السينما. إنه يحلم بفينيسيا.

كما تفكر الآن في «كلاريس»، في الرسغين المشقوقين بسكين أولفا، وفي «توماس» (الذي أحب لوحة بعينها لـ«ويزلر»). لم تعد تعرفهما بنفس القدر الذي عرفتهما به والذي مثل جزءاً من نفسها، ولكنها مجرد أنصاف حقائق، ففي الواقع يمكن إيجاز أي شيء في دراما (بالمعنى المسرحي للكلمة) تجوب فيها عدة نساء خشبة المسرح، جميعهن باسم «ماريا إنيس»، وبنفس الوجه تماماً، أو تقريباً.

كانت تجمع قطع الفسيفساء. وفيها مكان محدد لفينيسيا، لشاب اسمه «باولو»، لمدرب تنس ولزوجة سابقة «لوسيانا»، لابن عم يعمل في السينما، لـ«جواو ميغيل»، لـ«أزوباردي»، لـ«قنينات الشيانتي»، ولمغني اسمه «برناردو أغواس»، ولأغاني «مونتيفيردي» (وموسيقى فيلم "غود ويل هانتنغ")، ولابنة، ولندبتين صنعتهما سكين أولفا، ولأثر جراحة قيصرية. تحتاج إلى تنظيم تلك الفسيفساء. وأن تجد فيها بقعة مناسبة للصراخ.

ولتلك الفراشة زاهية الألوان، التي أحبتها حتى الحنق.

تحمل الدقائق، الساعات، الأيام، والسنوات (أيام الشباب، وممارسة اليوغا) التي أمضاها «توماس» جوار «ماريا إنيس» رائحة الفانيليا أو الياسمين أو الزنابق، أي شيء أبيض وجميل. في ذلك الوقت كان ما زال لا يعرف. كان مثل آدم قبل التفاحة ، قبل أسوأ الآثام، قبل الحقيقة، حقيقة ليست ملكه، لا تتعلق به، ولكنها تسببت في معاناته رغم كل شيء.

أو: مجموعة حقائق. شكلت نفس الجوهر الذي صف جدران مزرعة «إبيس»، التي حكت له «ماريا إنيس» عنها خلال إحدى الجولات . بدت شغوفة بالحكاية كلها، المرأة الخائنة، الزوج الغيور، السكين، والأهم إعدام الناس له من دون قانون: "بالطبع حكاية مثل هذه كانت ممنوعة في منزل عائلتي. ولكنني أعرف كل شيء عنها لأنهم ما زالوا يتحدثون عنها في كل مكان، حتى يومنا هذا. أيمكنك أن تتخيلرجلاً رجل وصلت به الغيرة إلى حد أن يقتل زوجته؟ أتعتقد أنه أحب تلك المرأة؟ أتعتقد أنه مجنون؟ مجنون بسبب الحب؟

كان «توماس» يحاول أن يمسك بيد «ماريا إنيس»، فوجد الحكاية غير مناسبة أبداً للموقف. ولكنها عادت إليها مجدداً، بعد أشهر، بينما هو جالس يرسم أرابيسك بحبر هندي مستنداً على مؤخرة «ماريا إنيس» العارية، بعدما أضحت تحتل مكانتها الجديدة : رفيقة؟ حبيبة؟

قالت: "أحاول دوماً أن أتخيل كيف أعدموا الرجل، دقيقة تلو الأخرى. هل تظن أنه كان قد فارق الحياة بالفعل حينما أضرموا النيران فيه، أم أنه كان نصف ميت؟ لابد أن الاحتراق حتى الموت أسوأ من الموت نفسه، أسوأ من الغرق أو الإصابة بعيار ناري، أو في حادث سيارة، من الجوع أو الموت متجمداً من البرد.

ــ"انسي هذه الحكاية، «ماريا إنيس»".

ــ"لا يمكنني هذا. لا يمكن أن أنساها".

ثم جذبت إليها وسادة كانا في حجرة والديهالتي صارا يستخدمانها، فانبعثت فيها الحياة والروائح من جديد.

تابعت الحكي: "في تلك المزرعة محجر ضخم. فوق ذلك التل خلف منزل العائلة. حرم علينا والدي الذهاب إلى هناك لسهولة السقوط من الجانب الآخر منه. بالرغم من أن أحداً لم يسقط من فوقه حتى اليوم. ينتهي المحجر بغتة، وكأنك تصعد سلماً وفجأة تجد أن درجاته انتهت من دون سابق إنذار. إنه عال جداً. من فوقه ترى مزرعة «إيبيس»".

ــ"لابد أنها قد عادت مأهولة الآن".

هزت «ماريا إنيس» رأسها وهي تعض على ركن الوسادة كطفلة: "ورثت ابنتهما الأرض، ولكنها تركتها واختفت. كان اسمها «ليندافلور». المسكينة".

ابتل ركن الوسادة باللعاب. وبدأ «توماس» يحكي لها أنه قد تحدث إلى والديه على الهاتف الليلة الماضية، وأنهما بخير، وأنه أخبرهما عنها، وقال لها إن الطقس مثلج في سانتياغو دي تشيلي.

قال بجذل طفولي: "أحب مشاهدة الثلوج".

ـــ"لماذا لا تذهب لزيارتهما؟".

ـــ"وأكون بعيداً إلى هذا الحد عنكِ؟".

في عمر العشرين تنقلب الأبعاد الحقيقية للأشياء رأساً على عقب. ترى العالم من خلال عدسات مشوهة، ويبدو كل شيء مثل انعكاسات في قاعة المرايا المقعرة بالملاهي.

ابتسمت «ماريا إنيس» من دون أن تتوقف عن مضغ طرف الوسادة، بطريقة تقصد بها إيحاءات غواية محسوبة. وفهم «توماس»، فاحتضن ظهرها بجسده. لاحظ أن مؤخرة عنقها متصببة عرقـًا، هناك في تلك البقعة التي تنمو فيها كرات الشعر مثل البراعم. قبلاته كانت بطعم ملح عرقها، والتصق جسده بجسدها.

على أن «ماريا إنيس»، وفي أعماق قلبها، لم تكن قد تخلصت من تلك الذكريات السوداء عن مزرعة «إبيس» من أعالي المحجر المحرم. كانت قراميد السقف التي اسودت مع الزمن مثل هيكل حيوان ميت، وبالداخل، أسفل تلك

القراميد، في الجدران المتداعية، يعوي شبح. بدا أن هناك فكرة ما تولد، في ذلك الرحم الصامت، في صحبة ذكرى جريمة أخرى، في صحبة الألم والمعاناة. آمنت «ماريا إنيس» بالألم.

وبينما تطلق الآهات التي ترافقها كلمات لاهثة تخرج من فم «توماس»، وبينما ينسحق جسدها في جسده، استمرت «ماريا إنيس» تنزف في غورها العميق.

الفصل السابع
فلوريان

استمرت أيام السعادة بين «ماريا إنيس» و«توماس» فترة طويلة، ولكن كل السعادة كانت موجودة بالفعل، تطوف خفيةً، مثل المساحات البيضاء بين كلمات نص، مثل نمر يقوم على حدود الأحلام الخطرة. فوتت الكثير والكثير من دروس الفرنسية والبيانو حتى تلتقي «توماس» في شقته أو لتتجول معه في أنحاء المدينة، ممسكة بيده، وهي تجد الخلاص في الأرصفة والأسفلت الذي يبزغ من الأرض ليقتلها ونباتاتها ، وهو كل ما كانت تعرفه حتى ذلك الحين. كان الأسفلت ثابتاً تحت قدميها، كما أنه لا يوسخ حذاءها.

كما أن «توماس» لم يكن متخفياً إلى هذا الحد، بل كان يحضر إلى منزل العمة «بيرينيسي» في زيارات بعد ظهر أيام الأحد. وفيما بعد سيقول لـ«ماريا إنيس»، وقتما يكونان وحدهما: "أحياناً ما أظن أن العمة تعرف ما بيننا، هي تعلم كل شيء ولكنها تتظاهر بالجهل، ولكن أحياناً أخرى أراها ساذجة فحسب".

فتهز «ماريا إنيس» رأسها وتقول: "هي لا هذا ولا ذاك".

هي لا تتحدث كثيرا مع العمة «بيرينيسي»، وهي ليست من النوع الذي ينفتح بأسراره ولا تحب طلب النصيحة. كما أنها أحبت ممارسة الجنس مع رفيق في السر، وضد كل المعايير الأخلاقية التي تربت عليها وفرضت عليها، وضد كل المعايير الأخلاقية التي تطيعها فتيات ذلك الزمان (فريو دي جانيرو ليست سان فرانسيسكو). يمكن القول أنها بذلك تثأر لنفسها. لا تزال هي بعيدة بعض الشيء

عن الزمن الذي ستنال فيه ثأرها التام، ولكن بذور تلك الرغبة العارمة (تلك الضرورة) قد بدأت تنبت بداخلها كإعصار ضعيف محدود.

مرات مع «توماس». مرات مع «جواو ميغيل». كانت علاقتها مع ابن عمها مختلفة، ولكنها ربما أعمق، وهو ما لا يعد تناقضاً ذا بال. زهور وشوكولاتة. لا لقاءات خفية. يعطيها جسد «جواو ميغيل» الضخم انطباعاً بأنه كبير جدا عليها، وكأنها ترتدي قميصاً واسعاً عليها. وروحه متقلبة بداخله. قوية، ضعيفة. ضعيفة، قوية. ولهذا فلن يتسنى له أن *يعلم* أبداً.

بالطريقة ذاتها، عقب ذلك بسنوات، وفي ذات المدينة، وبداخل نفس الغرفة، دشنت «كلاريس» مسعاها الشخصي (الذي سيخيب)، وهكذا تبدأ «ماريا إنيس» الآن تنفيذ مشروعها الخاص: حياة ملموسة فوق أرض راسخة محسوسة. احتاجت أن تنفذ ذلك خطوة خطوة، وبحرص، بحيث تكون قريبة بما يكفي من ذاتها وبعيدة في الآن نفسه عنها بدرجة ترضيها.

أول ما قررته هو أن تلتحق بكلية الطب، حتى وهي تعلم أنها لن تكون سوى طبيبة متواضعة المستوى، كونها غير شغوفة بالطب. ولكنها احتاجت صيت تلك المهنة. تشعر أن إضافة اللقب إليها يقويها، وأن في هذا أمانًا يحميها من محاولة سبر أغوار ذات «ماريا إنيس» الحقيقية.

عليها أن تحقق.. أن تبني.. أن تؤمن. فهي قد عاشت وعايشت الكثير.

صار «توماس» بالنسبة لها واحة. تعرف «ماريا إنيس» أنه لن يبقى كذلك للأبد، وهو ما أكسب كل شيء يمثله وقتذاك قيمة أكبر. فقد مثل لها «توماس» إحساسها بجسدها. كان هو التجريد الأكمل والأمتع الذي يجسد ما يستحيل بلوغه (حتى ولو بقى هذا المحال محالاً). كان «توماس» خالي البال، ابتسامة

عريضة وارتجافاته فورية. ولو قدر لها أن تريه خنفساء أو ضفدعة لوجد في ذلك عجباً كبيراً.

قبيل إجازة عيد الفصح، أصيبت «ماريا إنيس» بالبرد فكان عذراً لعدم ذهابها إلى المزرعة. وسرعان ما تبدد البرد، وحضر «جواو ميغيل» ليلة الجمعة في زيارته المعتادة، ويجعبته هذه المرة باقة من الزهور البرية. قدمت له العمة «بيرينيسي» شراباً ياقوتي اللون، وهي تقدم هذا الشراب يوم السبت المقدس إلى «توماس» ومعه بعض بسكويت الويفر المخبوز لتوه. أكلت «ماريا إنيس» البسكويت بعدما غمسته في قهوتها. اعتادت شرب القهوة في المزرعة منذ أن كانت صغيرة، وكان الدواء الذي أوصتها الطاهية أن تتناوله علاجاً للصداع، والتقلصات، وبقية الأوجاع. وبعد البسكويت والقهوة والشراب الذي يعدل مزاجها، نهضت «ماريا إنيس» عن كرسيها وقالت: "اتفقت أنا و«توماس» على الذهاب للقاء بعض الأصدقاء في السينما الآن".

اعتاد أكاذيبها المرتجلة، وهكذا لم يرفع عينيه عن الكأس البلورية الجميلة التي كان يتأملها والتي تصنع دائرة حمراء لذيذة في قاعها. ابتسمت العمة «بيرينيسي» وظهرت غمازاتها. كانت تربت بيمناها على قط سيامي عجوز. يدها شاردة عن جسدها، شاحبة، وهي تبرز من كم بلوزتها التركوازية. لا ترغب في أن تسمح لعقلها بالاستغراق في التأمل، وهكذا اعتادت أن تصدق كل ما يقال لها. فكانت تقرأ الجريدة، مثلا، وهي تصدق كل كلمة فيها. ووفق ذلك المبدأ، ابتسمت في تلك اللحظة ابتسامتها المعتادة لـ«ماريا إنيس»، ورافقتها و«توماس» حتى الباب الأمامي، وأرسلت إليهما قبلة في الهواء بينما ينتظران المصعد. "وقتـًا سعيدًا!". أغلقت الباب الخشبي الثقيل، ثم أسندت ظهرها إليه، وشرعت تفكر في أمر ما ولكنها كانت مشتتة الذهن تنظر إلى عصفورين حطا

على نافذتها. مشت نحوهما ببطء، قدر ما أمكنها ذلك، وهي تكبت صوت خفها المعتاد فوق الأرضية الباركيه. ولكن العصفورين أحسا بالحركة فطارا بعيدا. ووقفت العمة «بيرينيسي» في مكانها، وسط غرفة المعيشة، تشعر بخواء تام.

كانت الأخت الصغرى لوالدة «أوتاسيليا»، والوحيدة التي تعيش في ريو دي جانيرو. ولدت في آخر أعوام القرن التاسع عشر، مما يعطيها هذا الإحساس القديم، وكأنها لا تمت للتواريخ بصلة. يحزنها مثلا أن تضطر وهي تعبئ الاستمارات الحكومية أن تصارح موظفاً شاباً كله حيوية بأنها قد ولدت في القرن التاسع عشر، فيبدو لها هذا الموظف وكأنه قد خرج للتو من رياض الأطفال.

عاشت العمة «بيرينيسي» قصة حب مجنونة في العشرينيات: موسيقي. عازف بيانو. كان صديقا لـ«هيتور فيا لوبوس» و«ماريو دي أندرادي». شارك في أسبوع الفن الحديث في سان باولو عام 1922. وفي ريو، قام بالتدريس في معهد الموسيقى الوطني وأدى أعمالاً جميلة لـ«بتهوفن» و« شوبرت». لم تكن العمة معجبة بأعمال «فيا لوبوس»، فهي لا تحب أي شيء حداثي، ولكنها ظلت محجرة من التصريح بذلك. وبرغم هذا، أغرمت بعازف البيانو، وربما كان ذلك بسبب تعلقه بـ«بتهوفن» و« شوبرت» (فقد رأت أن «بتهوفن» و«شوبرت» يشفعان له).

كان اسمه «خوان كارلوس»، أرجنتيني استقر في البرازيل، ويكبر «بيرينيسي» بعامين ويفوقها طولاً بكثير. أحبت أن تسند رأسها على كتف «خوان كارلوس»، الذي بدا كأنه خلق خصيصا لهذا الغرض، بالارتفاع والعضلات المناسبة تماماً. ظلا يلتقيان لعامين ونصف العام تقريبا، وبعدها تمت الخطبة. بدأت «بيرينيسي» تعرض في إصبع يسراها خاتما ذهبيا به ألماس ولؤلؤة مميزة منفردة، بينما تهيم بـ«بتهوفن» و«شوبرت»، وتتسامح مع «فيا لوبوس». وفي ديسمبر من العام التالي، وقت أن انتهت للتو من تطريز سترة

بيضاء له، اضطر «خوان كارلوس» إلى الذهاب إلى بوينس آيريس لينهي أمورا شخصية. ظن أنه سيغيب لشهر أو شهرين.

ولكنه مكث ثلاثين عاماً، وبقيت «بيرينيسي» مصدومة وفي إصبعها خاتم الخطوبة وإحساس غريب بغصة ملتهبة في الحلق. تشبثت بأمل أن يعود «خوان كارلوس»، حتى تجاوزت سن الزواج، وحينما التقته صدفة، عام 1956، في وسط المدينة، كان سائحاً طويلاً أشيب الشعر، بصحبة ابنة أرجنتينية جميلة لا تتحدث البرتغالية. وكانت «بيرينيسي» قد أصبحت بالفعل...العمة «بيرينيسي».

في المصعد، تبادلت «ماريا إنيس» و«توماس» القبلات كعاشقين خبيرين.

ــ"لا يمكننا اليوم".

ــ"فلماذا إذن اختلقت عذر السينما؟".

ــ"لا أدري، ربما لأخرج قليلا".

حينما وصل الطابق الأرضي وانفتح الباب المعدني، قالت: "ربما أمكننا الذهاب إلى السينما حقاً، ما رأيك؟".

وصل خطاب «كلاريس» بعدها بعشرة أيام. كتبت لها على ورقة مطبوع عليها اسمها وضعتها في مظروف مماثلراقٍ جدا، كان هدية من «إلتون خافير» ، الذي أحبها لأن لا أسرار لديها. الخطاب رسمي متين البنية مثل البقية، وموضوعاته مقسمة على فقرات وتحوي أخبارا سطحية عنهم جميعا. مرت سريعا على موضوعات الزراعة والحصاد والماشية والحليب، ولكنها غيرت الموضوع قبيل أن يصير مملا كتقرير فني، وتحدثت عن الطقس، والمطر، وعن

ابن عم رزق بثلاثة توائم، وعن فستان جديد، وعن منحوتات. أما في الفقرة المخصصة لــ«أوتاسيليا» فقد تغير إيقاع «كلاريس» وزادت التفاصيل، فلم يعد المرض سراً، فهو مرض عجز الأطباء عن تسميته، ويتعاملون معه كمن يتعامل مع وحش يجوب في الظلام. لم تكن روح «أوتاسيليا» مرتفعة. تشتكي من أوجاع في المفاصل، ومن إرهاق شديد، ونقص مستمر في الوزن، وأحيانًا من حمى، ولكنها ترفض الذهاب إلى طبيب في ريو دي جانيرو، وتصر على طبيب العائلة العجوز المقيم في جابوتيكابايس أو على مقربة منها، الذي يعتمد طبه على الفيتامينات والمقويات وتعليمات الراحة التامة.

لن تصير «ماريا إنيس» طبية متمرسة أبداً. ولكن لديها من الفضول ما يكفي لتكتشف، ولكن بعد فوات الأوان، أن "الذئبة الحمامية" هو اسم المرض الذي عذب «أوتاسيليا» لأكثر من عشر سنوات قبل أن يقضي عليها.

انتهى خطاب «كلاريس» بالأمنيات، وطلب بأن تزورهم «ماريا إنيس». وفيما بين السطور، تبدت ذكرى ابتسامة مختلجة.

الاستهلال.

لن يكون أطول بكثير الآن.

لن يكون أطول بكثير الآن.

ساعتان ونصف الساعة، ثلاث ساعات على الطريق. كانت «إدواردا» قد استيقظت.

ــ"أمي، هلا توقفنا لدقيقة؟".

ــ"في طريق الجبال يوجد ذاك المطعم".

ــ"بارادا بريديليتا ؛ الاستراحة المفضلة".

ابتسمت «ماريا إنيس». فحينما كانت ابنتها أصغر سنا، اعتادت هي و«جواو ميغيل» اصطحابها إلى المزرعة مرة أو مرتين في العام، على أن هذا يبدو نوعاً من العبث في نظر «ماريا إنيس». ستزوران الخالة «كلاريس»، غريبة الأطوار، الغامضة. سمعت «إدواردا» ذات مرة أنها قد خرجت للتو من عيادة لعلاج التسمم!

ــ"أمي، ما هي تلك العيادة التي خرجت منها الخالة «كلاريس»؟".

ــ"إنها عيادة تجميل. ذهبت لعلاج بشرتها. ألم تلاحظي أنها قد صارت أجمل؟".

وجدت «إدواردا»، ذات السنوات السبع، زيارة الخالة «كلاريس» مملة لأنها تبدو دوماً متجهمة، ولكن في المزرعة العديد من الحيوانات المسلية، والجياد والأبقار والثيران والدجاج، والكتاكيت الصفراء (ذات مرة أغرقت نصف دزينة منها في محاولة فادحة لتعليمها السباحة)، والكلاب والقطط والخراف ومعزة عجوز. كما أن هناك أناسًا لهم مكانة خاصة، مثل الطاهية العجوز التي تحكي لها حكايات مرعبة جوار الموقد ليلا. حكت لها ذات مرة كيف أنها رأت معركة بين القديس جورج والشيطان، فوق التلال. كما حكت لها أن هناك عظام حيوانات وسط بساتين البامبو، وأن هذه العظام تبعث من جديد في ليالي الجمعة وتجوس المراعي باكية من فرط الحنين إلى الديار. وتقسم لها أنه إن

مرت مجموعة من الفرسان عبر بوابة، فإن هناك شيطانًا ذا ساق واحدة اسمه «ساكي بيريري» يأتي ليدخل متقافزاً خلف آخر فارس. شغفت «إدواردا» بهذه الحكايات، وكانت دوما تطلب منها أن تحكيها، حتى ولو أبقتها مستيقظة خوفاً بعد ذلك. ومرت السنوات، وتغيرت الدنيا. فذات يوم، كانت الطاهية صاحبة الحكايات تقطع الحطب ببلطة فطارت قطعة خشب كبيرة لتصطدم بعينها وتفقأها، فعميت وتركت العمل. كما بدأت الحيوانات تختفي، تنفق ولا يحل محلها غيرها. وهناك عدم ارتياح يتنامى في داخل «ماريا إنيس»، ورد فعل مبالغ فيه تجاه حقائق تتقادم. وجاء وقت توقفوا فيه عن زيارة المزرعة. ووافقت «ماريا إنيس» على رغبة «كلاريس» في أن تبيع رقعة كبيرة من الأراضي لأن استثمار المال في البنك يدر دخلاً أكبر من إيجار تلك الأراضي. واتخذت الأمور نوعاً من التوازن.

عبق الجو ودرجة حرارته مختلفة بالفعل في بارادا بريديليتا. ربما سبب ذلك هو هذا التوقيت من النهار، أو هذا اليوم من الأسبوع، فلم تكن هناك حافلات في الموقف ولم يكن رواد يشوهون أرض المطعم بالمناديل. هناك صبي حافي القدمين تسيل سوائل أنفه، يعرض عليهما حراسة السيارة. تلقت «ماريا إنيس» و«إدواردا» ورقة لتسجيل نفقاتهماالتي لم تكن كثيرة.

من قبل، كانت «إدواردا» تسألها أن يشتريا شيئاً، حليبًا بالكرامل، برطمان حلوى، جوافة. أما في هذا الصباح، فلم تطلب شيئاً وكانت ساكتة. ذهبتا إلى الحمام. دخلت «ماريا إنيس» أولاً، ثم أخبرت «إدواردا» أنها ستنتظرها في الخارج، وأنها ستتناول القهوة.

على الحائط جوار ماكينة القهوة القديمة ملصق صغير يظهر عليه وجه «جون لينون» ومع الصورة ترجمة لكلمات أغنيته: "تخيل". أخذت «ماريا

إنيس» تحدق فيها وتقرأ: *É fácil, basta tentar .que não há países.* تخيل أن لا بلاد هناك.. ليس هذا بالأمر الصعب. وجوار الملصق ورقة كتبت عليها صلاة بخط اليد موجهة للقديس «فرنسيس»: *Senhor, fazei-me instrumento de Vossa paz.* اجعلني أداة سلام. التقطت «ماريا إنيس» إبريق القهوة الألومنيوم، وملأت قدح البورسيلين. كانت القهوة خفيفة. وهي تحبها قوية. في قدح ديميتاسي.

كما شربتها في إيطاليا.

تفتح النافذة الجانبية في بارادا بريديليتا على جدول ماء كراملي اللون. تذكرت «ماريا إنيس» إيطاليا. تذكرت فينيسيا وجداولها ذات الرائحة المميزة.

رجل طويل قصير بدين نحيف جالس واقف.

أتت «إدواردا» وطلبت قدح شاي. صبت النادلة الماء المغلي في إبريق ثم وضعت كيس شاي لم تميزه أية علامة، ولم تعرف له نوعاً.

إلى جوار بارادا بريديليتا يتدفق جدول ماء كراملي اللون.

قنوات فينيسيا. مقهى فلوريان، حيث شاب اسمه «باولو».

خطر المشهد لـ«ماريا إنيس»بأكمله. ربما هي تستعيده لغاية جديدة، مثل كاتب يعود إلى قصيدة كتبها منذ عشر أو خمس عشرة سنة ليغير فيها فاصلة، أو يعثر على مرادف لكلمة، أو ليضيف أو ليغير، أو ليبدل إيقاعها. مراجعة.

تتذكر الآن حتى لون السترة التي كانت ترتديها، من الصوف، فقد كان الجو بارداً بعض الشيء ذلك اليوم. تذكرت طعم الكوكتيل الذي كانت تشربه

وقبل كل ذلك تلك الرائحة الحلوة العطنة التي عبقت تلك الظهيرة، ذلك الحلم: فينيسيا. لم يكن شهر العسل، فقد مر على زواجها من «جواو ميغيل» أربع سنوات. ولكن هذا المشهد هو أحد المباهج التي رغب في أن يستمتع بها في حياته؛ أما الأخرى فهي الحلل التي تخاط خصيصا لأجله، وقنينات الويسكي المعتقة منذ اثنى عشر عاما.

فينيسيا.. رحلات.. إيطاليا.. نساء جميلات.. فتيان وسيمون.

مكثت «إدورادا الصغيرة» عامين ونصف العام في البرازيل تحت رعاية واحدة من بنات العم. اشترت لها «ماريا إنيس» قناع كرنفال، ومجموعة من النماذج المصغرة لحيوانات المورانو. كانت سعيدة وقررت أن تشتري بعض بطاقات البريد، أن ترسل بطاقات بريد، و لم لا؟ أن تكتب أنها تجلس إلى طاولة مقهى ارتاده من قبل «كازانوفا» و«فاغنر» و«بروست». و لم لا؟ نهضت سعيدة متوهجة ومرت بيدها على شعرها؛ فهي شديدة الوعي بجسدها كله، ودرجة الحرارة مريحة الآن داخل سترتها الصوفية. وابتسامتها حلوة. عبرت بياتزا سان ماركو وسط الكثير من الحمام وتوجهت إلى الكشك الذي يبيع بطاقات البريد وعادت وهي تكاد تقفز من فرط السعادة بالصورة التي كانت أعلى مجموعة البطاقات (قناة ماؤها داكن الخضرة، وبناية ذات نوافذ مغربية، وشجرة بأغصان عارية تميل على جدار متداعٍ).

طعنة ألم، ليس إلا.

هناك شخص جالس مع «جواو ميغيل». شاب وسيم جداإنهما يتحدثان. اقتربت «ماريا إنيس» فأحسن تعريفها به، "questa è mia moglie «ماريا إنيس»، هذا «باولو»".

ابتسم لها «باولو» ابتسامة بدت لها قطعة فنية تفوه بجملتين أو ثلاث مجاملة وترجم «جواو ميغيل»، ثم أنهى كل شيء بتحية "تشاو" خرجت كنغم موسيقي فريد رائع. ولكن «ماريا إنيس» لمحت النظرة التي بثت فيها ارتياعاً: تلك النظرة بين «باولو» و«جواو ميغيل». ثم تلك المصافحة التي دامت ثانية أطول مما هو ضروري وكانت أقوى بمليمتر عن أي مصافحة معهودة.

طعنة ألم، ليس إلا.

الأمر بدأ قبل ذلك بكثير: فتيان وفتيات جميلات. ولكنها لم تكتشفه إلا هناك، في تلك الظهيرة الجميلة في بياتزا سان ماركو. وأحست بشيء من الذنب. ربما عرف «جواو ميغيل» سرها، عرف عن «توماس». ولكنها لم تعد تلتقي «توماس». ربما هو انتقام «جواو ميغيل». ربما. انتاب «ماريا إنيس» الصداع فيما بعد. وغادرها «جواو ميغيل» ليستريح في الغرفة بفندق دانييلي، لم يتبادلا أي حديث حول «باولو» الوسيم، ولكن «ماريا إنيس» عرفت أن زوجها سيلتقيه حينما أخبرها أنه ذاهب يتمشى، لأن الجو جميل بالخارج الليلة.

إنه خطئي، قالت لنفسها.

بعد سبعة عشر عاما من ذلك اليوم، أدركت أنها لم تعد تحكم القبض على عجلة القيادة. بدأت تدندن بصوت حزين ولكنه حازم، فنظرت إليها «إدواردا» في حيرة، لأن الأغنية التي تصدح من سماعات السيارة مختلفة عن تلك الدندنة، وهو ما أحدث أثرا غير معتاد. أدركت «ماريا إنيس» ذلك ولكنها أكملت أغنيتها، ثم سألتها: "هل سمعتِ يوماً عن ملحن اسمه «تشارلز إيف»؟". هزت «إدواردا» رأسها نفياً، ولكنها عادت إلى مجلتها حيث كانت تقرأ موضوعا تعتبره أهم بكثير من «تشارلز إيف» هذا. لم تشعر «ماريا إنيس» بإهانة. بل

على العكس. فهي تشعر الآن بوحدة من نوع مختلفٍ بلون مختلف، ومذاق مختلف. وحدة لطيفة، نصفها حمى ونصفها حب، حيث أضحت أعمق شكوكها حقيقة. بعد سبعة عشر عاما.

راقبت الأشجار وهي تقترب ثم تمرق على جانبي الطريق السريع، وهي تعرف أنها لو أغلقت التكييف وفتحت النافذة فسوف تسمع أصوات الجراد بالخارج. وحينئذ فكرت بوضوح في «توماس».

وصلتا إلى المزرعة بعدما انتهى كل شيء. كانت «أوتاسيليا» قد ماتت. وكان «أفونسو أوليمبيو» قد مات. لم يعودا سوى اسمين محفوران على شاهد مقبرة في مدافن جابوتيكابايس. كان رسغا «كلاريس» قد انفتحا ثم خيطا. وكانت «ماريا إنيس» طبيبة، وأنجبت ابنة، وهذه الابنة كبرت بالفعل. كل شيء يشغل مكانه المحدد، والغبار يتراكم، واستقر الصمت كحكم بالسجن. وهو نفسه، «توماس»، قد اعتاد مهنته المتواضعة كرسام على النقيض من المعارض الفنية، والبينالي، والبانورامات، وكل ما اعتاده من قبل. توفي والداه أيضاً: كانا قد عادا من شيلي مع "الأبيرتورا"، التحول من دكتاتورية عسكرية إلى ديمقراطية مدنية، وتوفيا في سلام بعد سنوات ومن دون أحلام. كانا قد عاشا بما يكفي للقتال لأجل "ديريتاس – جا"، الحركة التي نادت بالتصويت الديمقراطي المباشر، وبما يكفي لانتخاب رئيس للبرازيل في العام 1989. بقيا شيوعيين. وماتا شيوعيين. واندهش

«توماس»، الذي لم يصبح أبداً مناضلا سياسيا، من نفسه حينما صوت لصالح مرشح شيوعي في انتخابات 15 نوفمبر. تذكر كل هذا الآن.

أنهى عقد إيجار تلك الشقة الصغيرة في منطقة لابا في ريو حيث كان يعيش، على مقربة من عتبات سانتا تريزا. وبدأت رحلاته.

رحلاته لا تكفي أبداً لرؤية كل البرازيل، بالحافلة، أو يستقل الشاحنات التي تخترق طرقا لا يصدق وجودها، أتلفها الزمن وانعدام الصيانة. يخيم، أو ينام في النزل الرخيصة، أحيانا ما تكون ريفية مريحة، ولكن غالبا هي قذرة عدائية، أو رتيبة. يرسم لوحة هنا ولوحة هناك لتمويل رحلته التالية. يرسم بورتريهات بالباستيل للسائحين الفرحانين. يتعلم نغمة أصوات حشرات الغابات ومجاري المياه، يدس قدميه في رمل الشواطئ البلوري، يستكشف مدناً كبيرة كانت غابات، وربما صارت أخطر، بنسختها الخاصة من الحشرات السامة التي تقتلك بلدغة واحدة، أو الحيوانات المسعورة التي تستهدف الرقبة فوراً فتمزق وريدها. ولكن هذا الاهتمام بدأ يخفت تدريجيا، مثل عضلة منهكة، أو ربما تقدم العمر بـ«توماس». فكر في التوقف، في أن يصير ضئيلا (إلى أقصى حد ممكن). باع شقة العائلة بسعر بخس لأنه كان متلهفاً على بيعها، وتفاوض مع «كلاريس» حول شراء ذلك الكوخ الذي لم يستأجره أحد منذ سنوات. كان يمكن أن يعيش في مكان آخر، في ولاية أخرى، شاطئ في ريو غراندي دو نورتي، سانتانا دو ديسيرتو، الجبال في ريو غراندي دو سول، ماتو دو تيتشياو، غوياس فيليو، تخوم ميناس جيرايس. ولكنه لم يكن مكاناً آخر.

طبيعي أن يحكي لـ«كلاريس» عن رحلاته، وقد استمتعت هي بحكاياته. وفي تلك الليلة وهما بانتظار «ماريا إنيس» – حينما تبادلا تحية الليل كانت الساعة قد تجاوزت الثانية – أخبرها عن شابادا دوس فياديروس وعن نهر

أراغوايا، وكذلك عن جبال إيبيتيبوكا التي بها متنزه وطني يحوي أسماء خيالية، كـ«اشويرا دا فادا» (الشلال الخيالي)، «جانيلا دو كيو» (نافذة الجنة)، «غروتا داس بروميلياس»، «دوس موريبراس»، «دوس فوغيتيفوس» (قوافل اللاجئين). ثم حكى لها عن الأشهر الستة التي عاشها فوق جزيرة فيرناندو دي نورونيا، في منزل في فيا دوس ريميديوس، حيث أقام من قبل عالم أحياء قدم من بلاد أخرى لدراسة الدلافين. وهو بدوره كان على علاقة بامرأة أتت لدراسة الدلافين، وبعدها لم يلتقيا ثانية أبداً. ولكن انطبعت في ذاكرة «توماس» تلك الصباحات التي كانت تبدأ مبكراً جداً، قبل الفجر، حينما كانت تلك البيولوجية تصطحبه لمراقبة حركة الدلافين في الخليج.

طيلة كل تلك السنوات، قرابة العشرين، التي فصلت بين جنازة «أفونسو أوليمبيو»، حينما التقيا، وبين لحظة أن صارا جارين، كانت «كلاريس» على اتصال لم ينقطع بـ«توماس». فـ«ماريا إنيس»قاسم مشترك بينهما. دائما هي. كما أن «توماس» كان يعرف، «توماس» يعرف بأمر تلك الفراشة المحلقة على غير هدى فوق المحجر المحرم.

عرف بعض النساء بعد «ماريا إنيس». لم تبد واحدة منهن شبيهة بلوحة «ويزلر»، أو شبيهة بأية لوحة، أو حتى شبيهة بالبروتريهات التي رسمها «توماس» لهن بين حين وآخر. مثل تلك البيولوجية التي درست الدلافين في فيرناندو دي نورونيا.

ـــ"أعتقد أنه من الغريب أنك لم تتزوج"، قالت له «كلاريس» ذات مرة، ثم فسرت لأنها ظنت أن العبارة تحتاج إلى تفسير: "تعلم أن من غير المعتاد أن يصل المرء إلى سن الأربعين من دون أن يكون قد تزوج ولو مرة على الأقل".

ـــ"عشت مع امرأة لمدة عامين. هل نعتبر هذا زواجا؟".

ـــ"أعتقد هذا".

ـــ"هل أسفتِ على عدم إنجابك أطفال؟".

سألها.

ـــ"أجل. ولكني أعتقد أن الأطفال الذين لم أنجبهم محظوظون، واعذرني إن بدا هذا تناقضا. لم أكن لأصير أماً جيدة".

عندئذ نهض «توماس»، كانت الساعة الثامنة، ودجاج الطاهية «جورجينا» ذهب ليبيت أسفل نافذته. تعيش «جورجينا» على بعد دقائق من «توماس» في مخزن قديم تحول إلى منزل أصيل، تزين جدرانه صور القديسين، والقماش المطرز على أثاثه، وستارة تفصل الفراش عن بقية ما في المكان، وزيارات الأحفاد في المناسبات. ليس لديها مطبخ، ولكن «جورجينا» تنفق أغلب اليوم في مطبخ «توماس». في السابق لم يكن لدى «جورجينا» حمام، ولم يسبق لها أن عاشت في منزل به حمام. هناك غرفة مبنية فوق مجرى ماء، كانت هي حمامها، بجدرانها المصنوعة من البامبو، وسقف من القش، ومن دون أرضية، فمجرى الماء هو الأرضية. لم يجد «توماس» غرابة كبيرة في ذلك، فقد رأى ما هو أسوأ، ولكنه بنى حماماً لـ«جورجينا»، وكانت ممتنة لدرجة أن الدموع انسابت من عينيها. وفي عمر الستين أمكنها أن تأخذ حماماً ساخناً لأول مرة في حياتها.

في ذلك الصباح أعدت القهوة الحلوة كما تفعل كل نهار، وجهزت المائدة لـ«توماس» كما تفعل كل نهار: كوبًا نظيفًا، إبريق قهوة، ابريق اللبن ، طبق الزبدة، وخبز الذرة. وراقبته بينما يجلس، فأدركت أن به شيئًا متغيرًا ، ربما

هو مريض، ربما الصداع، أو هو كابوس انتابه. شرب بعض القهوة من دون حليب، ثم أشعل سيجارة ودخنها في تمهل، ونهض، وارتدى حذاءه، وخرج.

ربما يتقدم العمر بـ«توماس»، وربما وصل إلى تلك النقطة التي ينظر من عندها إلى كل شيء فيعتبره من الماضي.

كل شيء.

أو أغلب الأشياء.

ربما كانت «إدواردا» مدركة بقدر أكبر مما تظن العين، وأنها تدرك مثلا سبب حرص «جواو ميغيل» الشديد على دروس التنس. هذا ما خطر لـ«ماريا إنيس» حينما سألتها سؤالا بنبرة صوت عادية، وهي تقلب صفحات المجلة وتنظر في شرود بين الحين والآخر إلى المناظر خارج السيارة" هل ستنفصلان أنت وأبي حينما نعود؟".

لم تندهش «ماريا إنيس». شاهدت على جانب الطريق كلباً صرعته سيارة، بطنه سوداء بدماء متخثرة، وأحشاؤه بارزة، وفكرت أن على أحد أن يدفن هذا الحيوان.

أجابت بهدوء: "أجل، ربما".

تنهدت «إدواردا» وهي تغلق المجلة.

ـــ"تعرفين، هذا لا يبعث في هذا القدر من الحزن".

ـــ"غريب. لا أعتقد أنكما قد حظيتما بحياة طيبة معا. وبالطبع هناك علاقات أشد سوءاً من هذا بكثير. أعني أنكما لا تتشاجران أو تتصايحان. ولكن هذا لا يكفي، أليس كذلك؟".

كررت «ماريا إنيس» ببساطة: "ربما سننفصل. أنا لا أعلم بعد. لا أعرف رأي «جواو ميغيل» في كل هذا".

ثم عادت تفكر مجدداً، وبوضوح، في «توماس».

الفصل الثامن
الساعة الآن التاسعة (حسب التوقيت الصيفي البرازيلي)

بقيت رواية "الموت في فينيسيا" في مكانها، ولم تعرف عنها «كلاريس» شيئاً سوى الوصف الاستهلالي لها. هي الآن تتذكر بطاقة بريدية أرسلتها إليها «ماريا إنيس» من فينيسيا عام – ألف وتسعمائة وثمانين.. اثنين وثمانين.. لم تعد التواريخ على هذا القدر من الأهمية (تماما مثل: "الموت في فينيسيا"). وكذلك لم تعد بطاقة البريد مهمة، فربما تخلصت منها «كلاريس» ومعها العديد من الأشياء التي كانت تتخلص منها دوماً.

هناك شخص على الطريق، رجل، بدا مثل «توماس»، لابد أنه «توماس». هناك الجنادب تتقافز في الحقول. تذكرت «كلاريس» تلك الحكاية، وكيف وهي طفلة ارتبطت بشدة بالنملة، وكيف استطاعت اليوم أن ترتبط بالجندب. ليأتي الشتاء، ولتموت من الجوع إن كان هذا محتماً. ولكن استمتع أولا بهذا الصيف الوليد، وغَنِّ بإخلاص الجنادب والمجانين.

شمس الثامنة صباحا (التاسعة حسب التوقيت الصيفي البرازيلي) تغمر التل. وعلى الجانب الآخر منه لا يزال يقبع منزل «إلتون خافيير» (حيث الغرف العديدة ولكل غرفة اسم) وأمه الأرملة: هو الآن رجل البيت، السلطة. في الأسبوع الماضي، مرت «كلاريس» عليه، وحيت «روسيانا»، الزوجة الثانية والأخيرة، التي كانت تسير في الطريق ومعها ابنتها الصغيرة. لاحظت أنهم يجددون طلاء المنزل: نفس الألوان الأصلية. وفيما بعد سمعت أن جماعة من الباحثين الجامعيين يحضرون كتابا عن مزارع البن منذ حقبة الاستعمار في

تلك المنطقة وأنهم سيصورون أملاك «إلتون خافيير»، بالرغم من أنه لم يعد هناك أية مزرعة بن في المكان.

سمعت «كلاريس» صوت أدراج تفتح وتغلق، ربما هي «فاطمة» تتخلص من الأشياء التي ينبغي التخلص منها والتي تتناثر حينما لا يكون اليوم يوم تنظيف.

أمضت بقية الليل تفكر في زواجها من «إلتون خافيير»، حتى ولو لم يكن يعني شيئاً ذا بال بالنسبة لها، وربما لهذا السبب بالذات. حينما حضرت «فاطمة» لتنظيف المنزل، في الصباح الباكر، وجدت «كلاريس» في الحديقة، نظراتها شاردة في البعيد، وتلتقط أوراق شجرة لندنية.

"اليوم هو اليوم الكبير"، تخيلت أن «كلاريس» سعيدة لمجيء أختها، بعد كل هذه السنوات.

شعر «فاطمة» مصفف على هيئة ضفائر عديدة، يستغرق صنعها ثماني ساعات، وهي تصفيفة غالية الثمن ولكن مصففة شعر صديقتها صنعتها لها بالمجان. ترتدي ملابس العمل: سروالاً قطنيًا سميكـًا قصيرًا يكشف عن ساقين داكنتين قويتين تفتقران إلى العناية اللازمة. وخف هافانا أزرق يكشف عن أظافر مطلية بالأحمر، وهو نفس اللون الذي طلت به أظافر يديها ــ أصابعها قصيرة مدكوكة ــ وتي شيرت قطنيًا واسعًا ، كان في الماضي وقبل كل هذه البقع رمادي اللون، وعلى صدره كتبت كلمتا: بوسطن، ماساشوسيتس. وبالطبع لم تكن «فاطمة» تعلم أن هذه إشارة إلى مكان ، مكان ما في العالم، وأن فيه نساء (ربما أغنى قليلا) تنظفن منازلهن أيضا وينتظرن وصول أخواتهم بينما يلتقطن أوراق الشجر الجافة المتساقطة.

ابتسمت «كلاريس» وأزاحت خصلة شعر كانت تغطي عينيها إلى ما وراء أذنها. لم تكن ترتدي نفس التي شيرت الأبيض الواسع القديم الملطخ بالطين، ولكن فستاناً أزرق داكناً تزينه أزهار زرقاء فاتحة يجعلها تبدو مرتاحة هادئة الأعصاب. وبقدر ما كانت «فاطمة» تقاوم إغراء أن تجلس لدقيقة، في الحديقة، على صخرة، وأن تتحدث معها حول عديد من أشياء لم يتحدثا عنها، وعن صور الصمت التي صاغتها «كلاريس» بكل هذا الاقتدار: الصمت، النظيف، المزهر، الصادق. ولكن عليها عملاً لابد من إنجازه. الكثير من العمل؛ أن يكون المنزل نظيفاً جميلاً، حتى لا تدير «ماريا إنيس» وابنتها ظهرهما للماضي وللطبيعة التي تسيطر بقبضتها القاسية على كل شيء. ترغب «فاطمة» في تخليص المنزل من كل العناكب، ومن ذلك العبق الذي سكن بعض الغرف والخزانات، وأن تلمع الخشب، وأن تزيل كل الحشرات الميتة من المصابيح والأباجورات، ومن الأركان التي تراكمت فيها، وأن تتخلص من النمل ومساكنه، وأن تغمر الحمام والمطبخ بالمنظفات والمطهرات، وأن تعيد للنوافذ شفافيتها ورونقها الذي كان يجعلها بالكاد ملحوظة. على الكلام أن ينتظر، حتى وإن كان محض خيال.

«ماريا إنيس» في الطريق الآن. اندهشت «كلاريس» حينما انتبهت لنفسها وهي تحاول تخمين نوع السيارة التي ستأتي بها. خمنت وخمنت، حتى قررت في النهاية أنها سيارة مستوردة جديدة فاخرة، أوتوماتيكية، بنوافذ كهربائية وتحكم في الأبواب، ووسائد الهواء، وكل الإضافات التي لا تعرف عنها شيئاً. عندها شعرت بالحرج من تفاهة عقلها وبحثت عن طرف عاطفة قد تجعلها سعيدة لمجيء أختها، سعيدة مثل أي أخت تكون سعيدة لعودة أختها، والتلاقي بعد كل هذه السنين. أشياء سهلة، بها سطحية صريحة، واضحة، مرئية، مسموعة، ملموسة، أشياء تحمل و. شمس الظهيرة، ووضوح اخضرار الشجيرات، ونقاء شدو السيكاداس الواقفات على جذوع الشجر.

توارى الرجل الشبيه بـ«توماس» عن الأنظار عند منعطف في الطريق السريع.

شمس يناير حارقة، حتى عند الثامنة (التاسعة حسب التوقيت الصيفي البرازيلي)، وآلمت بشرة «كلاريس» حينما خرجت من ظلال الأشجار التي كانت تحميها. لحسن الحظ أنها موجودة في كل مكان حول المنزل، بعضها نما وبسلاسة مدهشة من مجرد بذرة حتى أضحى شجرة مكتملة يانعة الأوراق. كانت اشبه بأرواح ترعى «كلاريس»، وتمدها بالظلال، وترقب عزلتها بكل حب.. تحميها.

كل ما عليها الآن هو أن تنتظر. أن يأتي لها الزمن (الذي توقف) بـ«ماريا إنيس» (التي ستمر عليها): تنتظم أفكارها بالطريقة التي تضمن لها اتزانها الذي تبتغيه امرأة تقدم بها العمر – غفرت للحياة ونسيت الفوارق بين ما هومُجدٍ وبين ما لا معنى له.

هيمن الشيب على شعرها فطردته بالحناء الهندية. لقد هرمت، مؤكد أن هذا ما ستدركه «ماريا إنيس». تمضي الوقت في انتظار أن ينتهي دورها في هذه المسرحية. لقد حققت الأشياء الضرورية، وقطعت كل الخطوات، وكل الألم والمعاناة. ميراثها: ندبتان متطابقتان على معصميها، وتشكيلة فوضوية من الذكريات العنيفة.

الثامنة والأربعون.. ليس مثل أي عمر آخر، إنه يتطلب الصمت. انحفر عمر «كلاريس» على قلبها مثل رقم على بطاقة هوية، أو مثل رقم سجين في دفاتر السجن. هي الرقم والرقم هي: ثمانية وأربعون.

بعد شهر سيحل فبراير؛ شهر الكرنفال والشهر الذي ولدت فيه. التاسعة والأربعون. فهل سيتسنى لها أن ترتجل المزيد من الوقت للتمثيل، وتأدية دورها

في المسرحية؟ هل سيتسنى لها أن تعاود ابتكار نفسها في الصيف؟ لقد نجحت وهي في الثامنة والأربعين في أن تبدد عملياً كل التوقعات والآمال، أن تنكمش، أن تدخل في سبات. وهي حالة تقتضي بالضرورة، ولأسباب واضحة، عدم وجود «ماريا إنيس».

سوف تأتي «ماريا إنيس». لماذا؟ ما الغرض؟

ربما تريد التحقق من أن شجرة المال تنمو. وليس هذا بسبب المال، طبعا.

بدأت الأحرف المكتوبة على الصفحات الجميلة للورق الذي يحمل اسمها (هدية «إلتون خافيير») تتسع حتى حدود الإصرار. لابد لها من إقرار الحقيقة (أمنا تحتضر، تعالي بسرعة)، ولكن إلى الحد الذي تسمح به الرقابة التي غلفت لها كلماتها مثل الكبسولات (أو مثل خف صوفي صغير يحمي القدمين الشاحبتين من برد الصباح)، كانت «كلاريس» مصرة.. مصرة للغاية.

"أعتقد أن علي الذهاب إلى هناك"، قالت «ماريا إنيس» لـ«توماس»، بينما ترسم هلالاً بسبابتها الرفيعة على ظهره النحيف.

بدأت ترتدي ملابسها، ولكنها سرعان ما عادت ترقد ثانيةً في الفراش جواره. أشعل «توماس» عود بخور (باتشولي) وكان يأكل قطعة شوكولاتة بينما يرسم فيلاً صغيراً بقلم جاف في كراسة.

يرتدي خاتماً فضياً في يمناه. هدية من «ماريا إنيس»، اختارها هو بنفسه لتدل على سلسلة من المعاني.

استدارت نحوه، فأخذ يراقب حركة نهديها الصغيرين على إيقاع تنفسها، موجات محيط صغير في صباح بحار هادئة. حبه لها يعتمل في صدره. ترتدي «ماريا إنيس» الكثير من السلاسل والعقود والأساور والخواتم، وكأنها ترغب في تقليد الهيبيز. كانا يستمعان إلى «موتانتيس». واستقر عقب مصفر لسيجارة مخدرة في صحن صغير – تلك الأشياء التافهة الصغيرة.

ـــ"بالطبع عليك الذهاب، فهي أمك".

ـــ"أنا لم أحبها"، تعلم أن هذه الكلمات زائفة، وأنها تكاد تقترب من الحقيقة وكذلك هي أبعد ما يكون عنها.

ـــ"لكنها بحاجة إليكِ.. إنها مريضة.. لا تكوني أنانية".

نبرة صوته أشبه بذلك اللطف القسري الذي يميز صوت معلمي الابتدائي، المرهقين والمتذمرين من ضعف الأجر. وهو ما أغضب «ماريا إنيس».

ـــ"لا تتحدث إلي بهذه الطريقة".

ولكن «توماس» كان رقيقاً، فابتسم وأمسك بيدها ليقبل سبابتها التي قرضت أظفرها.

شهر أكتوبر. «كلاريس» تحتفل مع «إلتون خافيير» بعيد زواجهما: أربعة أعوام. هناك شيء من الحزن وخيبة الأمل، فلم يكن هناك ولي عهد في الطريق.

يتناولان الغداء مع والديها أيام السبت. ومع ازدياد ضعف وتعب «أوتاسيليا»، وسوء حالتها أكثر، اقتصر هذا الغداء على مرة أو مرتين في الشهر.

طال مكوث «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو» في منزلهما، حتى صارا قطعتين من أثاثه، لدرجة أن أحداً لم يعد يصدق أنهما قد يموتان ذات يوم، بالرغم من مرض «أوتاسيليا» الذي لا اسم له، وبالرغم مما تتعاطاه من مقويات وفيتامينات. بدا طبيعياً أن يتوقع المرء مرور السنوات، ثم العقود، ثم القرون، من دون أن تتغير «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو» كثيراً ، ربما سيكتسبان فقط ذلك اللون النحاسي الخشبي، أو طبقة الإهمال الرمادية المغبرة. ولكنهما سيبقيان، يتنفسان بالكاد، ويستهلكان القليل جدا من الهواء والطعام، من دون نوم أو ابتسامات. ستبذل «أوتاسيليا» جهدها لتستمع إلى شدو الطيور الذي لا جديد فيه برغم كل شيء. وسيحدق «أفونسو أوليمبيو»، من دون شهية، في مائدة الإفطار، ثم يطرقع أصابعه العظمية.

سيكونان أشبه بعدوين تمكنا، في نهاية حياتهما، من التصالح والاستسلام لتعاستهما.

تبقى الحقيقة هي أن «أوتاسيليا» تحتضر وهي تعلم هذا. تحتضر بسرعة.

تظهر أورام على جلدها، مثل جراح صغيرة (تذكرها بزمن أن كانت طفلة تركض في باحة المنزل وتلحق بنفسها الكثير من السحجات). تختنق أحياناً وتحاول التنفس بصعوبة، وتتوقف الكلمات في حلقها، فيزيد هذا من عمق

صمتها، ويكسبه وحشية. إنه صمت يستغل عبارتين مقلوبتين ليعبر باستمرار عن تلك الدائرة الكاملة: لومي نفسك، لوميه هو.

هو«أفونسو أوليمبيو»، زوجها ووالد ابنتيها. هي. كلاهما يستحق هذا، الذنب، حتى بعدما تغير الواقع واتخذ مسارات مرضية. لأن الأمور التي استقرت وسكنت كانت مثل البراكين، ولا يمكن لـ«أوتاسيليا» ولا لزوجها، أو ابنتيها توقع أن الأمور قد استقرت بالفعل. ففي بطن الأرض تغلي الحمم مستعصية على الهضم.

أنها تعلم.

كذلك «ماريا إنيس» تعلم. بعينيها الملتهبتين وحريتها الجنسية مع صديقها «توماس»، الذي يقول لها الآن:

ــ"أرى أن عليك الذهاب. أمك بحاجة إليك".

تحكمت في نفسها ولم تجبه بما تريد: "كنت بحاجة إليها، وكانت أختي بحاجة إليها، فما الفارق؟".

تلك أمور لا يمكن البوح بها، وسيفهمها «توماس» في المستقبل.

ستذهب «ماريا إنيس». في الجمعة التالية. لتكون شاهدة على وفاة «أوتاسيليا». ترقبها وهي تموت.

في المطبخ، كانت «كلاريس»، بخاتم زواجها الذهبي اللامع، تعد بسكويت شطائر الكاسادينيوس كما تعلمتها من العمة «بيرينيسي»: *3 أكواب دقيق. 2 كوب سكر. 6 صفار بيض. 3 بياض بيض. ملعقة بيكنغ باودر.* تذكرت «لينا» لثوان في البداية ولكن الذكرى خفتت بعد ذلك. *اضربي بياض البيض حتى يجمد، ثم أضيفي الصفار والسكر، وأخفقي جيدا وأضيفي الدقيق مع البيكنغ باودر.*

وصلت سيارة أجرة مع نضوج الكاسادينيوس. لا يزال عليها أن تضيف الحشو ثم تضعه في الثلاجة، ولكن لا بأس، لهذا أن ينتظر، فالأهم هو استقبال التاكسي وراكبته القادمة من محطة حافلات جابوتيكابايس ، محطة صغيرة رمادية تتسع لحافلتين وحمامات عمومية صنعت من الورق المقوى والكرتون الذي استقبل العديد من الرسوم والكتابات من الداخل، مونيكا وفابيو، أليكساندرا وأدريانو، المسيح هو الحل، إلخ. كما توجد حانة يقبع بها ثلة من السكارى غير الخطرين، ومن حولها نصف دزينة من الكلاب التي تحوم في انتظار عظمة من هنا أو من هناك. وهناك كشك الصحف. عمد العمدة الجديد إلى تسوير محطة الحافلات بأشجار الجهنمية ذات الألوان الخمري: والوردي والأصفر، مما جعل المنظر مريحاً نوعاً ما.

خرجت «ماريا إنيس» من محطة الحافلات في مزاج متعكر، ولكنها كانت أحسن مزاجاً حينما ترجلت من التاكسي وهي تخرج من حقيبتها "الهيبيز" الصغيرة كيس نقود "هيبيز" (مصنوعًا في الهند)، ومنه أخرجت أجرة السائق. كانت قد بدأت تعطي دروسا خصوصية في العلوم للتلاميذ الأطفال الصغار: وهذا هو مالها الذي دفعت منه أجرة السائق. والبقشيش.

لوحت لها «كلاريس» سعيدة، وبعدها قدمت لها اعتذارها الذي اعتادت أن تقدمه حتى ولو لم يكن هناك أي داع له: «إلتون خافيير» في المنزل، وهو ينتظر

طبيبا بيطريا سيقوم بتحصين الماشية. فقررت أن آتي وأنتظرك هنا وكذلك أخبز بعض البسكويت. أمي نائمة.

لم تأتِ على ذكر «أفونسو أولمبيو». تبادلتا الأحضان بشوق تعجز الكلمات عن التعبير عنه. أحضان تقول الكثير والكثير. للأسف.

كانت «ماريا إنيس» تود أن تؤكد لنفسها أن الحياة هناك منحصرة فيما هو باد على السطح، ولكن لا.

ـــ"كيف حالها؟".

ـــ" سَيِّئ".

ـــ"ووالدنا؟".

ـــ"إنه بالجوار، يعمل كالمعتاد، وتقول الخادمات إنه يكثر من الشراب".

ـــ"هل خرج؟".

أومأت «كلاريس» برأسها وهي تنقل دبلة الزواج إلى الإصبع الوسطى ثم إلى السبابة، فوجدتها ضيقة جدا في هذا الإصبع.

ـــ"مبكرا هذا الصباح. اجتماع الجمعية التعاونية".

وضعت «ماريا إنيس» حقيبتها ومتعلقاتها "الهيبيز" في غرفة نومها. لاحظت «كلاريس» هذا الكم من الخواتم والأقراط والسلاسل والأساور. كما لاحظت صندلها الجلدي البسيط الذي بدا مريحا، ثم توجهتا إلى المطبخ، لتنهيا عمل الكاسادينيوس، ولتشربا بعض الغوارانا.

كانت «أوتاسيليا» مستيقظة حينما انفتح باب غرفتها بعد نصف الساعة ودلفت ابنتاها من دون أي صوت تقريبا، في خفة الجنيات. الساعة تجاوزت الثالثة وأكتوبر يكسب الظهيرة بعض البرودة، التي لا يقطعها سوى فترات قصيرة من المطر الخفيف. وخارج النافذة المغلقة، أعلنت البذور انتصارها ونمت البراعم بإصرار، وماتت فراشات زاهية الألوان وحملها النمل.

رائحة الغرفة شاي بالنعناع. «أوتاسيليا» تنتظر في استسلام، بعينين مفتوحتين (أزرق زبرجدي بلمعان مبهر، كأنه حمى)، تحدق في السقف المتعرج. لم تلحظ البنتين أن وعيها قد فارق جسدها للحظات واستقر عند السقف، وتركها خامًا خاوية مثل وليد جاء للدنيا للتو، ثم عاد إليها.

بدأت المعركة الأخيرة في حرب الصمت الطويلة.

التقطت «ماريا إنيس» يدي «أوتاسيليا» في يديها وشاهدت ظل الموت مثل قبلة محب على بشرتها التي اكتست ببقع داكنة عديدة. «أوتاسيليا» في السادسة والخمسين، ولكن رياضيات الزمن عكست هذا الرقم بمعادلة لا تعرفها سوى الطبيعة.

فوق الفراش المزدوج المصنوع من خشب الجاكاراندا صليب خشبي. ولوحة زيتية تصور صبيًا وكلبًا صغيرًا. هناك سحلية خلفها، تقتات ليلاً على الناموس وغيره من الحشرات.

عبرت «أوتاسيليا» عن رغبتها في أن تأخذ حماماً وتعدل من حالها قليلا، مثل المحكوم عليه الذي من حقه أن يختار طعام وجبته الأخيرة، فيطلب كل الملذات مع نبيذ طيب وفنجان قهوة أصيل وشراب مستورد. ساعدتها «ماريا إنيس» و«كلاريس» لتمشي حتى الحمام، وخلعتا عنها ملابسها. جسدها نحيف لدرجة تخيف، وعضلاتها ضمرت من ندرة الاستخدام. ثدياها صغيران. ورثت

«ماريا إنيس» نفس الثديين (وليست «كلاريس»). لا يوجد بجسد «أوتاسيليا» آثار قيصرية، أو آثار عملية الزائدة، أو آثار اكتئاب (على المعصمين، بسكين أولفا). ولكن جلدها ممتلئ بتورمات أدهشت «ماريا إنيس».

أجلستاها على الدكة البلاستيكية التي صارت الآن بديل حوض الاستحمام، فلم تعد «أوتاسيليا» قادرة على أن تأخذ حمامها بنفسها، ولا أن تقف لفترة طويلة. وحينما انساب الماء الدافئ على شعرها الأشيب الخفيف، هربت «أوتاسيليا» من جسدها للمرة الثانية. وهذه المرة استمر الهروب فترة أطول، وكانت موقنة بأنها الآن في ساو لورينزو، حيث أمضت شهر العسل وقت أن كانت تؤمن بالكثير من الأشياء، بما في ذلك ذاتها. وابتسمت ابتسامة سعادة (نبيذ طيب، وفنجان قهوة أصيل).

تعمدت «ماريا إنيس» و«كلاريس» ألا تنظرا إلى بعضهما أثناء طقوس هذا الاستحمام، ولكنهما تبادلتا جملاً زائفة، من قبيل: "أراهنك أن ذلك البسكويت سيكون طيب الطعم".

ـــ"إنها وصفة ممتازة تعلمتها من العمة «بيرينيسي» وقت أن كنت أعيش هناك".

ـــ"أوه".

ـــ"أعتقد أني سأذهب لعمل الشاي أم الكاكاو الساخن، ما رأيك؟".

ـــ"رائع. لنقم بإعداد واحدة من جلسات شاي المساء بالمزرعة. سأصنع عصيراً ولفائف صغيرة".

ثم بدأت «كلاريس» تعدد: "لدينا العسل، جيلي الجوافة، الزبدة. والكاساديניوس بالطبع. وكعكة بيضاء مرشوشة بالسكر صنعتها «ناركيسا» أمس".

ــ"سنجلس جميعنا إلى المائدة".

ــ"ننتظر والدنا".

ــ"ننتظر والدنا".

ــ"سعداء".

ــ"سعداء".

ــ"رائحتنا حلوة".

ــ"رائحتنا حلوة".

ــ"شعرنا مصفف".

ــ"شعرنا مصفف".

وكأنهما تتحدثان إلى طفلة، ولكن لا فارق هناك، لأن «أوتاسيليا» لم تعد تسمع.

شيء بالغ السرية والشر ينسل من الحمام مثل روح، وغادر الحمام مثل روح الروح.

لم تكن سيارة مستوردة تلك التي جلبت «ماريا إنيس» و«إدواردا»، ولكن بها تكييفـًا، لا وسائد هوائية أو نوافذ كهربائية، بها مشغل أسطوانات حتى تسمع «ماريا إنيس» بـ«برناردو أغواس» وهو يغني مونتيفيردي، أو لتسمع الموسيقى التصويرية لفيلم "غود ويل هنتنغ"؛ الأسطوانة التي استعارتها من «إدواردا».

صعدنا في الجبل ووصلنا إلى فريبرغو وقد توقفت آذانهما عن السماع. لقنت «ماريا إنيس» ابنتها الطريقة التي تمنع بها هذا: أغلقي أنفك بيدك ثم انفخي بكل قوة.

أطاعتها «إدواردا» وصارت ساخطة من جديد: "لا طائل من وراء ذلك، إنه يزيد من انسداد أذنيّ!".

ــ"ابلعي ريقك الآن".

ابتلعت «إدواردا» ريقها مرة، مرتين. لم ينجح هذا، من الأفضل أن تتثاءب، وتثاءبت عدة مرات. أخيراً انفتحت أذنها اليسرى، ولكن اليمنى بقيت مسدودة.

تحدثنا قليلا طوال بقية الرحلة. تجاهلت السيارة لافتات السرعة العديدة التي كانت خارج مخرج فريبرغو. وإلى اليسار، على حافة الطريق، عند ضفاف النهر المتدفق هناك متواضعا وغير نظيف، كانت هناك شاحنات متوقفة تبيع البطيخ والبرتقال واليوسفي. وإلى اليمين متاجر أثاث، ومحال تصليح إطارات داكنة اللون وقبيحة، ومخابز، وبناء هائل حديث، لم يكن موجوداً وقت آخر رحلة لـ«ماريا إنيس»على هذا الطريق، منذ عشر سنوات.

بعد فريبرغو لم يعد هناك الكثير من الهواء الجبلي البارد، ولكن «ماريا إنيس» و«إدواردا» لن تعلما هذا، فالتكييف يعمل بكفاءة. كانت السيارة نموذج صغير متحرك للمناخ الأوروبي يتحرك عبر ريف ولاية ريو دي جانيرو في منتصف صيف تلك الولاية.

انفتحت أذن «إدواردا» اليمنى بغتة.

"أوه، أخيراً!".

ثم انسحبت في ذاتها من جديد. لتصنع حلما أو لتتذكره، لتحاول توحيد العالم، لترغب في أن تكون الأشياء مختلفة تماماً، لتشعر في فمها بمذاق البطيخ، والبرتقال، واليوسفي الذي لم تأكله، لتسمع الموسيقى وتتذكر فيلمها، وكانت تحب ذاك الفيلم، لكي تكون «إدواردا»، من دون شعور بالذنب لكونها «إدواردا»، حياة صغيرة متحركة. ولتغذي الشك الذي يعتمل في جسدها وينمو، يصيبها بالتوتر، وكأنها مضطرة لأن تقرأ مقالاً بصوت عال.

تناولت «أوتاسيليا» الشاي مع ابنتيها.

ألقت تحية المساء على زوجها، حينما وصل، وسألته عن اجتماع التعاونية، ولكنه ما إن أجابها حتى نسيت هي ما كانت تسأل عنه.

وضعت قطرتين من عطرها المفضل، شانيل نمبر فايف، خلف كل أذن، قبل أن ترقد لتستريح مجدداً.

حينما تغلغلت تلك السكينة غير المسبوقة غرفتها، التي ينيرها مصباح ضعيف، كانت تدرك أنها تحتضر.

سمعت ابنتيها تتحدثان، في الغرفة المجاورة، غرفة نوم «ماريا إنيس»، ثم ضعف الصوت الذي تسمعه، وشعرت بدوار جعلها تفكر في سفينة في البحار العالية يتلاعب بها إعصار. ثم ذهب الدوار، وفتحت عينيها، وابتسمت، وذلك حينما أدركت أن الأمر غاية في البساطة.

الفصل التاسع
وقت إضافي

هرعت العمة «بيرينيسي» من ريو دي جانيرو لحضور جنازة «أوتاسيليا» وهي تشعر بعدم ارتياح: فكيف تموت ابنة الأخت قبل خالتها. غريب أن تعكس الأجيال المنطق بهذا الشكل، وتضرب بالنظام عرض الحائط. وهو أمر ممكن الحدوث بطرق عدة.

لم تتصل «ماريا إنيس» بـ«توماس» وتعرفه بوفاة والدتها إلا بعد انتهاء الجنازة.

اشتكى ولامها: "كان من اللازم أن تخبريني أمس! كنت سأحضر".

قاطعته وأخبرته بأن هذا لم يكن ضروريًا.

لم يكن ضرورياً؛ فقد كان «جواو ميغيل» موجوداً، ابن عمها وعيناه الحمراوان المخلصتان، حضر ومعه الأزهار، ولكن الظروف منعته من إحضار الشوكولاتة.

في مدافن جابوتيكابايس الصغيرة، راقب «أفونسو أوليمبيو» العالم يدور من فوق رأسه، داخل رأسه. دوائر عميقة في بشرة وجهه الداكنة، وهناك خطان عميقان يؤطران فمه، شعره أشعث يرتدى بدلته الداكنة من دون اهتمام، على الرغم من أنها بدت في مناسبات أخرى جيدة عليه، بدلته الصوفية الخفيفة التي خيطت خصيصا له. وقفت «ماريا إنيس» ثابتة إلى جانبه، في تحد. لم تبكي.

بينما بكت «كلاريس» كثيرا في أحضان «إلتون خافيير»، وهما واقفان في نقطة متوارية قليلا.

هو «أفونسو أوليمبيو»، الزوج، الأرمل. الأب.

كان يثمل. أدركت «ماريا إنيس» هذا وكذلك «كلاريس». هو، «أفونسو أوليمبيو»، الذي كان يوما ما محل حب مخلص صادق. واقف الآن إلى جوار ابنتيه العدوتين يدفن زوجته العدوة.

وحينما عاد إلى المنزل مع نهاية الظهيرة، وهو يقود سيارته "الرورال ويلز" التي يعتني بها جيدا، لاحظ أن السماء تَدْمَى. هناك مسبحة خشبية تتدلى من المرآة، والصليب الصغير يتحرك مع إيقاع رجرجة السيارة فوق الطريق الترابي، فوق المطبات والأخاديد التي نحتها المطر والحجارة والحصى.

دار المفتاح في القفل بحميمة، بعد سنوات عديدة من زواج من دون اضطرابات. ولكن داخل المنزل كان هناك ساكن جديد: ذلك الصمت المؤرق الذي وصل مع أمتعته، ومن دون استئذان، بعد أن قرر البقاء.

دخل «أفونسو أوليمبيو» دائرة العذاب. دخل كل غرفة، وكأنه ذئب شكاك يبحث عن الفخاخ، شحذ حاسة الشم لديه فالتقط نفحة من عطر «أوتاسيليا»، شاء القدر أن تمكث بعدها ولفترة طويلة. لم يشعل الأضواء، بل ذهب الى الحمام، وتبول وغسل يديه ووجهه وسط الظلام، شعر أنه مثل صحراء مسحت الرياح أرضها الرملية البيضاء، عقيم، خاوٍ. أخرج من خزانة المطبخ الكبيرة (خشبية مطلية بزهور تتسلق حواف الألواح الزجاجية وتلتف حول الدرج) كوباً، ثم ذهب إلى ذلك المكمن في غرفة المعيشة حيث يحتفظ، بعد القفل والمفتاح، ببعض زجاجات الخمور.

تناول الويسكي، والكاشاكا. أفضل كاشاكا بيتي من ميناس جيرايس، يأتون به من بارباسينا. ملأ الكوب واستعد لمواجهة الليل.

لديه إحساس بأن شخصاً غيره، دوبلير، يجلس إلى المائدة ليتناول حساء الخضراوات الذي أعدته «ناركيسا»، والذي يضيف إليه الجبن الأصفر ثم يتناوله مع الخبز والزبدة، وجرعات من الكاشاكا. لاحظت «ناركيسا» أنه سكران، ولكنه لم يهتم.

ومنذ متى وهو يهتم؟ وإذا كان الآن بائسا مهجورا، فإن هذا وببساطة لأن الأمور لم تكن كما كانت عليه منذ عشرة أو اثني عشر عاما. كانت «أوتاسيليا» عدوته وشريكته. منذ عشرة أو اثني عشر عاما. وكان «أفونسو أوليمبيو» سعيداً ولم يكن هرماً؛ ويعرف كيف يعالج ما يفرضه عليه العمر. يعرف كيف يبحث عن الشباب في نافورة الشباب.

واعتقد في نفس الوقت أنها ما كانت لتهتم لو أن «أوتاسيليا»، الشريكة والعدوة، قد فعلت ما ينبغي عليها أن تفعله، ولكنها فضلت أن تحميه مثل تذكار عطن في قلبها.

بدأ كل شيء مع «أوتاسيليا» وانتهى كل شيء معها. كانت الناقد الأخرس والمحرض البغيض، اليد التي لا تضرب ولا تداعب، ولكن تبقى خاملة مع مرور الزمن وبطريقة لا غنى عنها بقدر ما هي مثيرة للقلق.

كانت «أوتاسيليا» الحياة والموت، السماح والرفض. وبقيت الكلمات التي لم يتبادلاها طيلة عشرة دامت ثمانية وعشرين عاما معلقة في غرفة المعيشة تكثر، صامتة، مستحيلة، مقلوبة، على استعداد لأن تعيش للأبد.

نفس الكلمات التي أحست «كلاريس» أنها قادرة على أن تسمعها، حتى بعد كل شيء.

انتهى الحال بذكرى «أوتاسيليا» إلى أن صارت، بالنسبة لـ«أفونسو أوليمبيو»، نسخة أشد مرارة وحضوراً من «أوتاسيليا» ذاتها. وكأنها كلب شبه جائع قابع عند المائدة، ويجبره، بعينين كاللغز (بلون أزرق زبرجدي)، على أن ينظر إليه في عينيه.

لم يستسغ الطعام، ولكنه تناوله على أية حال. فليس لديه من خيار آخر ؛ فجميع الخيارات معلقة في الماضي. لو نظر خلفه لأمكنه أن يراها وهي تبتعد، تخفت، تكاد تنغمس في الظلال. خطر له خاطر، بغتة، فنطقه بصوت عال: في أي مسطح تقبع الأشياء التي لم نفعلها؟ ما كان يمكننا أن نفعلها، ولكننا لم نفعلها؟

لاحظ وجود كل تلك الأمور ولكنه غير متيقن من أنه يحبها. هي مثل طفل مجهول يظهر لك يوما ما، وهو في عمر العشرين، وقد نبتت له لحية، ويضع في محفظته رخصة قيادة.

لم يكن هناك أي ندم في نفس «أفونسو أوليمبيو»، كما لم تكن لديه قناعة دائمة تجاه الطريقة التي تصرف بها. والآن، اخترق الصمت أذنيه واعتصر دماغه، وهربت الكلمات منه أكثر وأكثر. أحضر بنفسه قطعة كومبوت القرع العسلي، لكنه لم يمسها. وارتشف القهوة.

توجه ليجلس في الشرفة الأمامية، وبيده الشراب. توقفت السماء عن نزيفها، ولكن عتمة الليل الخالي من النجوم جعلته يتذكر الدم المتخثر.

وفي لمح البصر، فهم. أصابته القشعريرة. هناك بالفعل مسطح تقبع فيه كل الأمور التي لم يفعلها (مثل المال في حساب مصرفي). ما كان يمكنه أن يفعله، ما كان ينبغي أن يفعله. وفي ذاكرته صورة فتاة في الثانية عشرة نهداها ينموان مثل كمثرتين أسفل بلوزتها الرقيقة وهي تصيح.

بعد جنازة «أوتاسيليا» ومكالمتها السرية لـ«توماس»، طلبت «ماريا إنيس» من «جواو ميغيل» أن يصطحبها في جولة بسيارته.

ــ"لن أعود للمنزل الآن. ولا أدري إلى أين أذهب". ثم عقبت، ومن دون مرارة وبسلاسة رشفة الماء: "إنني لا أدري حتى أين منزلي. هل هو منزل العمة «بيرينيسي» في ريو دي جانيرو أم هو منزل والدي في المزرعة؟ هل منزل أختي، وزوجها وأمه وأبيه؟".

أخذا يجوبان جابوتيكابايس، وما هي إلا دقائق حتى كانا خارجها. لم تكن «ماريا إنيس» تبكي، ولم يفهم «جواو ميغيل» السبب.

«جواو ميغيل» لا يدري.

ــ"إلى أين تودين الذهاب؟".

ــ"لا أعرف". ولكنها تذكرت أن على مبعدة سبعة أميال يوجد طريق إلى اليمين، فطلبت منه التوجه إليه.

أطاعها ابن عمها وزوج المستقبل.

ثم سألته بحذر: "وأبوك؟".

ـــ"مسافر في عمل".

ـــ"كالمعتاد".

ـــ"كالمعتاد".

ـــ"ومتى سيعود؟".

ـــ"لا أدري... أسبوع أو عشرة أيام".

تطلعت إلى الطريق الذي شوه صفحته ضوء الغسق، فتذكرت «أفونسو أوليمبيو» فانحدرت في حلقها كرة نار قبل أن تنطفئ في معدتها.

انعطفت السيارة عند المكان الذي أشارت إليه.

ـــ"والآن؟".

ـــ"هناك جسر.. وبعد الجسر يتدفق النهر في بحيرة صغيرة جميلة".

لم تكن على كل هذا القدر من الجمال. فقد مرت أعوام منذ آخر مرة زارت فيها المكان، وتتذكرها وهي طفلة مثل جنة، ولكنها أدركت الآن أن ليس فيها ما يميزها. ترجلا من السيارة المتوقفة عند بستان بامبو ومشيا عبر ممشى منحدر. على البعد بدت بساتين البامبو مثل حشرات مشعرة هائلة الحجم، عناكب عملاقة. انزلقت قدم «جواو ميغيل»، وسقط، ثم جلس، ثم ضحكت «ماريا إنيس». أصاب الطين مؤخرة سرواله بكاملها. ثم وصلا إلى حافة البحيرة الطينية التي يتخذ ماؤها

لون العسل، الذي تحرقه أضواء ما بعد الظهيرة. نقيق الضفادع في كل مكان، وجماعة من البط متجمعة عند الضفة، على بعد خطوات.

تحلق اليعاسيب فوق صفحة الماء وزقزقة طيور الليل يختلط بشدو طيور النهار التي ربما قررت الالتحاق بوردية الليل. عمل لوقت إضافي.

قالت «ماريا إنيس»: "قديمًا كنت أمسك بالضفادع حتى أخيفك".

ـــ"والخنافس أيضاً". ولكنهما لم يبتسما مثل كبيرين يتذكران في شغف أيام الطفولة.

فتى وفتاة. في نفس العمر تقريبا. كان قد بلغ الثانية والعشرين للتو.

سرعان ما ستبلغ الحادية والعشرين. فتى وفتاة.

مع تضاعف الاحتمالات الشابة في قلبيهما، مثل القبلة التي لم تباغت «جواو ميغيل». وما تلاها من مداعبات جسدية لم تباغت «ماريا إنيس».

كانا يجلسان على صخرة صغيرة وسط مجموعة من الصخور الكبيرة. وهناك شجرة مانجو ضخمة تغطي على صورة السماء. والوطاويط تطير من شجرة لأخرى، بود، وسحر، مثل انطباع مبهم عن شخص ما أو مكان ما. تذكرت «ماريا إنيس» «توماس» وتلك الشقة الفوضوية التي تفوح منها رائحة الألوان، ورأت أن هذا أحد ممكنات الحرية الشابة: الحب: أن تستمتع وأن تمتع كل من تحب.

لم يسألها «جواو ميغيل» عمن يكون أول رجل في حياتها. أو عن عدد الرجال في حياتها. كانت «ماريا إنيس» ومازالت امرأة في الحادية والعشرين، ولم يكن يدري أي موقف يتخذ منها: إن كان بدافع الخوف أو الاحترام، إن كان

من فرط الإعجاب أو الشك أو الحب. ومع انغماسه فيها أدرك أن جسدها خبير. مرت الغيرة التي تغلغلت فيه مثل روح بتغيرات وهي تسري في شرايينه وتصل قلبه فتضحي عاطفة أشد ارتباكاً من مجرد الغيرة، أشد استحواذا، وربما أشد تدميرا ، ولكن لا سبيل له لأن يعرف، في تلك اللحظة.

ربما سيتمكنان من استشراف كل شيء في ذلك الزمان والمكان. فينيسيا.

مقهى فلوريان.. بـ«برناردو أغواس».. «إدواردا».. الشقة البيضاء في ألتو ليبلون.. مدرب التنس.. عشية الكريسماس. كل هذا الرخام. ولكنهما مجرد فتى وفتاة.

لم تخطط «ماريا إنيس» لهذا، واعتقد «جواو ميغيل» – وكان مخطئا – أنهما حينما مارسا الحب فوق تلك الصخرة غير المريحة عند البحيرة التي مياهها بلون العسل فإن هذا كان بسبب ما مرت به «ماريا إنيس» من اضطراب عاطفي بعد وفاة والدتها.

لم يسبب موت «أوتاسيليا» ارتباكا عاطفيا لـ«ماريا إنيس». أشياء أخرى، أجل. أشياء أخرى أسوأ من الموت.

كانت «ماريا إنيس» تجرب الحرية، من دون أن تدرك أن الحرية ليست على هذا النحو، تحديدا. تركت نفسها فوق صدر «جواو ميغيل» ذي العضلات والشعر الكثيف، على العكس من صدر «توماس». ظلا صامتين وانتظرا ظهور النجمات الأولى، ولكنها لم تظهر لأن السحب كانت تتجمع وتزداد. فكرت «ماريا إنيس» أن هذه الغمام أشبه بجرح هائل. وفجأة سألها «جواو ميغيل» السؤال غير المناسب إطلاقا، فقد أراد أن يعرف إن كان ما مارسه معها قد أمتعها ، وهو السؤال الذي لم يتفوه به «توماس» أبداً، لأن «توماس» يفضل أن

يستشعر هو ذلك بنفسه، وإن حدث واستشعر أنها لم تستمتع فإنه يقوم بما يلزم وبدقة فنان، ومشاعر شاعر.

لم ترغب «ماريا إنيس» في الإجابة، لأنها نفسها لم تعرفها، ربما نعم، ربما كانت جيدة. هي مختلفة، ولكنه كان رجلا مختلفا. لم تقل شيئا ولكن ببساطة ابتسمت ابتسامة مرتبكة بعض الشيء، وطبعت قبلتين على عينين «جواو ميغيل».

لم يلتقيا على هذا النحو ثانية إلا بعد عام، بسبب والده، والذي كان قد بدأ يكتسب لقب «فيكيو»، وقد أخبره أنه سيرسله إلى إيطاليا لفترة أطول.

دراسات عليا. على أن هاتين القبلتين على العينين حملتا من الوعود أكثر مما يظهره واقع الحال.

كانا مرتبطين دون أن يعرفا ذلك. بالوعود.

حينما وصلت «ماريا إنيس» أخيراً إلى منزلها (لم يكن منزلها)، كانت ساعة الجد على الحائط تشير إلى التاسعة وعشر دقائق. لم تكن هناك أنوار. كان «أفونسو أوليمبيو» في منزله مستيقظاً ثملاً، ومن عنده سمع أصداء خطواتها (عدوته الكبرى) تتردد عبر أرجاء المنزل مثل تهديد.

ارتفع صوت خطوات «ماريا إنيس» الآن. ولكن لم تكن هناك بذور سرو لتلتقطها.

في الصباح التالي، ارتدت ملابسها وحزمت حقيبتها لتسافر، قبل حتى أن تغادر غرفتها إلى الحمام لتغسل وجهها. توجهت إلى المائدة وحقيبتها على كتفها، ولكنها لم تجد «أفونسو أوليمبيو».

أخبرتها «ناركيسا»، وهي تقدم لها الخبز والحليب الساخن: طلب مني والدك أن أخبرك بأنه قد اضطر للخروج مبكراً. ذهب يعتني بأمر يتعلق بالماشية.

بعدها تركتها وانصرفت، وهي تجفف دموعها التي سالت حزناً على وفاة سيدتها.

التقطت «ماريا إنيس» قطعة خبز وتذكرت كيف، في ذاك الزمن الذي كان من السهل فيه أن تكون في مزاج جيد، كانت تتسلى بتسمية قطع الخبز. أكدت لنفسها حقيقة أنها كانت وحدها. ومن النادر أن تكون وحدها في ذلك البيت. كم كانت تود لو وجدت «جواو ميغيل» هنا، وأن يتحدثا، وأن يشاهدا في صمت النحلة التي دخلت عبر النافذة وانخرطت في رقصة هوائية بطيئة فوق المائدة طيبة الرائحة.

وأن تستمع إلى طيور الكيسكادي والدج التي كانت مشغولة بأسئلة محددة تتعلق بحياتها، وتجهل تماما تلك الدراما التي تجري هنا. لكن «جواو ميغيل» قد غادر الليلة السابقة، وهو يقود سيارته ليلاً عبر الطريق السريع الذي يتلوى أمام عينيه، وعبق ابنة عمه في يديه مثل طائر ضئيل مستكين. أوقف سيارته لعشر دقائق أمام بارادا بريديليتا، النائمة في هذا الليل، ليتناول قدحا من القهوة القوية، حتى يستفيق ويكون في أمان. لم يكن نعسانَ وظل كذلك حتى عندما وصل إلى ريو دي جانيرو، في الساعة الواحدة والنصف صباحا.

في إباء واضح، تأملت النحلة المائدة، ولكنها تمكنت من العثور على طريق للخروج. الفناء مشمس، على الرغم من غيوم الليلة السابقة، وبدا كل شيء مشجعاً في الخارج. نشرت شجرة الإبا الأرجوانية مساحات غير منتظمة من الظلال على الأرض. تحوم الحشرات بسرعة في الهواء، بأزيزها الذي يتخذ طبقة

"الباس باريتون". هناك زهور أرجوانية وبيضاء على الشجرة الأرجوانية، وأخرى وردية زاهية فوق مساحة من الورود التي نمت وترعرت من تلقاء نفسها . زهور جميلة أزهرت في الصباح وذبلت بعد الظهر. وكانت هناك أيضا زهور قصيرة العمر على نباتات الكركديه، ولكنها ضخمة وبرتقالية، وقلبها داكن. تركت «ماريا إنيس» المنزل بحقيبتها الجرابية وشعرها الكثيف (فتاة ويزلر) الذي عقصته ذيل حصان بوشاح أرجواني.

كانت الدبابير تؤسس وبكل دقة منزلاً جديداً فوق سقف الشرفة الأمامية، ولكن سرعان ما ستقوم «ناركيسا» بتدميره عاجلاً أو آجلا، كما فعلت مرات عدة من قبل.

جلست «ماريا إنيس» على أرضية الشرفة، مستندة إلى الجدار. أخرجت قلما وكراسة من حقيبتها لتكتب: "أبي، أنا راحلة". كانت تحب لو أضافت كلمات تطلب منه أن يهاتفها أو يكتب إليها في حال احتاجها، أو تخبره فيها أنها ستعود قريبا، وأن يهتم بنفسه، أو تعبر بها عن أحضان وقبلات ابنته المحبة، كأي رسالة من ابنة لأبيها.

لكنها لم تضف أية كلمة، ولم توقع الورقة باسمها، بل تركتها على منضدة القهوة في غرفة المعيشة تحت ثقالة الورق. وشاهدت التاكسي الذي كانت قد طلبته قبلها بيوم وهو يتقرب مترجرجا بينما يعبر سور الماشية. ودعت «ناركيسا» بحضن سريع بلا معنى عميق.

ـــ"سأطلب منك طلبا، «ناركيسا». توجهي إلى منزل «كلاريس». أخبريها أنني اضطررت للرحيل مبكرا وأنني سأراسلها في أقرب وقت".

دلفت إلى التاكسي وأغلقت الباب ولم تنظر خلفها. لم تر شخص أبيها على البعد. لم تر وشاحا زاهي الورود يسقط على الأرض. وآمنت بأنها لن تعود إلى هذا المكان مرة أخرى.

وهو ما كان ليتحقق بالفعل، لولا «كلاريس».

لولا «كلاريس». عدم وجود «كلاريس» كان سيحدث فارقاً هائلاً في حياة الكل: «ماريا إنيس»، «أوتاسيليا»، «أفونسو أوليمبيو». ولكنها موجودة، كما كان حالها دوما، مسالمة، راضية، مطيعة، كلامها ناعم. شعرها مصفف وحذاؤها في قدميها. وتدرك «ماريا إنيس» أنها تحب «كلاريس».

لا تشك في هذا. ولكن أحيانا يصير حبها شرساً بعيون نارية، لأسباب كثيرة؛ لأن «ماريا إنيس» فقدت براءتها مبكرا جدا؛ لأن «كلاريس» عانت. وهكذا كانت المفارقة: إذا لم توجد «كلاريس» فلن تعاني «كلاريس».

تخيلت «ماريا إنيس» أختها في غرفة نومها، وهي تمشط شعرها أمام مرآة التسريحة، وترتدي كلسات وهي جالسة على حافة الفراش.

وتخيلت «إلتون خافيير» وهو يحلق ذقنه، مرتديا الشورت القصير، تخيلت والديه وهما يتلوان الصلاة قبل كل وجبة طعام، و«كلاريس» المطيعة ترسم علامة الصليب، آمين، قبل أن تفرد بحرص منديل المائدة.

تخيلت أمها وهي تعيش الآن في مدافن جابوتيكابايس، بعدما أتمت دورة الوجود المقدرة لها، من العدم إلى العدم، وبينهما تجسد قصير الزمن. «أوتاسيليا»، أم لم توزع سوى أحضان معدودة، ولم تتحدث سوى بكلمات محدودة، ولم تتخذ سوى القليل من المواقف، القليل جداً.

عندها بكت «ماريا إنيس»، وشاهدها سائق التاكسي تبكي في مرآة سيارته الفاريانت القديمة. شعر بالأسف لأجلها، ولم يجد من سبيل لمساعدتها سوى أن يقدم لها حبة نعناع ملفوفة بورق أخضر وفضي.

كانت رحلة «ماريا إنيس» غير مريحة لساعات. كان أسفلت الطريق السريع متهالكاً كقطعة قماش مهترئة، كما أن الحافلة التي أقلتها من جابوتيكابايس إلى فريبرغو نتنة، رائحتها تجمع بين الزبدة العطنة وشعر الكلاب، على أن الوضع تحسن قليلا من فريبرغو إلى ري ودي جانيرو، حينما هبطوا من الجبال وساروا في السفح، وارتفعت درجة الحرارة. وأمكنها أن تسمع عبر نوافذ الحافلة المفتوحة صوت المحرك المزعج الرتيب الممل.

كان المقعد المجاور خاليا. وعلى المقعد المقابل عبر الممر الضيق جلست أم شابة ترضع طفلها الملفوف في بطانية صفراء. خرجت يد رقيقة من البطانية وأمسكت بإصبع الأم بينما تستقبل عينا الطفل العالم الذي لم يره بعد.

ذلك العالم.

زمجر محرك الحافلة، فتشبثت «ماريا إنيس» بحقيبتها وكأنها خائفة. أمكنها أن تشم العادم. أغلقت عينيها ودخلت في حالة نعسانة مرتبكة، ولم تخرج منها إلا حينما كادت الحافلة تصل إلى جسر ريو نيتيروي. شاهدت جبل كوركوفادو على البعد، والمسيح على القمة، بيديه المفتوحتين. إنها عائدة إلى المدينة، إلى منزل ليس منزلها، إلى صديق لا تحبه ، وإلى الاختبارات النهائية الصعبة لعامها الثاني في كلية الطب.

كل شيء كما هو تقريبا. هذا هو أشد الأدلة إيلاما.

في أحد الحمامات القذرة بمحطة حافلات ري ودي جانيرو كتب أحدهم على الباب: "المسيح هو الحل".

كانت عينا «توماس» الشفافتان تحدقان في البقعة التي تشغلها الأشجار فوق التل باسقة على خلفية السماء الزرقاء. بقتا مفتوحتين لفترة طويلة حتى أغلقهما «توماس» بعدما سالت الدموع. رمشت عنييه فتحولت الدموع المنهمرة إلى غديرين على وجهه، فجفف.وجهه بظهر يمناه.

كان يمشي في الطريق الذي كان درب طفولة «ماريا إنيس». لابد أن هناك مغزى من وراء ذلك، لابد أن هناك مغزى من وراء كل شيء.

عرف «توماس» الحكاية.. عرفها. التفت وراءه، في اتجاه منزل «كلاريس»، ورأى المحجر على البعد عالياً جداً.

محجر محرم فوقه تحوم الفراشات. وكان لهذا إسهام غير مقصود في أن تنتشر الحقائق وأن يستمر هدوء وجوده الحجري، وأن تطغى السكينة على تنفس صخوره، وأفكاره الحجرية الناعمة. واصلت السحالي زحفها على جلدها، واستمرت الفراشات في تحليقها في سماء المنطقة.

لم ينتب «توماس» أبداً فضول أن يتسلق التل المرتفع وأن يعبر المرعى إلى هناك، حيث يقف ليجد النهر تحول إلى خيط ذهبي والحيوانات أضحت مثل

الدمى الصغيرة، لم يسبق له أن رأى مزرعة «إبيس» وهي تنتحب وحيدة. لا يعرف تلك الأمور إلا من حكايات «ماريا إنيس» القديمة.

الآن لم يعد يهتم. لقد تعلم عبر السنين مزايا ألا يحمل نفسه الكثير ؛ لا الكثير من الكتب، ولا الكثير من الملابس، ولا الكثير من الأصدقاء، ولا الكثير من الذكريات. عليه أن يعمل مهما كلفه ذلك على أن يخلص حياته من الأشياء التي يمكنه الاستغناء عنها. ومن ذلك، مثلا، حكايات «ماريا إنيس».

أشعل سيجارة.

لم يكن على هذه الحالة دوما بالطبع، وطبعا كان من قبل أقل حكمة وأشد عنادا. ولكنه الآن يشعر أن الأيام التي تمر لن تحمل أية مفاجآت له، إن بقي متيقظا لها، حذراً.

لا مفاجآت.. ولا حتى سيارة غريبة تقترب أمام عينيه، ببطء، تتأرجح فوق تراب الطريق مثل بالبرينا ثملة.. ولا حتى عندما توقفت السيارة إلى جانبه من دون أن يتوقف محركها ويرى من خلف النافذة الزجاجية التي تهبط ببطء امرأتين: امرأة شابة، وامرأة لم تعد شابة. إحداهما بعينين شفافتين، والأخرى تشبه لوحة «ويزلر»، حتى وإن تنكرت في شعر قصير وأبقت عينيها خلف نظارة داكنة.

الفصل العاشر
خاتم رائع اشتريته في فينيسيا

حينما نظر «توماس» عبر نافذة الشقة شاهد البحر إلى اليسار، وفي البحر سفينة تتحرك تدريجيا . ربما هي كذلك، وربما إلى النقيض من ذلك، تتحرك بسرعة؛ فلما عاود النظر إليها مجدداً بعد بضع دقائق، كان من الواضح أنها قد تحركت،ما بدا لـ«توماس» أنه حيز محدود لابد وأنه يتماشى مع كتلة المحيط الهائلة. تخيل محركات السفينة وهي تدوروعددًا لا حصر له من الرجال يشغلون كل تلك المحركات والماء وهو ينزاح من تحت كتلة السفينة الضخمة، ووجد أن من الغريب أن كل هذا يبدو على البعد وكأنه لا شيء.

ذلك عام ميز أشياء كثيرة. في نافذة الشقة في ألميرانتي تاماندراي، كان «توماس» الآن رجلا في الخامسة والعشرين يشعر بثقل الشكوك في أن والديه لم يعلماه كيفية التأقلم مع الحياة لأنهما كانا منشغلين جدا في السياسة. وربما لهذا السبب أيضا شعر «توماس» بشيء من الغيرة من هذه العقيدة الجمعية لدرجة أنه يعتبر نفسه غير ذي نفع.

"غير ذي نفع"، هكذا قال له أبوه ذات مرة، قبل أن يضيف: "ولكن علينا أن نقاتل حتى يكون الأمر مشرفاً، حتى ولو جاءت النتيجة النهائية أنه غير ذي نفع".

«توماس» شاب مشوش، خاب أمله من مهمة صعبة تمثلت في خلق واقع (بداخله، وفيما وراءه) من الحقائق البسيطة. خاب أمله من مراوغة الحياة ومن

الطريقة التي تميز الحياة بها نفسها بالسلبيات، وتبدو في عديد من الأحيان متناقضة ومنقلبة على نفسها.

يشعر أن لوحاته قد ذبلت مثل فاكهة منسية لفترة طويلة في ثلاجة. أما عنها هي، «ماريا إنيس»، الحب والإلهام، فكان «توماس» يخشى أن يكون قد خسرها، دون رغبة في الاعتراف بحقيقة أنه لم يكن أبداً لها، ولكنه ثابر.

ينخرط الآن في المواضيع الدينية، واكتسب أسلوبه خطوط الباروك، ورسم «مادونا» هائلة بألوان زاهية وعدد وافر من ضربات الفرشاة، فأعجبت تاجر اللوحات ووضعها في معرض بيعت فيه بسعر جيد. ولكن «ماريا إنيس» لم تعد إلى جانبه كما كانت لتشاركه هذه الانتصارات الصغيرة.

"لقد فقدت مصدر إلهامي"، كتب إلى والديه ظهيرة اليوم الذي عبرت فيه تلك السفينة ذلك الجزء من المحيط أمام نافذته. "أملي أن يكون هذا مؤقتاً".

ولم يكن كذلك.

فقد كانت «ماريا إنيس» منغلقة على نفسها. تولد «ماريا إنيس□» مختلفة، ستكون قناعا خلال العقود المقبلة يخفي من ورائه عيوب «ماريا إنيس» القديمة.

كانت في بناية الآر ديكو، تكتب خطابا إلى إيطاليا في ذات اللحظة التي كان فيها «توماس» يكتب خطابه إلى شيلي. ظهيرة منعزلة في يناير، حارة، يمكنك أن تسمع فيها الزقزقة المستمرة للزيز، وتناثرت قطط العمة «برينيسي» في الشقة وكأنها تماثيل من الفن الهابط تناولت العمة الشاي وأكلت الخبز المحمص وشاهدت التليفزيون.

في تلك السنة التي ميزت العديد من الأشياء انفصل كل واحد عن الآخر: «كلاريس» في المزرعة تجهز لزواجها الذي كتب عليه الفشل، وكان «جواو ميغيل» يسافر ويدرس وقد بدأ يفكر في شراء خاتم مميز لابنة عم مميزة وأن يتقدم لخطبة لم يكن يدرك أنها لن تكون سوى، مسعىً خائب، ويحصي «أفونسو أوليمبيو» دقائقه ويعد حبات الرمل التي تتساقط في الساعة الرملية، ويتجرع عزلته. ماتت أزهار مدافن جابوتيكابايس ثم بزغت مرة أخرى كما عهدها دوماً، عند شاهد القبر الذي عليه نقشت أحرف اسم «أوتاسيليا».

ربما كانوا جميعا أشبه بمكونات كعكعة؛ مكونات بسكويت الكاسادينيوس: 3 كوب دقيق، 2 كوب سكر، 6 صفار بيض، 3 بياض بيض، 1 ملعقة بيكنغ باودر. ربما هم مجرد دمى لذواتهم، أقنعة تخفي وجوههم.

تجارب، فئران مختبر بين يدي إله مبدع بقدر ما هو قاسٍ، وفضولي بقدر ما هو سادي. أو ربما هم لا شيء البتة ولا تزيد أهميتهم التاريخية عن أهمية النمل الغارق في بركة من مياه المطر. أزهار لا نلبث أن تذبل بنفس السرعة التي أزهرت بها.

ربما لا يحمل أي شيء أهمية حقيقية، وأن الحكاية التي جمعت بينهم جميعا لم تكن سوى خط صغير على جدار، أو شخبطة طفل شقي بطبشورة ملونة. ومع ذلك، يظل هناك شيء ذو بال في ذلك كله.



عندما عاد «جواو ميغيل» من إيطاليا في بداية أغسطس في نفس العام الذي ميز الكثير من الأشياء، أحضر لـ«ماريا إنيس» خاتما معه. وفي المزرعة التقيا مرة أخرى، ولكن ليس في بيت أبيها؛ فقد كانت «ماريا إنيس» تقيم مع «كلاريس»، وكان «أفونسو أوليمبيو» قد مات ومر على جنازته شهر ونصف الشهر.

"أنا آسف جدا، «ماريا إنيس»". احتضنها وكان غاضبا من نفسه حينما انتابته الشهوة ما إن مر بيده على ظهرها ولاحظ أنها لا ترتدي صدرية. لم يكن الوقت مناسبا أبداً لمثل هذا التفكير.

قال لها بنبرة متناقضة: "لقد حدث هذا سريعاً جداً. أقصد، بين أمك وأبيك.. في أقل من عام".

ــ"لقد كان يفرط في الشراب".

هذا هو ما هي مستعدة لأن تبوح به لـ«جواو ميغيل». فهو من ستختاره، بعد كل شيء، وهي ليست مستعدة لتمضية بقية أيامها في النظر إلى مرآة قاسية تكشفها على حقيقتها، وتذكرها بمن هي.

اشترى الخاتم في فينيسيا فينيسيا التي بها مقهى فلوريان، مقهى بروست، كازانوفا، فاغنر، وشاب وسيم اسمه «باولو».

جالس واقف على دكة حجرية خشبية. كان غالي الثمن مثل كل شيء في فينيسيا. موجود في حقيبة «جواو ميغيل»، في مخمل أزرق داكن، ينتظر قبول «ماريا إنيس»، يحلم برؤية الخاتم في يسراها.

ــ"أعتقد أن أحداً لا يتوقع هذا".

ـــ"أنا كنت أتوقعه. ليست لديك فكرة عما كانت عليه حالته..كان مدمرًا.. ثملاً".

ـــ"لا ينبغي أن تتحدثي هكذا عن والدك".

سكتت.

لم يلحظ «جواو ميغيل» أن كلمات «ماريا إنيس» لم تنطوِ على غضب أو مقت، بل مجرد تقرير لحقيقة. وأن اللهيب في عينيها قد خمد، ولكن هناك معاناة تعتمل في جزء من روحها، غير مرئي، وغير محسوس. ربما ستجيب هذه المعاناة بنعم حينما يقدم لها هذا الخاتم الجميل الذي اشتراه لها من فينيسيا.

كانا يسيران جنبا إلى جنب خلال حدائق المنزل، مثل ابن وابنة عم لا يجمع بينهما حب أو مثل عاشقين في السر. جلست «كلاريس» على دكة أمام بحيرة صغيرة بيضاوية ذات نافورة ساكتة مؤقتا، شكل ظهرها المحني قوساً مثالياً داخل سترتها الصوفية عنابية اللون. كانت تنظر إلى قدميها.

لا يمكن أن يحدث تماهي بينها وبين «جواو ميغيل». ورغم هذا عليه أن يتحدث إليها، بالطبع، وأن يستخرج بعض كلمات من قاموس الإتيكيت ويغلفها بنبرة صوته المعزية، وهو ما فعله وشعرا معاً بأن هذا كاف. ثم تبادلت «كلاريس» و«ماريا إنيس» نظرات عبرت المسافة بينهما كالسهم، ولم يلحظها «جواو ميغيل».

لم يفترض، ولم يشك، ولم يتخيل.

كان صباحا شتويا أزرق هادئاً. لم تكن هناك غيوم في السماء، ولكن آشعة ضعيفة من الشمس ترقص على الأرض، فقد كان الجو باردا. وفي اليوم السابق، في الصباح الباكر، كان الثيرمومتر الذي يضعه «إلتون خافيير» خارج النافذة قد

سجل تسعًا وثلاثين درجة. وارتاحت أصابع «ماريا إنيس» الرقيقة الشاحبة للمس سترة «جواو ميغيل».

أخبرت «كلاريس»: "سوف نتمشى، هل تودين مرافقتنا؟".

هزت رأسها وهي بالكاد تبتسم. وظلت تداعب خاتم الزفاف في إصبعها الذي تجمد من الهواء البارد.

غادرت «ماريا إنيس» الحديقة مع «جواو ميغيل» عبر البوابة الجانبية الصغيرة التي لا تسمح سوى بمرور شخص واحد في كل مرة. هبطا العتبات الأسمنتية الخمس إلى ممشى متعرج تحيط به نباتات البلسم ويفضي إلى الطريق السريع، دائماً نفس الطريق الترابي الذي يهدد بتشويه حذاء «جواو ميغيل» الإيطالي الجميل ذي الجلد الأصلي اللامع الذي يعكس ضوء النهار.

ـــ"الآن عدت لتبقى"، قالتها بنبرة تأكيد، وكأنها ترغب في طرد الشكوك.

ـــ"أجل، لقد عدت".

لم يأتيا على ذكر تلك الظهيرة عند حافة البحيرة عسلية اللون، والتي مر عليها الآن قرابة العام.

ـــ"لقد حدث الكثير"، قالها بإبهام، وأمنت «ماريا إنيس» على كلامه من دون أن يكون لديها أية فكرة عن مدى الصعوبة التي تكابدها لأجل أن تتفق معه.

مرا على الكوخ الخشبي البسيط المرتفع عن الأرض فوق أربعة جذوع، حيث تنتظر أوعية الحليب الفارغة من سيملأها في الصباح التالي، لتأتي شاحنة الجمعية

وتلتقطها وتستبدلها بأخرى فارغة. وأبقار بأضرع منتفخة ترعى وتستدفئ تحت الشمس، كانت لا تتحرك، عدا ذيولها التي تطرد الذباب بأنواعه.

القراد هو حشرة الشتاء، وتعلم «ماريا إنيس» أن المرعى ممتلئ بها، وأن العشب هو مسكن تلك المخلوقات الضئيلة عديمة الرحمة.

مر عليهما صبي في العاشرة، يرتدي حذاء مطاطيًّا عالي الرقبة وشورت وسترة صوفية زرقاء رثة بها رقع من ألوان أخرى. أنفه يسيل، ليمسحه بكم السترة. تحمل ذراعه اليمنى فأساً مستريحًا على كتفه. مر، وحياهما: "صباح الخير".

أجابته: "صباح الخير". وعندها ذكرت ابن عمها، وهي تبتسم: "صرت الآن تجيد الإيطالية".

ـــ"أجل، بالطبع".

ـــ"لغة جميلة جدا".

شاهدت «ماريا إنيس» و«جواو ميغيل»طائر وقواق أبيض يرتفع بين الأشجار.

تبعه اثنان، ثلاثة، خمسة. إنها دائماً ما تطير في جماعة.

الإيطالية الجميلة ينطق بها إيطالي وسيم في أجمل مدن العالم.. فينيسيا.. بعد سنوات.

عادا إلى المنزل قبيل وقت الغداء ووجدا «كلاريس» في المطبخ، تساعد حماتها والخادمات. تحضر جوز الهند لعمل البودنغ. جميعهن ساكتات، كما

لو أن أية كلمة من أي نوع ستجرح الحزن المزدوج، أم وأب هاتين الفتاتين وفي غضون أقل من عام، مسكينتان.

ستكون هذه الفترة الأقل من عام الزمن الذي ستحتاجه «كلاريس» حتى تختمر الأحداث داخلها، وتتحول إلى نبيذ، أو خل، أو ببساطة مزيج فاسد منهما لا يمكن لأحد أن يدركه، ولن يمكن لأحد أن يدركه. وفي فبراير من العام المقبل ستبلغ السابعة والعشرين ولن يلاحظ أحد ذلك ، ولكنها تبقى نفس الفتاة المنصاعة الرزينة المنقادة المهذبة المؤدبة الحصيفة. وسوف تأتي لحظة تعجز بعدها عن احتمال أي من هذا كله، وستنهار مثل سد به خلل هيكلي بسبب تشييده من مواد فرز ثانٍ. سوف تتقشر مثل طلاء على حائط. وسوف تغادر، وتهجر «إلتون خافيير» وذلك الجزء من ذاتها، الذي وحتى ذلك الحين لا يزال على استعداد للمحاولة والتشبث بالحياة.

ولكنها، في أغسطس الحزين، تبقى نفس الفتاة المنصاعة الرزينة المنقادة المهذبة المؤدبة الحصيفة. فهي لا تشرب ولا تتعاطى الكوكايين، بل ها هي تحضر جوز الهند لأجل البودنغ. ويجلس قط أسود أبيض الصدر والوجه جوار الموقد وهو يلعق مخالبه اليمنى. وفي وقت لاحق من ذات اليوم، هاتفت أختها وطلبت منها معروفاً: "ربما أمكنك، «ماريا إنيس» أن تعتني بالمخزن لأجلي.. أنتِ و«جواو ميغيل»، فهو محام".

ــ"بالطبع، بالطبع يمكننا هذا".

على الأقل «جواو ميغيل» محام. وقد تقدم للتو لطلب يدها للزواج مانحاً إياها خاتماً رائعاً اشتراه لها من فينيسيا.

لم تكن «ماريا إنيس» هي من أخبر «توماس» عن وفاة «أفونسو أوليمبيو»، ولكنها العمة «بيرينيسي»، بين النحيب والدموع التي خضبت وجنتيها المكتظتين. فاستقل الحافلة إلى فريبرغو ومن هناك استقل حافلة أخرى إلى جابوتيكابايس بعد توقفات في عشر محطات لبلدات صغيرة ليست على الخريطة. وفي جابوتيكابايس استقل تاكسي أوصله إلى المزرعة. وخلال الوصلة على الطريق المترب شعر بأنه قد مر بتجربة مماثلة في اليوم الذي مارس فيه الحب مع «ماريا إنيس» للمرة الأولى. إنه يدخل منطقة غير مألوفة. يحاول غواية جسد آخر، دوبلير «ماريا إنيس»، شيء أشد حميمية من الجلد والعضلات، شيء أشد ذاتية وهشاشة ورعباً.

روحها.

في تلك اللحظة تغلب عليه انزعاج العشاق، وأنه يمكن أن يطلب (لابد أن يطلب) السائق أن يستدير ويرجع. كان بإمكانه (لابد) أن يعود مجددا إلى جابوتيكابايس ومنه إلى فريبرغو وأخيرا إلى ريو دي جانيرو ثم إلى شقته حيث تنتظره لوحاته. ولكنه قرر الاستمرار في طريقه.

التقى «كلاريس». كانت تجلس وحدها على آخر عتبة تصعد من الشارع الرئيسي في جابوتيكابايس (الوحيدة المعبدة بالحجارة المرصوفة بالحصى) إلى باب الكنيسة. وفي الداخل، في كنيسة صغيرة، يحيط حشد صغير بنعش يضم جثمان «أفونسو أوليمبيو».

كان النعش مغلقا، لا أحد يرى منه شيئا، ولا حتى اليدين المسحوقتين، ولا الوجه الخالي من التعابير، ولا الجمجمة المهشمة التي لم تعد تنزف، ولا

الأطراف المتكسرة. اضطر الناس إلى إقناع أنفسهم أن هناك جثمانًا بالداخل. وأن الجثة جثة «أفونسو أوليمبيو».

تصرفت عائلة «إلتون خافيير» ومنحت لرجال الشرطة المال الكافي لأن يصدر تصريح الدفن من دون تشريح، وبالتالي لم ترسل الجثة إلى فريبرغو، أو حتى إلى ريو دي جانيرو. ولكن هذا سر لم يعرفه أحد. موضوع محرم آخر.

حينما شاهد «توماس» «كلاريس» لأول مرة، كانت جالسة على الأرض، على تلك العتبة أمام الكنيسة. كانت ترتدي ثوب سيدة عجوز، أسود تماما، وحذاء أسود من دون جوارب. وعقصت شعرها الأسود في كعكة سوداء مع دبابيس شعر سوداء أيضا. وعلى النقيض، كان وجهها شاحبا شحوبا قاتلا ، شحوبًا غير منتظم به ظلال هنا وهناك، مثل كدمات خفيفة. لم تكن ترتدي نظارة داكنة، وهكذا أمكن لـ«توماس» أن يرى عينيها.

كانتا جافتين.

كما كانت عينا «ماريا إنيس»: جافتين جفافـًا غريبًا، أشد جفافا من أعين الناس حينما تكون جافة. وكان لغياب الدموع ثقل على تلك العينين اللتين تتدفقان بالفراغ والصمت.

كانت «ماريا إنيس» تقترب من أختها حينما لاحظت «توماس» وهو يصعد الدرج: "أنت هنا". بنبرة صوت لا تعبر عن الارتياح ولا الرفض ولا التقريع والتقدير، نبرة صوت تعبر عن الخواء والصمت والعينين الجافتين. التقطت يد «كلاريس»، ولكن «كلاريس» بقيت جالسة رفعت وجهها فقط لترى من وصل.

قال لهما: "العمة «بيرينيسي» أخبرتني".

للحظة، نظر ثلاثتهم إلى بعضهم وفكروا في الكثير من الشكوك وسط تلك النظرات. يجتمعون مرة أخرى، الثلاثة معا، بعد عشرين عاما (بينما نامت «إدواردا» في غرفة النوم، وانتابها حلم بطلته ملكة التعاسة، بينما ينام «جواو ميغيل» في مقعد رجل الأعمال على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم في السماء).

حلق لقلق فوقهم، على ارتفاع منخفض بجناحين واسعين بطيئين، ثم هطل رذاذ ناعم جدا يتكون من الغبار أكثر مما يحوي من قطرات الماء، من كل الاتجاهات.

"هذه «كلاريس» أختي". صوت «ماريا إنيس» خافت، مبحوح. "«كلاريس»، هذا «توماس»، الذي حدثتك عنه".

دلفا إلى الداخل.

رائحة الورود تملأ الكنيسة الصغيرة. كانت الرائحة كثيفة، وحاضرة، حتى أضحى التنفس صعبا. يتلو شخص ما صلاة وبعد ذلك مباشرة بدأ آخر يلقي كلمة مؤثرة يعدد فيها خصال «أفونسو أوليمبيو». زوج صالح، والد مخلص.

دفنوا «أفونسو أوليمبيو» جوار «أوتاسيليا»، ثم زينوا شاهد القبر بصورة بيضاوية تضم الاثنين معا.

قالت «ماريا إنيس» لـ«توماس»: "عندما أموت، قم بدفني بعيدا عن هنا". لكنه لم يكن يتوهم ولو للحظة أنها كانت تخطط لحياة تجمع بينهما، زواج، أطفال، معيشة، تلك الأشياء. كانت كلمات جافة وحسب، مثل العينين الجافتين الفارغتين والصامتتين.

امرأة أحبها بشدة، وألم. النظير المستحيل، لسبب لا يفهمه، ربما يا «ماريا إنيس» لا تحبيني للأسباب أ و ب و ج. ولكن لابد لك أن تحبيني للأسباب د و هـ و و.

عاد إلى ريو دي جانيرو في نفس اليوم. عرضتا عليه مكانا يبيت فيه، ولكنه لم يكن يفكر في البقاء. كان متجهماً، يشعر بمرارة، وخيبة أمل، وخائفاً نوعاً ما.

لما عادت إلى شقة العمة «بيرينيسي»، الآر ديكو، في حي فلامنغو، القريبة جدا من البحر، كانت «ماريا إنيس» ترتدي دبلة الخطوبة. وبحثت عن «توماس» لتخبره.بكل أسف، بكل أسف شديد.

شعر بالنقص. "قلت لنفسي إنني تصورت هذا يحدث". ثم أضاف، ولكن مع مسحة من شفقة على الذات، "ولكن كانت هناك لحظات آمنت فيها حقا أنك تهتمين بي".

لم تجبه. وتمتمت على عجالة بكلام لا معنى له. وبكت قليلا. قالت إن القدر لا يمكن التكهن بعواقبه. وقالت إنها تعرف «جواو ميغيل» منذ كانت طفلة ، ولكنها طمأنت «توماس»: "نعم، أنت أول رجل في حياتي". فعلق بمرارة: "على ما يبدو أن هذه الحقيقة لم تكن بهذا القدر من الأهمية".

توجهت إلى الحمام لتنظف أنفها، وتبعها واستند إلى الباب، عاقدا ذراعيه، ينظر إليها.

ــ "هل لهذا علاقة بوفاة والديك؟".

ــ "كلا"، كانت تكذب.

ـــ"أتعنين أنك تحبين ابن عمك".

ـــ"أجل".

ـــ"تحبينه".

ـــ"أجل".

ـــ"سترتبطين به".

ـــ"ربما ليس في كل شيء".

ـــ"أنا وأنتِ مرتبطان في كثير من الأشياء".

ـــ" اسمعني، «توماس»، أنا وأنت نعرف بعضنا بدرجة كافية لتجعلني أعتقد أن هذه العلاقة لن تنجح". وجد في هذا تأكيدًا فارغًا، هراء.

الحقيقة أن «توماس» كان قد بدأ يقع في غرام تلك المعاناة، النتيجة الوحيدة الممكنة لحب في المطلق كهذا الحب.

حب واسع كالجبال، في عالم محدود لم ولن يستطيع أن يتضمن لا نهائية لمسة بسيطة، أطراف أصابعها، بشرة «ماريا إنيس» المجعدة، حب لخلق الشعر الذي يتواجد في كل شيء تقريباً، في الحافلات القذرة، في صناديق القمامة الممتلئة، في الأولاد الذين يلعبون كرة القدم.هذا الحب الفريد من نوعه، الذي يقع فيه كل الشباب، ولكنه محكوم عليه دائماً بالفشل.

حب فتي جداً، قسم وجود «توماس» شطرين، عالمين، تاريخين، ما قبل «ماريا إنيس» وما بعد «ماريا إنيس».

وفي حين سعت وحاولت أن تشرح هذه الحقيقة البسيطة، ترك أفكاره تحلق وتخيل كيف يمكن أن تكون الليلة التالية، بالتأكيد من دون «ماريا إنيس»، بعد خمس سنوات. أول ليلة لن يجد فيها بديلا لأن يثمل. وربما يهاتف والديه ، ربما (أو الأسوأ) واحدة من الصديقات. أحد أصدقائه عبر ذات مرة عن تلك البديهية الوقحة الساخرة: لا علاج للحب الأفلاطوني إلا بممارسة جنس ملحمية. ابتسم «توماس» لنفسه على ذلك التفكير، ارتاح قلبه قليلا، وتقبل الأمر.

حصرا حديثهما معا في بعض الشؤون التافهة الكاذبة. قالت: "أتمنى لك كل نجاح في حياتك المهنية". وقال: "أتمنى أن تكون سعيدة" ابتذال شائع معروف ومعلوم. ثم أضافت، بوجه يقول لنكن أصدقاء للأبد: "ادعُني إلى معرضك، اتفقنا؟"، وقال: "اتفقنا". كان يقلدها بطريقة كوميدية: "وأنت ادعيني إلى حفل تخرجك، اتفقنا؟".

حفل التخرج الذي سترتدي فيه خاتمًا من الزمرد الأصلي، كما ترتدي الآن خاتما رائعا أتى إليها من فينيسيا من ابن عمها وزوج المستقبل (على الحلوة والمرة، في السراء والضراء) «جواو ميغيل».

طلبت «ماريا إنيس» كوب ماء وذهبت مع «توماس» إلى المطبخ. شربت قليلا، أقل من نصف الكوب. وقفت مكانها لبعض الوقت والكوب في يمناها، قبالة وجهها، تتأمل ثمار الفراولة الحمراء الصغيرة المرسومة على الكوب.

هذه اللفتة صنعت حولاً في عينيها، ولاحظ «توماس» ذلك بولع شديد. اعتصر قلبه ألم قوي واعتقد أنه سيصاب بنوبة قلبية. اكتشف أنه يحب «ماريا إنيس» وكأنه يحب ابنة له، وأنه يخشى أن يأتي يوم وترحل عنه ويفقدها.

حينما عادا إلى غرفة المعيشة، انتهزت فرصة أنهما قد صارا بالقرب من الباب فتوقفت وقالت له: "من الأفضل أن أذهب".

تسمر «توماس» في مكانه.. فتحت الباب بنفسها.. اتجهت صوب المصعد.. وضغطت الزر. راقبت الأرقام وهي تنير، 1، 2، 3، 4، 5، 6، على اللوحة اللامعةالذهبية التي تفوح منها رائحة منظف براسو. تخيلت البواب ذا البدلة الصفراء المغبرة وهو واقف على السلم ليلمعها. ثم نظرت إلى «توماس»، الواقف بلا حراك، وفتحت باب المصعد (المقبض أيضا ذهبي لامع وتفوح منه رائحة البراسو) ثم غادرت: "وداعاً". كانت على وجهها ابتسامة مصطنعة.

ابتسامة من تمضغ علكة بالفواكه.

بقي «توماس» واقفاً من دون حراك. لأكثر من دقيقة، دقيقتين. ينظر إلى الردهة الفارغة ويراقب الأرقام المنيرة وهي تحمل «ماريا إنيس» بعيداً عنه.. إلى العالم.. إلى البحر المفتوح: 6، 5، 4، 3، 2، 1. وهكذا تنازليًّا. رحلت «ماريا إنيس»، ولكن ليس بالتأكيد. فقد عادت بعد ثلاثة أشهر، واستمرت تعود على مدى عامين تاليين. «ماريا إنيس» غامضة ستلوم نفسها لاحقا، وستعتقد أن «باولو» الوسيم في فينيسيا مجرد نوع من المقايضة.

السيدة«ماريا إنيس أزوباردي».

التي لا تزال تشبه لوحة «ويزلر»، بالرغم من كل شيء.

كان حفل الزفاف في ديسمبر، بعد خطبة لم تدم طويلا، بل لفترة كانت كافية لتجهيز الدعوات الجميلة. بأسماء بارزة. وذلك النص الذي كتباه تخليدا لذكرى والديها وكذلك تحت اسم والدته. كان الفيكيو «أزوباردي» الباقي الوحيد، الحقيقة أنه كان الوحيد الذي يحق له دعوة أي شخص إلى أي شيء، ومع معرفته بذلك، ومعرفتهم بمن هو، أتى الضيوف بصحبة هدايا ثمينة، وبإقبال هائل.

«ماريا إنيس» و«جواو ميغيل». في إغريجا دو أوتيرو. كانت أبعد ما تكون عن تلك العروس الكرنفالية التي كانتها «كلاريس». فقد أصبحت سيدة مجتمع بين عشية وضحاها. فستانها مثالي، كما هو حال الحفل بأكمله. لا أحد يغنى إيف ماريا لـ«غونود»، ولكن هناك عازفًا على الكلارينيت، وعازفًا على الأورغان، يعزفان مقطوعة «موتسارت» الشهيرة في هذه المناسبات. انفعل معها الحاضرون وعلق بعضهم بأنها أروع ما لحن ذلك الموسيقار العظيم.

وحتى يساعدهما على بداية حياتهما. منحهما الفيكيو «أزوباردي» شقة هدية. ليس في التو ليبلون، ولكن في أرانجيراس، على جينيرال غليساريو، أمام غابة من الأشجار. بها ثلاث غرف نوم، واحدة للزوجين، وأخرى لأبناء المستقبل وأخرى لبنات المستقبل. كما أهداهما تذكرتي طيران إلى نيويورك، حيث تنتظرهما غرفة في فندق في الحي الشرقي، محجوزة لمدة أسبوع.، ودولارات

تكفي للرحلة، وحضور العروض الغنائية، والمسرحيات، وارتياد المطاعم، والتسوق في محلات الجادة الخامسة.

بعدها قرر ألا يساعدهما بشيء آخر، لأنه رأى أن تبسيط الأمور لشابين في سنهما سيفسدهما. أراد أن يكونا مستعدين للمصاعب والصراعات. وأخبر «جواو ميغيل» أن المكتب بانتظاره بعد أسبوعين من الزفاف. Due settimane. Non dimenticare.

عادت فتاة «ويزلر» إلى «توماس» ذات ظهيرة رطبة جعلت يديه وقدميه الحافيتين باردة لزجة. هناك الآن خاتم زواج في يسراها، وأيضا ساعة جديدة.

تخلت مرة واحدة وإلى الأبد عن شخصيتها القديمة. وهي الآن ربة منزل في جينيرال غليساريو. وتقود سيارة، في تلك الظهيرة عادت، وكانت أول رغبة لدى «توماس» هي أن يبعدها عنه، أن يبقيها خارج ذاته.

عندئذ تحدثت.

تحدثت لساعة متصلة بلا انقطاع، ساعة كاملة، وحكت له حكاية بدأت في يوم سابق على ذلك اليوم الذي سقطت فيه بذور السرو من يدها، ذلك اليوم الذي لم تعد فيه طفلة، بسبب ما رأته.

أباها. أختها.

استمرت «ماريا إنيس» في حكايتها، وبعد أن سمعها «توماس» لم يعد بدوره ذلك الشخص الذي كان قبل الحكاية. ولكنه اقترب من «ماريا إنيس» واحتضنها بين ذراعيه، وعاد يؤكد لها على حبه التعس الناقص لها.

مرة أخرى.

الفصل الحادي عشر
خيط أريادن

لم يكن ذاك الجزء من عقل «كلاريس» والذي يقلل من شأن صورة «ماريا إنيس» سوى جزء طفولي، وهو ما يتناسب بشكل مباشر مع رقي ممتلكات أختها المادية: السيارة التي تطوى الأرض كالهمس، وتنطلق من دون مشكلات في الصباح، مع أنها ليست بمستوردة ــ كانت سيارة الطبقة المتوسطة، خضراء لامعة تعكس ضوء الشمس. ولكن «كلاريس» فكرت، وهي تعاند نفسها، أن لدى زوج «ماريا إنيس» سيارة أخرى، واحدة من سيارات الدفع الرباعي، بطبيعة الحال. أو ربما واحدة من سيارات الجيب الضخمة التي يمتلك مثلها لاعبو كرة القدم، ونجوم المسلسلات، والمغنون عندما يصيبهم الثراء.

ها هي، وهي في هذا العمر، تفكر في السيارات. شعرت «كلاريس» بالخجل من نفسها، وانصرفت عن ذلك إلى تحية أختها وابنة أختها بالأحضان التي حاولت أن تجعلها مثل الصفحات البيضاء ناعمة بكرًا.

تبادلوا التحيات المعتادة، وهذا لأنها هي تلك التي تظهر وقتما يظن المرء أن اصطناع الصدق سيكون مفضوحا. أو ربما هي بسبب المبالغة في الصدق: "كيف كانت الرحلة؟"، "جيدة، شكرا، واو، إنها تبدو مختلفة جدا، فقد نمت الأشجار كثيرا"، "تبدين في صحة جيدة"، "أشكرك، وأنت أيضا. يا له من زمن طويل"، "بالفعل. ياللسماوات! انظري كيف كبرت «إدواردا»، "ألا تودين الدخول؟ هل أحضر أمتعتك؟ سأذهب لاستدعاء فاطمة، إنها تتحرق شوقا لرؤيتكما".

توقفت «ماريا إنيس» للحظة عند الشرفة، لتلتقط أنفاسها قبل دخول المنزل. هناك في الأرضية الأسمنتية الحمراء يمتد شق مثل نهر متموج من الجدار الخارجي إلى العشب في الفناء. وفي الشق نمت نباتات صغيرة، طولها ما بين نصف بوصة وبوصة، غابة مصغرة لسكنى العناكب والنمل. لم تلتفت لتواجه «كلاريس» وتخبرها أنها التقت «توماس» على الطريق. بذلت جهدا لتجعل نبرة صوتها عادية عارضة ووقفت تتلفت حولها، ويداها على خاصرتها، ثم عقبت، بذلك التهور الذي كانت دوما ما تلجأ إليه كآلية دفاع: "أتعجب دوماً من ازدياد وسامة الرجال كلما تقدموا في العمر، على عكسنا تماماً".

تجلس «إدواردا» القرفصاء تلاعب كلبا صغيرا، فروه بلون العسل. كان من الصعب معرفة ما إذا كان لونه الأصلي، أو هي نتيجة سنوات من الغبار الذي تشربته فروته.

ظهرت «فاطمة» على الباب، وهي تجفف يديها في قميصها القطني (بوسطن، ماساتشوستس)، وأخذت تتقافز في فرح حقيقي حول «ماريا إينيس» و«إدواردا» كما لو أنها استحالت جرواً بريئاً. عانقت «إدواردا» بشدة: "يا إلهي، آخر مرة رأيتك فيها كنت طفلة. كم كان عمرك، حبيبتي؟ ثمانية؟ تسعة؟ هيا تفضلا، أرجوكما! سأحضر الأمتعة".

كانت قد خبزت كعكة بيضاء وأعدت القهوة الطازجة مع إبريق من عصير فاكهة البيتانغا، وحضرت كل شيء على المائدة. أمر لا يصدق أن يبقى كل شيء كما هو: الكرسي خردلي اللون، الموقد وحطبه مكدس أمامه، البوكر الحديدية معلقة على قاعدتها الحديدية.

نفس البساط المعلق على الجدار، وصورة «أوتاسليا» في فستان زفافها. بالكاد ترك تواجد «كلاريس» كل تلك السنوات أثرا، ليس هناك من دليل على حضورها سوى كتاب فوق منضدة القهوة: «توماس مان»: "الموت في فينيسيا".

تداعت أفكار «ماريا إنيس» سريعاً، وقالت: "الموت في فينيسيا"، بينما فكرت في الكتاب الذي لم تقرأه أبداً ولكنها تعرفه من فيلم «فيسكونتي»، وتذكرت ساحة سان ماركو التي يحتشد فيها الحمام والكشك الذي يبيع البطاقات البريدية و«باولو» الوسيم يجلس – يقف.

"أحاول أن أقرأه. ولكن لا يبدو أنني أستطيع التركيز كثيراً هذه الأيام. هل قرأتِه؟".

قالت «ماريا إنيس» إنها لم تفعل. واستمرت تنظر حولها، ولكن الأشباح لم تعد هناك. كل شيء هو نفسه، كل شيء مختلف. وكان المنزل مثل الإحساس الذي شعرت به هي نفسها، «ماريا إنيس»، بعد صداع نصفي: راحة لا معنى لها، وغياب محنق للألم، شعور سيئ يتعدى حدوده ليغلق كل شعور طيب ويترك فجوة في أعقابه.

فكرت: "هكذا أفضل. أفضل كثيراً".

لاحظت أن الحركة قد توقفت بالفعل، في روح ذلك المكان. وأدركت أن توقف الحركة هو الأصعب، لأنه لم يتزامن مع غياب بسيط للحركة. وزنت الكلمة، حركة: وزنتها بإحدى يديها، ووزنتها بالأخرى. وأيا كان الاستنتاج الذي توصلت إليه، هذا إن توصلت إلى أي استنتاج من الأصل، فسوف تستبقيه لنفسها.

ذهبت هي وابنتها إلى غرفتهما. ستمكث «ماريا إنيس» في الغرفة التي كانت، في الماضي، غرفة الضيوف. أما «إدواردا» فستبيت في الغرفة التي كانت، في الماضي، غرفة «ماريا إنيس» (والتي كانت «كلاريس» تلوذ بها خائفة لتكمل ليلتها فيها). كل شيء هو نفسه، كل شيء مختلف.

الفراشات لا تزال تحلق فوق المحجر. ولكن لم يعد هناك أحد ليقرر أن هذا محرم. بيعت مزرعة «إبيس» قبل ثلاث سنوات، وانقسمت إلى أربع ملكيات أصغر: "خلوة الأصدقاء"، "دار الإجازة السعيدة"، "منتجع غراني"، و"دار الألفية الثالثة"، والذي كان مركز دراسة لكل شيء يمكن أن يسمى "الطب البديل". ولو قررت أن تذهب إلى المحجر في تلك اللحظة بالتحديد، فإن «ماريا إنيس» لن ترى أشباحا تتلوى داخل منزل مهجور، وإنما أناس في ثياب بيضاء، يحرقون البخور، وينشدون تراتيل نشاز فوق العشب المشذب.

ولكنها لم تكن تنوي الذهاب الى المحجر. ليس بعد. تركت حقيبتها فوق السرير المغطى باللحاف المطرز الذي صنعته «أوتاسيليا» قبل سنوات، قبل أن تمرض، واختلست نظرة من النافذة، كما لو كانت خائفة مما ستجده هناك. لم تجد شيئا سوى الفناء المعشوشب، لقد نضج هو الآخر. ربما يحتاج إلى بعض الإصلاحات، بعض تقليم للأشجار، وبعض التجديدات. هناك ثلاث أشجار لندن باسقة مع أكوام صغيرة من أوراقها جافة قرب جذوعها.

ثم ذهبت إلى الحمام، الوحيد لغرف النوم الأربع. لم تكن هناك أجنحة بحمامات بيضاء مليئة بنباتات زينة وأحواض استحمام لانكوم زرقاء. كان منزل المزرعة بسيطـًا ، لا هو بالكبير جدا، ولا بالصغير جدا. لا بالقديم جدا، ولا الجديد. نظرت «ماريا إنيس» إلى نفسها في المرآة وأخرجت (الكحل) من حقيبتها الصغيرة وأصلحت من مكياج عينيها. ثم أخذت تقرأ ما هو مكتوب

عليها:" ذي بودي شوب". لم يجرب على الحيوانات. محدد للعينين. قلم كحل. الوزن الصافي 1.15 جرام: بني داكن. غسلت يديها بقطعة صابون على شكل قلب أخضر رائحتها مثل صابون الفنادق الرخيصة (بفضل «برناردو أغواس»، تعرفت على الكثير من صابون الفنادق الرخيصة).

عندما عادت إلى غرفة المعيشة، كانت شقيقتها وابنتها جالستين بالفعل إلى المائدة يشربان العصير. ظهر «إدواردا» لها، تجلس على الكرسي الذي اعتاد أن يجلس «أفونسو أوليمبيو» عليه. نظرت «ماريا إنيس» إلى «كلاريس» ورجحت أن «كلاريس» بدورها قرأت أفكارها. كانت الندبتان واضحتين على معصميها ولم تكن تخفيهما وراء أساور. شعرت «ماريا إنيس» بإحساس شبيه بغصة في القلب، لكنها عرفت أن الأمر يستحق.

فقد بقيت «كلاريس»، رغم كل شيء.

التحقت بهما على المائدة وصبت القهوة في فنجان. تعرف أنها ستجد سكر القهوة زيادة، ولكن لا يهم.

بالخارج، رجل ذو عينين شفافتين يزجي الوقت بالتمشية على طريق مترب.

بالخارج، طيور جديدة تشدو شدواً قديماً.

أن تنسى، بعمق. تدع خاتم الزواج يكوي ذكرياتها. داعبت «كلاريس» خاتم الزواج، حيث انحفر اسم «إلتون خافيير» بداخله. كانت النوافذ مغلقة لأن في هذا الوقت من اليوم يغزو الناموس المنزل. عليها أن تحاذر حتى تنعم بنوم هادئ، فيما بعد. من دون ناموس، من دون أفكار، من دون ذكريات.

سيحصدون الذرة في غضون بضعة أسابيع. ابتسمت «كلاريس»، كان خاتم الزواج يدور في إصبعها. Roda pião, bambeia pião. كان زوجها ووالداه في الكنيسة.

ـــ"لن أذهب، آسفة. ولكن أعاني من صداع فظيع".

محبوبة هي «كلاريس». يمكن تقبل أعذارها، ومسامحتها.

ـــ"أحبك لأنك بلا أسرار"، هكذا قال لها «إلتون خافيير» ذات يوم، فلم تبتسم.

أن تنسى، بعمق. تلك الظهيرة عندما أوقعت «ماريا إنيس» جميع بذور السرو، بذورها الثمينة، في ردهة المنزل، الصرخة، المكتومة، التي جعلت معدتها تتلوى من الألم، من الشفقة، ومن الكراهية.

أن تنسى، بعمق. كل ما رقص في دوامة دائرية في ذاكرتها، السنوات الخمس الطويلة في ريو دي جانيرو، في منزل العمة «بيرينيسي»، وصديقات الطفولة، وفتاة اسمها «لينا»، وخطابات «إلتون خافيير»، والزواج من «إلتون خافيير»، وليلة زفافها التي شهدت انصهار جسدها وانصهار جسده لأسباب مختلفة، وزجاجات الخمر التي أخمدت ذلك الحريق، خمور راقية: البراندي، النبيذ، الويسكي. التخدير اللطيف مثل نسيم ما قبل المساء ومثل أشباح الغابات الليلية.

كان ذلك بعيد عيد ميلادها، في فبراير، خلال أول صيف بعد وفاة والدها. ذهبت «كلاريس» لغرفة نومها لترى كم تغيرت من خلال مرآتها. لم تستشف أي شيء. عندئذ تذكرت «لينا» ووشاحها ذا الورود التي تلطخت بالطين.

لم يكن «إلتون خافيير» في المنزل، ولا والداه. كانت «كلاريس» قد انتهت من إفطارها للتو على المائدة الكبيرة المصنوعة من خشب جكرندا على يد عبيد القرن التاسع عشر. وتجولت لبعض الوقت في منزل المزرعة القديم، ومرت على خادمة تمسح الأرضيات الخشبية الصلبة هنا وهناك.

لم ترتب غرفة نومها بعد، ولا تزال النوافذ العالية مغلقة. لم تضئ «كلاريس» الحجرة، ولم تفتح النوافذ. شهدت صورة وجهها المعتمة في مرآة التسريحة. خلعت خاتم الزواج ونقلته إلى إصبعها الأوسطى، ثم إلى السبابة. فوجدت أنه قد استقر مرتاحاً فيه، ثم إلى إبهامها، حيث بالكاد وصل إلى منتصفه، ثم تركته على التسريحة، بين زجاجة الكولونيا وعلبة بودرة الوجه.

لقد حان الوقت. فتحت «كلاريس» الدولاب واختارت بعض قطع من الملابس، القليل منها. تكاد تسمع صوت «أوتاسيليا» وهي تقول: "حقيبة واحدة فقط". أخذت بعض المال، كذلك، دون أن تعده. صنع حذاؤها صوتا إيقاعيا فوق الأرضيات الخشبية الصلبة. توجهت إلى الشفونيرة حيث استقرت زجاجة داكنة اللون. شرب منها «إلتون خافيير» كأسا أو كأسين، البارحة، أثناء قراءة كتاب «جورج سيمينون»، ذلك الكوب الكريستالي الهش، الرقيق جدا، القابل للكسر حتماً، لا تزال به دائرة بلون القهوة بالحليب في أسفله. التقطت الزجاجة وقرأت: "آيرش كريم".

صبت بعضا من الشراب في الكوب، وشربت.

قبل أن تغادر غرفة النوم، التقطت خاتم الزواج، ووضعته في جيب بلوزتها. دخلت الحمام ورفعت مقعد المرحاض وجثت على ركبتيها على الأرض وتقيأت بينما تدمع عيناها بدموع لم ترغب فيها، دموع لم تكن لأجل «إلتون خافيير» ولا من أجل زواجها الذي يشارف نهايته الآن، ولا على الأطفال الذين لم تنجبهم، ولا على «لينا».

ثم رحلت. شاهدتها الخادمة تمر عليها وهي تحمل حقيبة صغيرة. نظرت إليها ثم هرعت إلى المطبخ لتخبر الأخريات. وفي ذات الوقت، أوقفت «كلاريس» أحد المزارعين وطلبت منه: "«دوليو»، هلا أسديت لي معروفاً وأحضرت عربة تقلني إلى جابوتيكابايس؟".

أطاعها «دوليو»، ولم تتفوه «كلاريس» بكلمة طوال الطريق، وحينما وصلا البلدة نفحته بقشيشاً وصافحته. "هيا، «دوليو»، أعلم أن لديك الكثير من العمل هناك".

ـــ"وكيف ستعودين؟".

ـــ"سأستقل تاكسي".

كانت تكذب عليه. فهي لن تعود إلى هناك أبداً منذ تلك اللحظة.

البلدة رائحتها شروق الشمس. إنها تمام العاشرة من الصباح. مشت إلى محطة الحافلات وهي تحمل الحقيبة وتشعر بالعرق يرطب نحرها ومؤخرة عنقها. اشترت تذكرة لحافلة فريبورغو التي ستغادر في الحادية عشرة والنصف، ثم ذهبت إلى ساحة تظللها الأشجار وجلست على أحد المقاعد الخضراء تنتظر.

تنتظر، وتنظر إلى يديها في اشمئزاز، ثم مع شفقة، ثم حب. تعجز عن أن تحيّد عقلها حتى يتسنى لها فهم القصة بطريقة مختلفة، فهي الشاهد والضحية والجلاد في آن واحد.

إنها «كلاريس» التي كان من الأفضل ألا تجيء إلى هذه الدنيا من الأصل، التي خربت عائلة والآن تخرب عائلة أخرى.

كانت هذه، طبعا، طريقة من بين طرق عدة لتأمل الأمور.

ترنحت الحافلة قليلا على طول الطريق، وشعرت «كلاريس» برغبة في التقيؤ مرة أخرى، ولما لم يكن هناك حمام فكان عليها أن تلجأ إلى كيس من البلاستيك. استدار راكب كان يجلس أمامها وسددها لها نظرة استنكار، كما لو كان بيدها أن تسيطر على أمر لا إرادي مثل هذا. نظفت فمها بمنديل كان في حقيبة يدها، أبيض، من كتان شامبراي، مطرز بالأحرف الأولى لاسمها: هدية من «إلتون خافيير».

لم تعد تعلم كم الساعة وقت أن وصلتِ فريبورغو. لا تفكر في تناول الغداء، لكنها كانت عطشى. دخلت مخبزا وطلب زجاجة مياه معدنية فوارة. شربتها، ولكنها لا تزال تشعر بالخواء، ودوار في الرأس. منفصلة عن كل شيء، كما لو كانت شبحا. للحظة شعرت بأنها لو لامست زجاج الكاونتر فسوف تعبر يدها من خلاله. لكن هذا لم يحدث، في تلك اللحظة دخل صاحب أرض في جابوتيكابايس المخبز، ورأى «كلاريس»، فبادر نحوها يصافحها.

"مساء الخير، دونا «كلاريس». هل أنتِ وحدك هنا؟".

بذلت جهداً جهيداً حتى تومئ برأسها ووتصنع ابتسامة وتقدم له تفسيرا مقنعا. "أتيت لأتسوق".

ضحك: "أحسنت صنعا إذن بأن أتيت وحدك. زوجتي تقول إن الأزواج لا يرتاحون لرحلات التسوق هذه".

ثم قبّل يدها: "استمتعي بالتسوق. تفضلي بتوصيل تحياتي لزوجك وعائلته".

وقفت تراقب الرجل وهو يمضي لحال سبيله، شعرت بتعب في بطنها مرة أخرى. وفي اللحظة التالية، وكما لو أن هناك مخرجًا محنكـًا يدير المشهد، سمعت صوتا خلفها. " أنا أعرفك". استدارت «كلاريس» لترى من تتحدث. كانت امرأة في العقد الثالث من عمرها، امرأة كان ينبغي أن تكون جميلة، ولكنها خبأت جمالها مثل سر وراء هالات عميقة، ونحافة مخيفة، وملابس غير متناسقة.

"أنا أعرفك"، ثم أخذت ببطء نفساً من سيجارتها، ونفثت الدخان، قبل أن تأخذ رشفة من مشروب غازي. "أنتِ ابنة «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو».. من مزرعة «سانتو أنطونيو»".

تركزت نظرات «كلاريس» على زجاجة المشروبات الغازية، وفكرت في شعارها: Quem bebe Grapette, repete. كل من يشرب غرابيت يعود ليشربها من جديد. أرادت أن تقول شيئا، لكنها تنهدت وحسب. رأسها يوجعها.

ـــ"أشعر أنك لست على ما يرام. وأنتِ لا تتذكرينني بالطبع".

Quem bebe Grapette, repete

اقتربت منها.

ــ"أنا «ليندا فلور»، ومؤكد أنكِ تتذكرين مزرعة «إبيس» وما حدث فيها عام 1962. أوه، أنتِ مرهقة يا ابنتي! تناولي بعضا من هذا".

اعتذرت «كلاريس» شاكرة. "لقد وصلت للتو بالحافلة وأشعر ببعض الإرهاق. آسفة إن لم أكن قد تعرفت عليك، وأعتقد أني كنت صغيرة جدا في آخر مرة التقينا فيها".

ــ"وأنا كنت كذلك أيضاً، ولكنك لم تتغيري. مازلت تحملين وجها طفوليا. أوه، معذرة، لم أقصد أية إساءة. بل أعتقد أن هذا مدح لا ذم. فكلتانا في نفس العمر تقريبا، ولكن أنظري لحالي. أنهكتني الأيام. أنتِ لديك أخت أصغر منك".

ــ"تعيش في ريو. تزوجت منذ شهرين".

ــ"وتزوجتِ أنتِ أيضاً".

ــ"أجل. ولكنني انفصلت عنه اليوم"ز

ــ"أوه، يبدو هذا بالفعلِ على وجهك. أين ستمكثين، هنا في فريبورغو؟"

ــ"لا أدري. علي أن أعثر على فندق معقول. وربما نُزل".

Quem bebe Grapette, repete.

ــ"ولم لا تتوجهين إلى ريو، وتعيشين مع أختك؟".

ــ"كلا، لا أرتاح لزوجها. وهو لا يرتاح لي. وعلى كل، أحتاج أن أبتعد عنها لفترة من الوقت".

ـــ"ووالداك؟".

ـــ"لقد توفيا. والدي في العام الماضي. وأمي منذ عامين".

ـــ"فهمت. تبحثين عن سماء جديدة. اسمعي، أنا أعرف بنسيون لطيفـًا هنا. إنه في شارعي. أتودين أن أصطحبك إلى هناك؟".

لم تنتظر «ليندا فلور» إجابتها، وأخرجت بعض النقدية من حقيبتها لتدفع ثمن ما شربته، ثم ابتسمت ابتسامة حلوة لــ«كلاريس».

في تلك اللحظة بالذات، شرعت «كلاريس» في أخذ منحنى الهبوط، وكأنها تستقل دوارة الملاهي، تقودها إلى الجحيم مباشرة. وبدقة أكثر، إلى حيث ندبتي سكين أولفا الموجودة فوق طاولة بعينها، مصنوعة من الخشب القديم جدا، حيث كتب عليها أحدهم بالقلم الحبر الأزرق: «رونالدو» يحب «فيفيان»، وحيث كانت هناك أيضا قطعة خبز جافة صلبة، فوق طبق من البلاستيك ومنفضة سجائر زجاجية على شكل ورقة شجر تفيض بأعقاب السجائر، ومجلة إباحية على غلافها شقراء فاتنة فاغرة الشفتين، لا ترتدي سوى حذاء جلدي ثقيل، وتجلس منفرجة الساقين فوق دراجة هارلي ديفيدسون نارية.

لم تخبر «كلاريس» «إلتون خافيير» بأمر رحيلها عنه إلا بعد أسبوع. لم تكتب له على كراستها الفخيمة المزينة بأول حرفين من اسمها، فهي لم تأخذها معها. بل باحت بسبب رحيلها مستعينة بقلم جاف خط طريقه فوق ورقة

رخيصة، طوتها ثلاث طيات قبل أن تضعها في مظروفها، مظروف مستطيل بحافة تجمع بين الأخضر والأصفر. كتبت خطابًا إلى «إلتون خافيير»، وخطابًا آخر إلى «ماريا إنيس»، يكاد يكون طبق الأصل.

أخبرتهما أنها تريد أن تكون وحيدة، ولهذا السبب لن ترسل بعنوانها، ولكنها بخير. وتحتاج بشدة إلى ترتيب شؤون حياتها وإعادة صياغة مفرداتها.

كانت «ماريا إنيس» تعرف كنه تلك الأمور، أما «إلتون خافيير» فلا. اعتقد، بخياله غير الخصب، أن هناك رجلاً آخر في حياتها، وكان غاضبا، وجمع كل شيء تركته «كلاريس» وراءها في صندوقين أرسلهما إلى منزل «ماريا إنيس» في ريو دي جانيرو. ولاحقا، فهم وغفر، ربما لأنها طبيعته. ثم تزوج، وأنجب أطفالا ، وكان سعيدا، بل واشترى سيارة أحلامه، نصف النقل الحمراء.

أضحت «كلاريس» صديقة لـ«ليندا فلور»، التي بدورها عرفتها بالعديد من صديقاتها في فريبورغو وضواحيها. ومكثتا لفترة من الوقت في منزل إحدى الصديقات في لوميار، حيث كن يدخن الماريجوانا طوال اليوم، وبين الحين والآخر تبحثن عن المشروم لصنع شايه. أخبرتا «كلاريس» أنها الطريقة المثلى للدخول في مستويات طريفة من الوعي (كما يذكر «كارلوس كاستانيدا» في كتبه: "رحلة إلى إكسلان"، فهمتِ؟). لاحقا، اكتشفت أيضا أن الكوكايين فعال في تكثيف مشاعرها وتجميل العالم في عينيها، أما الخمر فهو المخدر.

على أنها أشياء تكلف مالا. وهكذا تحصلت على وظائف لم تمكث في أيها طويلا: موظفة استقبال في مدرسة إنجليزية، ثم بائعة في محل أحذية، ثم مساعدة مطبخ في أحد المطاعم الألمانية، حيث تعلمت كيفية إعداد الفورتز ميت. Wurtz mit Kartoffelsalat und Rotkohl. حتى حل وقت كان من المكلف

فيه جدا أن تعيش في بنسيون. وأمضت خمسة أشهر مع «ليندا فلور» في فريبورغو. ثم انتقلت إلى كورديرو، حيث كان لها صديقة تحتاج إلى من يعتني ببنتها. وبقيت هناك لمدة سنة تقريبا. وبعدها انتهى بها المطاف في نيتيروي، قبل أن تعود إلى فريبورغو لتحاول بيع تماثيلها في تيريسوبوليس.

حتى توقفت عن عمل حساب للمكان والزمان. وتوقفت عن الانتباه حتى لجسدها. والتقت رجلاً اقتادها إلى غرفة مظلمة في بنسيون في حي للعمال في ريو. لم يفرق معها المكان. يشترى لها الويسكي، أما الكوكايين فموجود دوماً. وأحيانا يغيب لثلاثة أو أربعة أيام، لكنه دائما يعود. ذات مرة أحضر لها قطاً هدية، ولكن القط هرب. ربما لأنها جوعته.

إلى أن جاء يوم عثرت فيه «كلاريس» على سكين أولفا.

وقد أسعدها ذلك الإحساس سعادة لم تشعر بها طيلة خمس عشرة أو عشرين سنة.

الآن صار ممكناً.

أن تنسى.

وبعمق.

كانت في عامها الثامن والثلاثين. ولم تعد هناك نوافذ تغلقها اتقاء من الناموس. لم تكن متأكدة من المكان الذي هي فيه، ولكن الرجل الواقف عند الباب بدا لها مثل حارس دخل جسدها (بالكاد شعرت به) وجلب لها الضروريات: الخمر والكوكايين. كانت قد باعت خاتم الزواج (الذي يلف في

إصبعها) منذ دهر، وجلب لها مبلغاً محترماً، فهو ذهب قح. لابد أن «إلتون خافيير» ووالديه في الكنيسة. لا تدري. لا يهم.

صحيح أن الزمن يمر، ولكن «كلاريس» تدرك أنها قد فقدت بوصلتها: متاهة ليس بها خيط «أريادن»، نفق مظلم واسع، حوض لسمكة حمراء صغيرة. صحيح أنها لم تعد تفكر كثيرا الآن، صهرت المخدرات والكحول عقلها فصار مخملياً، وهذا جيد، ولكن صحيح أيضا أن الألم لا يزال قائماً، حاضراً، ساحقاً، مسيطراً.

في السنوات السابقة التي سبقت القرن السادس عشر، كانت السفن البرتغالية تستكشف المحيط الأطلسي. تتذكر «كلاريس» بعضاً من دروس التاريخ، على الرغم من أنها لم تعد تتذكر وجه المعلمة. تتخيل الأشرعة الهائلة، وشعرت أنها هي نفسها سفينة، أو مركب شراعي،الآن هي في خضم المحيط، بين عواصف رهيبة وسكينة مقفرة، وجوع، وعطش، وأمراض، ولا شيء تفعله عدا الصلاة، ولكن «كلاريس» لم تشعر برغبة في الصلاة لأنها كانت جد متعبة، منهكة. والمحيط هائل حولها، أينما نظرت.

طعنة ألم في أحشائها ونفثة دخان من سيجارتها.

خلع الرجل ملابسها عنها، وبالكاد تشعر. الغرفة مظلمة. يداه على ردفيها النحيلين داخل الجينز.

نصف ساعة، وبعدها رحل. قال إنه ذاهب لجلب الطعام. هناك ابتسامة بلاستيكية على وجهها، ليست ابتسامتها. وكأنها اختلست واحدة فقط لتقوم بعرضها على شفتيها؛ كقرط أو كحقيبة يد مسروقة.

بقيت تلك الابتسامة البلهاء مكانها، معلقة على وجهها، حتى بعدما لم يعد لها معنى.

رحل الرجل.

كانت في الثامنة والثلاثين.

لم تأتِ الرياح كما تشتهي سفينتها. وكم هذا مؤلم. وفي بؤرة كل شيء. تعرف «كلاريس» ما في بؤرة كل شيء. لقد ذهبت إلى المدرسة، وكبرت، وصنعت الكثير من المنحوتات والقليل من الأصدقاء، وتزوجت، بل حتى تعلمت التطريز بالإبرة، فما الذي استفادته؟

لدى أحدهم عصفور كناري في الشقة المجاورة، وبدا الطائر الصغير أنه سيظل يشدو حتى ينفجر. إنه يشدو بإصرار ليجتذب الأنثى التي لن تأتي أبداً، لأن إناث الكناري لا تستقر مع ذكر محبوس في قفص. هكذا أرادت الطبيعة، حتى ولو كانت هناك واحدة منها تطير على غير هدى في الحي، وهو أمر شبه محال. وهناك امرأة تغني بصوت جهوري وهي تغسل الصحون في مطبخها. تسمع «كلاريس» صوت الصحون وهي تتراص. ثم طفل يئن ويتشكى فترد عليه صاحبة الصوت الجهوري بالسباب واللعنات، بينما يستمر الكناري في الشدو.

بعمق.

سكين أولفا الموجودة فوق طاولة بعينها، مصنوعة من الخشب القديم جدا، حيث كتب عليها أحدهم بالقلم الحبر الأزرق: «رونالدو» يحب «فيفيان». وحيث كانت هناك أيضا قطعة خبز جافة صلبة، فوق طبق من البلاستيك ومنفضة سجائر زجاجية على شكل ورقة شجر تفيض بأعقاب السجائر،

ومجلة إباحية على غلافها شقراء فاتنة فاغرة الشفتين، لا ترتدي سوى حذاء جلدي ثقيل، وتجلس منفرجة الساقين فوق دراجة هارلي ديفيدسون نارية. وفي السقف مروحة تدور في كسل، وتعجز حتى عن استثارة الهواء المعبق بالتبغ.

هناك حوض استحمام بورسيليني أبيض (قذر) في الحمام. وهذا طبيعي، فدوماً ما تكون هناك أحواض استحمام في مثل تلك اللحظات.

دارت «كلاريس» حول نفسها.

عندما مزقت شفرة حادة لحم معصميها ووجدت العروق الداكنة فقطعتها بكل يسر، أمكن لـ«كلاريس» لحظتها أن تستعيد ابتسامتها المعهودة. فهي لم تعد تشعر بأي ألم. حرة هي الآن، مثل كائن خالد استعاد خلوده، وهذا الدم الذي يلطخ ماء الحوض دليل الخلاص من الجسد الفاني.

تغلق عينيها في سكينة.. في سعادة.

فوق الطاولة، وبالتحديد فوق مجلة البورنو، حطت ذبابة، بين نهدي الشقراء المكتنزين، الجالسة على الهارلي ديفيدسون، لتقتات على فتات الخبز.

كان خاتم الزمرد جميلا إلى حد السخف، قابعًا في صندوق صغير من المخمل الأزرق الداكن، حتى يبدو مثل خاتم خطوبة، تلقته منذ ثلاث سنوات فحسب.

تأنقت «ماريا إنيس» لحفل تخرجها، في فستان أحمر، لون يغازل بشرتها الشاحبة وشعرها الداكن الكثيف. سيمفونية حمراء. وعندما صعدت لتسلم شهادتها، راقبها الرجلان اللذان شغلا حياتها، وهما يحاولان استشراف المستقبل، ويعجزان. وبين ذراعي المربية، استقرت «إدواردا» نعسانة، فهي بعد في عامها الأول وبزيادة بضعة أشهر، وهناك شريط وردي يوصل السكاتة بالفستان. كان «توماس» قريبا كفاية ليرى الطفلة، جواربها البيضاء وحذاءها الجلدي الأصيل، تزين كل فردة منه شريطة. "بندانة" بيضاء تسيطر على شعرها الخفيف الناعم. ورداء أميرة، وردي. استقرت فوق المقعد دميتها القماشية وشنطة كبيرة لابد أنها تحوي زجاجات الرضاعة والحفاظات. تهدهدها المربية بهدوء مثل كرسي هزاز، فبدأت عينا «إدواردا» تغمضان، استحالتا خطين صغيرين ، قبل أن يسلما لسلطان النوم.

عيناها الشفافتان.

إلى جوارها «جواو ميغيل»، الذي لم يلتقه «توماس» قط شخصيا حتى ذلك الحين. ابن العم وزوج حبيبته. أو ربما وجب ترتيب الأمر في تسلسل هرمي مختلف. تنهدت «إدواردا» الرضيعة بعمق، لم يسمعه «توماس» ولكنه استشعره من حركة صدرها، قوس صغير للأعلى، ثم إلى أسفل. وفي غضون ذلك، كانت والدتها بلقب الدكتورة، تحمل شهادتها بيد يلتمع فيها الخاتم الزمردي. حقيقي أصيل.

لاحظ «توماس»، بوجدان كسير، أن بطنها قد برزت قليلا من أثر الحمل والولادة. الأمر الذي زاد جسدها جمالا على جمال. صار أكثر واقعية للأسف. أضحى فخذاها أعرض تحت الفستان. ثماني سنوات. كانت تلك مدة الهذيان. فقط لأنه قرر ذات يوم أن يقارنها بلوحة «ويزلر» وأن يرسم وجهها اسكتشا،

وأن يناديها عبر النافذة لتأتي لتراه. فتاة. صارت الآن متزوجة، وأنجبت طفلة، ونالت شهادة الطب بيد يلمع فيها خاتم من الزمرد الأصيل.

يئس «توماس» من محاولة استشراف المستقبل. فالمستقبل هو اليوم. وربما كان بالأمس. لقد تأخر المستقبل، أو أن «توماس» هو من تأخر عن مستقبله. فالزمن ثابت والكائنات تمر. تطلع إلى ساعته، السابعة واثنتا عشرة دقيقة. و«ماريا إنيس» جميلة بجسد أم زادها جمالا، أضحى طاغيا في الفستان الأحمر. زوجها بين الحضور، في بدلة زرقاء داكنة. وابنتها بين الحضور، أميرة وردية نائمة في أحضان مربيتها.

لحظتئذ أدرك «توماس» أن حكايتهما ماتت واستقرت تحت الثرى. في تمام الساعة السابعة واثنتي عشرة دقيقة. لمح طيف شاب أمامه، كان قد كرس نفسه وروحه لوهم امرأة. نظر إلى رجل اسمه «توماس» وإلى المرأة التي استمر يلتقيها حتى بعد زواجها، ونظر إلى الطفلة النائمة في حجر مربيتها. الأميرة الوردية. والملكة الحمراء. أما هو فليس سوى...الأمير الضفدع. في تلك الحكاية.

شعر بتعب؛ شيء يعتصر بطنه، حتى ظن أنه على وشك التقيؤ في مكانه، بين الضيوف المتأنقين في حفل خريجي كلية الطب. بين الشهادات والزمرد الأصيل والكثير من الزمرد الزائف، بين أطباء وطبيبات جدد، سعداء مشرقين بكل فخر، وأسرهم اللاتي أتت في كامل أبهتها. وقف عن مقعده وخرج بصعوبة متفادياً السيقان حتى وصل إلى الممر المفضي إلى خارج القاعة. كان الممر مفروشـًا بسجادة حمراء ، سجادة حمراء للملكة الحمراء. شعر «توماس» بعينيها مسددة إلى ظهره، تخترقه مثل سكاكين، تؤذيانه. فكر أن عليه أن يستدير وينحني إجلالا وإكبارا. وكأنه يرسم علامة الصليب عند مغادرة كنيسة. ولكنه لم يستدر ولم ير «ماريا إنيس» ثانيةً في جسد أم جميل و«إدواردا» الصغيرة ورأسها المستريح على كتف

مربيتها. انسحب بخطى سريعة جدا، فقد ظن أنه لن يكون قادرا على السيطرة على تشنجات معدته وأنه سيتقيأ من فوره.

هذه هي نهاية الحكاية. رأت «ماريا إنيس» باب القاعة الهائل ينفتح وينغلق ليبتلع صخب المدينة «توماس» في أحشائه. لقد قرر أن يرحل عنها، تماماً كما رحلت هي عنه منذ سنوات.

الفصل الثاني عشر
ثلاثة عشر عاماً..أربعة عشر صيفاً

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، كانت هناك فراشة تلهو في الهواء الجبلي الطلق وترقص فوق محجر محرم، حيث تستدفئ السحالي الرمادية بأشعة الشمس. وفي مسارها الروتيني، ترى الفراشة في ناحية مزرعة مهجورة ومنزلاً تنمو فوق سطحه نباتات، وفي الناحية الأخرى ترى مزرعة نشطة ترعى حيواناتها في المراعي، فتبدو من على هذا البعد مثل دمى ويبدو النهر مثل خيط ذهبي طويل.

على ضفاف النهر أربعة أطفال. الكبرى اسمها «لينا»، ولم تكن تعرف معنى الخطر بعد. لم تكن قد أخذت ذلك الوشاح ذا الورود الحمراء، وكان شعرها يلمع في ضوء الشمس. انحبست قطرات صغيرة من الماء بين خصلات شعرها الأشعث كما لو كانت حبات ألماس. جميلة هي «لينا».

تسبح في ملابس سباحة بلون صفار البيض. وقد استحال الرداء إلى هذا اللون منذ أن تخلت فتاة عنه لأنه قد صار موضة قديمة، وكان واسعا على «لينا» بعض الشيء. مع «لينا» ثلاثة أصدقاء: «كلاريس»، «كاسيميرو»، و«دامياو». كانوا يلعبون، ويصنعون من ورق الشجر زوارق صغيرة أطقمها رجال صغار صنعوهم من أعواد الثقاب. حياتهم، في تلك اللحظة، هي السعادة ذاتها، سعادة بالغة سوف تستوجب لاحقاً اهتماماً وتصحيحا.

أسمت «كلاريس» تلك اللحظة في حياتها: "قبل كل شيء". لم يكن بوسعها أن تتخيل، حتى في أسوأ كوابيسها. ومع ذلك، كان كل شيء ضعيفـًا وهشـًا، مثل أسنان على وشك السقوط، أو خيط في بيت عنكبوت. ضرب ماء النهر خصر

«كلاريس». بدا ثدياها تحت رداء السباحة مثل ثمرتي كمثرى صغيرتين ناضجتين. إنه الصيف وستبلغ الثالثة عشرة خلاله. ثلاثة عشر صيفاً. فكرت في ذلك، فقالت بصوت عال: "لأنني ولدت في الصيف فإنني سأبلغ الثالثة عشرة، ولكنني عشت أربعة عشر صيفاً". لم يفهم البقية هذه الحسبة، وحدقوا في وجهها للحظة وسرعان ما عادوا إلى اللعب.

ثم تجمعوا عند ضفة النهر، وقاموا بتجميع كتلة من الطين، الذي صنعت «كلاريس» منه تمثالا. الساعة تجاوزت الخامسة بالفعل، والسماء تستحيل إلى الأزرق الداكن، وكان هذا إيذاناً برحيلهم عن المكان.

قالت لهم: "يمكننا أن نلعب ثانيةً في الغد".

ارتدت تنورة وبلوزة فوق ملابس السباحة. وارتدت الصندل. وصلت المنزل ترفرف مثل فراشة المحجر المحرم، وترى كل شيء ولكن لا تتخيل شيئاً. كان والدها جالسا في غرفة المعيشة، في الكرسي خردلي اللون. بينما كانت والدتها في القرية، تتسوق. اصطحبت معها خادمة لمساعدتها. أما «ماريا إنيس» فكانت في مكان ما لا تعلمه هي، (ربما أعلى المحجر الممنوع، يغطي القراد جسدها وابتسامة منتصرة وجهها) تلعب مع ابن عمها «جواو ميغيل» الذي لا تحبه «كلاريس» ، وهو بدوره لا يحب «كلاريس». دخلت المنزل عبر المطبخ لأنها كانت مبتلة و لم ترغب في أن تتسخ أرضية غرفة المعيشة. إنها «كلاريس»؛ المطيعة، المنصاعة، الرزينة، المنقادة، المهذبة، المؤدبة، الحصيفة، المحبوبة.

انتقت ملابس نظيفة، بلوزة قطنية بيضاء.

سروالاً داخليًا أصفر حوافه بيضاء، فوقه شورت سماوي من البوليستر، ساخن بعض الشيء، ولكن «كلاريس» تحبه، وذلك بسبب الأزهار التي تزين وسطه. وارتدت في قدميها الصندل الجلدي.

فراشة تحوم فوق المحجر.

في تلك الظهيرة أتى؛ بالغًا، ناضجًا، رجلاً.

رجل، وبنت تريد أن تكون فتاة، ليس إلا. ولم تكن تعرف أنها، وبعد سنوات، ستستخدم سكين أولفا حادة على رسغيها. لم تتخيل نفسها مدمنة للكحول أو الكوكايين، ولكن، ربما، معلمة علوم. أو فنانة - نحاتة، بالطبع، أما جميلة أنيقة طويلة الأطراف لثلاثة أولاد وثلاث بنات، ومتزوجة من كاتب شهير وسيم يدخن البايب. لديها ثلاثة كلاب مرقشة، وكلبان: بودل، و داشوند. تتسوق في القرية مع شقيقتها الصغرى التي ستصير راقصة باليه شهيرة. تضحكان. وتشربان الشاي.

تسافران بالطائرة.

رجل. دلف إلى غرفتها، وأجلسها على حجره، ولم تكن خائفة، في البداية، لأنه أبوها. ضحكا. وتكلما قليلا.

داعب يديها.

داعب ذراعيها.. كتفيها.. نهديها.

تجمدت «كلاريس» مثل أرنب وجد نفسه أمام مفترسه بغتة. الصقر يدنو محلقاً نحوه. ثم حاولت أن تحرر نفسها، ولكنها وجدت ذراعه قوية. لثم عنقها بشفتيه، فتسارع نبض قلبها كدقات الطبل.

شعرت برغبة في أن تتقيأ، ولكن خوفها هيمن حتى على هذا الإحساس. بقى الغثيان حبيسا عند فم المعدة حتى ذلك اليوم البعيد الذي ستقرر فيه الرحيل عن زوجها، وتستقل الحافلة من جابوتيكابايس إلى فريبورغو. وستتقيأ في كيس من البلاستيك، وسينظر بعدها أحد الركاب في عينيها بكل سخط.

يد الرجل فوق نهد شديد البياض. بشرتها العذراء. تلك الحلمة التي يقرصها وكأنه يملأ الساعة. يد رجل على بطن «كلاريس» الملساء، وأنفاسه تلهث بحرارة وتظهر من سرواله كتلة تجهلها ولا تعرف من أين أتت. "السوستة" التي فكها بيمناه، بينما تبحث يسراه الحارة عن شيء بين فخذيها. عيناه مغمضتان. عيناها مفتوحتان جامدتان كعيني جثة ، وكانتا، إلى حد ما، بل بالفعل، عيني جثة.

إنها «كلاريس»؛ المطيعة، المنصاعة، الرزينة، المنقادة، المهذبة، المؤدبة، الحصيفة، المحبوبة. وسيفعل ذلك مجدداً، ومجدداً، ومجدداً، وبكل الطرق الممكنة. وذات يوم سيعتليها ويقحم جسده الرجولي البالغ في جسدها الأنثوي الصغير، وستشعر بطعم الدم في فمها لأنها تعض على شفتيها بشدة، وبخوف، وبكراهية. تقبض يداه على فخذيها بقوة، لدرجة أنها ستجد في مكان القبضة

كدمات. يبلل لسانه أذنيها ويلعق شفتيها التي هرب اللون منها، ويقتحم فمها، وكأنه يتأكد أنه لم يعد هناك أي سر باق. وأي حلم قائم.

مجددا ومجددا ومجددا. إلى أن تقرر «أوتاسيليا» أن ترسلها بعيدا في تاكسي مع حقيبتين. بعد فوات الأوان.

عندما غادر «أفونسو أوليمبيو» غرفة نومها، لم تبك «كلاريس». ذهبت إلى الحمام. ولم تتقيأ. أخذت حماما جديداً. شيء ما تحطم في داخلها من دون أي صوت. هي نفسها تحطمت: روحها داخل جسدها. «كلاريس» التي بداخل «كلاريس». شعرت بنفسها ضعيفة، لدرجة أنها قد تموت وتنسحب روحها مع دمعة، قطرة ماء تذهب في الحوض الذي فيه تستحم.

أتى الإحساس بالذنب بعد ذلك. بالطبع، هذا طبيعي. لابد أنها قد اقترفت بحق والدها شيئاً دفعه إلى أن يفعل بها ما فعل. هي تدرك أن ما حدث ليس في جله نوعاً من العقاب. ولكن، هل هو رد فعل؟ تماماً كما تتجاوب معها «أوتاسيليا» بعينين باردتين لن تعثر أبداً على تفسير لما حدث. وستعيش ما قدر لها أن تعيش وهي تحمل على جسدها بصمات ما فعل بها والدها، وكأنه وشم أبدي.

مثل سجينة في معسكر تعذيب، ومثل الماشية في قطيع. أدركت «أوتاسيليا» ما كان يجري في بيتها، في عائلتها، قبل أن تحسم أمرها بوقت طويل.

ولم يتفوه أحد ولو بكلمة.

بينما هربت «ماريا إنيس» وهي تسقط بذور السرو في الردهة، يوم أن شاهدتهما في غرفة النوم: الرجل.. البنت.. الأب.. الأخت..«كلاريس».

المطيعة، المنصاعة، الرزينة، المنقادة، المهذبة، المؤدبة، الحصيفة، المحبوبة.

الفصل الثالث عشر
احتفالات يونيو

ازداد التهاب عيني «ماريا إنيس» الناريتين في تلك اللحظة الحاسمة عندما شاهدت والدها يعري «كلاريس»، ويقرص حلمة نهدها كما لو كان يملأ ساعة يد، ثم يدفن وجهه في شعرها.

كانت «ماريا إنيس» تحمل كنزا بين يديها، وسقط كنزها أرضا وتهشم. لا يمكن أن تصدق أبدا مرة أخرى أن حفنة من بذور السرو يمكن أن تكون لها قيمة. تحولت أفكارها إلى استراتيجيات حرب.. سريعة جدا.. مؤرقة.. مموهة.. مدججة بالسلاح ومستعدة لأي شيء. نظمت «ماريا إنيس»الواقع كأفضل ما تستطيع ضمن مساحة ضيقة أتاحتها سنواتها التسع. فتحت الأدراج.. أطبقت الأدراج.. رمت الأشياء القديمة والأشياء الجديدة كذلك، فرغم أنها جديدة إلا أنها لم تعد تناسبها، بين عشية وضحاها: مثل السحر. كما لو كانت قد استيقظت ووجدت أن قدميها قد كبرتا في الحجم بغتة فاضطرت إلى التخلص من كل أحذيتها، حتى أجملها، حتى حذاء البالية المستورد الجديد. فتحت أبوابًا وأغلقت غيرها، وبعناية أحكمت إغلاق تلك الأخرى. غلّقت النوافذ بالمسامير وألواح الخشب، وغطت الثقوب بالشريط اللاصق. وصنعت لنفسها أقنعة، وكأنها تلعب دور ممثلة. لكن حتى لعب الأطفال هذا اكتسب جدية. لعب طفلة حزينة ساخطة.

في ذلك الحين، كانت «ماريا إنيس» في التاسعة. لم يكن بيدها شيء، وكانت تدرك ذلك. أسكتت نفس الكلمات التي وافق الآخرون على إسكاتها. ومع ذلك، ففي ذلك الحين كانت دوما تحب أن تتحدى كل ما كان ممنوعا. هذا مصدر

الإثارة في حياتها. طوت «ماريا إنيس» تلك العيون النارية في نواة وجودها، كما لو كانت مولودا يخلق بكل عناية وصبر.

تنتظر.

شاهدت «كلاريس» ترحل إلى ريودي جانيرو في تاكسي ذاك الصباح الذي عثرت فيه على «لينا» مطروحة على الطريق. وتوسلت من مكنون داخلها: "أنقذي نفسك، أرجوك".

لم يقترب «أفونسو أوليمبيو» من «ماريا إنيس» أبداً. تظاهر أنه يتجاهلها. ولكنه في الحقيقة يخشى الابنة الصغرى مثلما يخشى الشيطان نفسه. وفي تلك الأيام ربما كانت «ماريا إنيس» هي الشيطان نفسه. وعامدا ؛ ارتأى أن أفضل وسيلة للدفاع هي، كما كان الحال منذ بداية الزمان، الهجوم.

نجت «كلاريس» بنفسها. ذهبت إلى ريو دي جانيرو. درست لفترة. ثم عادت مباشرة إلى مذبح الكنيسة الصغيرة في جابوتيكابايس. ثم اشتد المرض على «أوتاسيليا» وماتت. وفي السنة التالية تحديدا نضجت النار التي في عيني «ماريا إنيس» (الشيطانية). أضحت مثل الخمر الممتاز؛ لابد من تذوقها. خمر مخصوصة، عنبها حظي بالقدر المضبوط من أشعة الشمس والمطر وهو في تربة مخصبة بعناية فائقة.

لم يحتفِ أحد بالذكرى السنوية لوفاة «أوتاسيليا». كان الشهر يونيو 1976. أشياء تحدث في جميع أنحاء البرازيل خلسة، وفي تلك اللحظة بالذات كان هناك معذبون منهمكون في مهمة إجبار بعض السجناء السياسيين على الاعتراف (بأي شيء) أو بالجنون. أو الخيار السهل غير المرغوب: الموت. هناك

في جلسات التعذيب في العادة طبيب لتقييم مدى احتمال المعتقلين للضرب، وللصدمات الكهربائية، و للإغراق.

سيغني «برناردو أغواس»: “Si ch’io vorrei morire”. لـ«مونتيفيردي».

لم يكن هناك مجال في مزرعة بالقرب من جابوتيكابايس لأي من ذلك. فقد صار «أفونسو أوليمبيو» سكيراً في حالة يرثى لها، محبوسًا في سجنه الخاص. يسمع أصواتا في السكون ويسمع سكوناً في الأصوات.. واعياً.. واعياً مائة بالمائة. كلما ازداد سكره ازداد وعيه. أحيانا تمر عليه «كلاريس» لتزوره. والدها وعدوها، ولكن دائما بصحبة زوجها. لم تفهم «ماريا إنيس» المغزى. فهي نفسها، «ماريا إنيس»، تود لو نسيته تماما. ألا تراه مرة أخرى، ألا ترى تلك اليدين فتتذكر ذاك اليوم الذي كانتا فيه تعتصر نهدي فتاة صغيرة. وفي الوقت نفسه، كانت تعرف أن المواجهة آتية لا ريب في يوم ما. ولو مواجهة واحدة فحسب، مواجهة أخيرة.

ربما تعلم «كلاريس» أيضاً، ولكنها صابرة حتى حين، وتقوم بتلك الزيارات الخداعة التي يعاني «إلتون خافيير» خلالها، ويجد نفسه بعدها مضطراً إلى أن يقول لها: "يالوالدك المسكين، في غاية الاكتئاب من بعد وفاة دونا «أوتاسيليا»".

"والدك المسكين"، هكذا يصفه «إلتون خافيير»، زوج «كلاريس». ومن ثم يستلقي فوق الأريكة ليقرأ لـ«سيمينون». أما هي فستدعي أن لديها صداعًا، وتستغل أرقها في التجوال خلال شرايين منزل المزرعة القديم، خلال الغرف العديدة ذات الأسماء العديدة، وتزور المطبخ حيث تنام القطط متكورة بجانب موقد لا يزال دافئاً. تمر على غرفة نوم حماتها وحماها فتسمع شخير الحمى فتتذكر أن حماتها تسد أذنيها بكرات من القطن كل ليلة. ثم ترقب الطيور

نائمة في القفص هائل الحجم بالفناء الداخلي، تطوي أجسادها كما لو كانت هي بدورها كرات كبيرة من القطن.

تجهز «كلاريس» الحلوى التقليدية لاحتفالات القديس جون خلال يونيو: الكوكاداس البيضاء والسوداء بجوز الهند وحلوى اللوز والفول السوداني وأطباق كانجيكا الذرة الحلوة وجوز الهند. أتت «ماريا إنيس» من ري ودي جانيرو لأنها تعشق احتفالات يونيو: القبعات المصنوعة من القش ذات الضفائر المستعارة، وشمًا مرسومًا على الخدين بالكحل، أفواهًا بأسنان اسودت فتخال أنها مفقودة، وأفواهًا أخرى بأسنان مفقودة حقاً تحاول، وياللمفارقة، أن تختبئ وراء ابتسامات على فم مغلق. كل من يمتلك زيا تنكريا يرتديه: سراويل ذات رقع وقمصانًا ذات بقع، وعصابات مربوطة حول أعناق، أحذية عالية الكعب، فساتين ملونة ذات كشكشة عند الركبتين وجوارب بيضاء طويلة. ومن لا يمتلك زيا يصطنعه، فيرتدي سراويل ذات رقع تغطي فجوات حقيقية، وأحذية طويلة الرقبة كانت في الأصل أحذية عمال وأحذية حفلات تستخدم فقط عند الضرورة، وكذلك فساتين كاليكو منمقة لا ترتديها النساء إلا في قداس الأحد (ثم تخزنها في الأدراج مع قطع الصابون) وفوقها سترة صوف، اتقاءً للبرد.

ينخرطون في الألعاب: رقصة التفاح، والكراسي الموسيقية، ومسابقات الصيد، رسائل حب مكتوبة (لا تلقى هذه رواجا، لأن السواد الأعظم أمي). ويسود شعور بالتفاؤل وسط كل هذه اللافتات الملونة والمعلقة على شرائط طويلة توزع البركات

على كل شخص وكل شيء. الذرة على أرغفة الخبز، كوارو الذرة، وبودنغ القرفة، ومربعات حلوى الباسوكا بالفول السوداني. الشعلة الضخمة التي يتحلق حولها الجميع فينسون برد الليل، ويتحدى الأطفال بعضهم للقفز عبرها فيما بعد. فتسمع تحذيرات كبار السن: *من يلعب بالنار يبلل السرير*.

ينتاب «ماريا إنيس» شعور رائع خلال مهرجان يونيو. وفي الليل تقتاد أختها لترقص معها في الساحة، "بما أنك لا ترتدين زيا تنكريا، «كلاريس»، فلا بأس من أن تكوني أنتِ الرجل في هذه الرقصة".

لم يذهب «أفونسو أوليمبيو» للحفلة. وتفهم الجميع أنه لا يزال في حداد. شعروا بالأسف له، الأرمل «أفونسو أوليمبيو» في المنزل وحده. شعر الناس عموماً بالأسف لأجل «أفونسو أوليمبيو» حتى سامحوه على انغماسه في الخمر، فوجهه وجه ضحية، وسلوكه سلوك ضحية. وقالوا لبعضهم إن على ابنته التي تعيش في ريو دي جانيرو أن تعود لتعيش معه. ولكنهم سرعان ما يتذكرون أن هذه هي سنة الحياة: نربيهم، ونمنحهم كل حبنا، وبعد ذلك، لا شيء. يالهم من صعاليك جاحدين.

قفزت الابنة الجاحدة فوق النار مع الأطفال، وشعرت بوجهها يحترق في برد الليل. أمسكت بأهداب تنورتها، فكشفت عن جوارب بيضاء طويلة. في حذائها الجلدي الأصيل، ارتفعت قدماها عالية نحو السماء المظلمة الخالية من النجوم، وتراقصت ضفائرها في الهواء. أحكمت قبعة القش فوق رأسها بيسراها. في تلك الليلة كانت «ماريا إنيس» سعيدة جدا. تراقبها «كلاريس»، بملابسها العادية، وانعكس وهج النار البرتقالي على وجهها وعينيها. يمكنك أن ترى شعلتين صغيرتين تتراقصان في عيني «كلاريس»، بينما في عيني «ماريا إنيس» تحترق النار من الداخل، غير مرئية مثل سرها.

حينما هدأت ساحة منزل عائلة «إلتون خافيير»، خمدت آخر جمرات في الشعلة، قبيل حلول الصباح. جمع الخدام الأطباق والأكواب الورقية المتناثرة هنا وهناك. جاء «إلتون خافيير» وضرب الأرض بقدميه ليتأكد من انطفاء الجمرات وغطاها بالتراب. اطمأن إلى أنها انطفأت تماما، ثم مشى نحو «كلاريس».

ــ"هل ستأتين؟".

ــ"سريعاً".

رمقت أختها، ففهم أنهما تريدان البقاء معا لبعض الوقت، حتى ولو كان الوقت قد تأخر والبرد قد ازداد حدة، فلم يعترض.

تجلس «ماريا إنيس» قبالتها، على جدار حجري منخفض، وتداعب الأرض بحذائها الجلدي الأصيل الذي صار متربا. اقتربت «كلاريس» منها وهي تنظر وراءها وترى شخصًا آخر خادمة تختفي في الظلام، ووشاح أبيض على شعرها، بينما ترتدي الأبيض، فبدت مثل شبح يتوارى. هناك بوم ينعق حولهما، وغيره من طيور الليل. وشجرة صفصاف كبيرة وارفة بفروعها على الأرض، وأصوات مياه جارية قريبة.

أحاطت «كلاريس» خصر «ماريا إنيس» بذراعها من دون أن تنظر إليها. لم تتكلما. جلستا هناك بلا حراك، على مقربة من بعضهما ، وقد شحبت شفاههما ووجنتاهما من البرد، في ليل بلا نجوم. تنظران إلى التل الذي وراءه استقر بيت الطفولة، بيت «أوتاسيليا» و«أفونسو أوليمبيو»، حيث حدثت أمور خبيثة، حيث أصاب الأرق الأب، وكان وحده يثمل، ينظر في اتجاه التل الذي من ورائه تناديه بنتاه بأفكارهما، وكأنهما ساحرتان.

جرى القداس الأسود في اليوم التالي. استيقظت «ماريا إنيس» في وقت متأخر تعاني من صداع، ولكنها ابتسمت وهي تكتشف أنها لم تبلل السرير. كانت تبيبت في غرفة الضيوف، جوار غرفة تبيت فيها شقيقتها و«إلتون خافيير». تتطلع إلى انعكاس صورتها في مرآة التسريحة البيضاوية. التقطت فرشاة وبنفس اليد التقطت زجاجة ماء وملأت كوباً حتى نصفه. أخذت تبحث في علبة زينتها عن أسبرين. ثم توقفت أمام المرآة ومشطت شعرها ببطء. ارتدت روباً فوق منامتها القطنية وذهبت إلى غرفة الإفطار حيث ينتظرها على المائدة.

ينتظرها.

حمو «كلاريس» جالس عند رأس المائدة، مستريح تماما في دوره: البطريرك الأكبر. شاربه مشذب وحذاؤه الثقيل لامع. وضع على المائدة، كما يضع المرء مفاتيحه، عصا جلدية يستخدمها مع حصانه.

ـــ"صحوتي متأخرة. لقد ذهبت إلى الحظيرة ثم إلى جابوتيكابايس لشراء الكيروسين وعدت والآن أفطر للمرة الثانية".

ـــ"في الليلة الماضية نمنا متأخرين. واستيقظت أعاني من صداع".

ـــ"أتريدين أسبرين؟".

ـــ"تناولت قرصا بالفعل، أشكرك".

ـــ"القهوة تنفع للصداع. تناولي شيئاً منها".

تحدثا عن أمور غير ذات بال. ولاحظت «ماريا إنيس» أن شفتيه بالكاد تتحركان أسفل شاربه الأشيب الكث. وحينما سمع الساعة تدق العاشرة نهض،

برشاقة رياضي: "أستأذن منك الآن، فلدي عشرات الأمور التي ينبغي الانتهاء منها قبل الغداء".

لاحقا، قررت «ماريا إنيس» أخيرا أن تبحث عن «كلاريس» التي لا تدري أين هي منذ الصباح. ووجدت حماتها في المطبخ مع الخادمات، فسألتها: "هل رأيتِ «كلاريس» هذا الصباح؟".

ـــ"أجل. قالت لي إنها ستخرج لتتمشى، ومشت عبر الطريق. أظن أنها مشت في اتجاه منزل والدك".

ـــ"هل كان «إلتون خافيير» معها؟".

ـــ"لقد ذهب إلى الجمعية التعاونية. ذهبت «كلاريس» وحدها".

شكرتها «ماريا إنيس» وغادرت المطبخ. كانت هادئة. عبرت منزل المزرعة من طرف إلى الآخر وهي لا تسمع سوى صوت خفها الأجوف على الأرض الخشبية. وصلت الباب الأمامي الذي كان مفتوحا وهبطت العتبات الخمس التي تفضي إلى الفناء. وعبرت الزقاق الأوسط واتبعت المسار الصغير الذي يؤدي إلى الطريق الرئيسية. كانت هناك غيوم في السماء، ولكن لا تهديد بمطر، وانعطفت يسارا، في الاتجاه الذي سيؤدي بها إلى باب والدها الأمامي. لم تكن تنوي بالضبط الذهاب إلى هناك. حدست أن «كلاريس» في مكان جديد تماماً، في المحجر المحرم. حيث تحوم فراشات متعددة الالوان فوقه في تحليقات ممكنة.

إنها تجول حول منزل «أفونسو أوليمبيو» وتتحسب حتى لا يراها أحد. ثم مشت إلى أعلى التل، عابرة المراعي حيث أبقار تجتر بتأمل. لابد أن القراد سيهجم عليها. ولن تكون هذه هي المرة الأولى. هذا من دون شك ضريبة كسر

القانون، وعدم احترام المحرمات. ثم ذهبت عبر الغابة على طول درب خافت الضياء، زارته من قبل مرات عديدة. شاهدت نفس الأشجار وذلك الجذع الذي لن تنساه وقد غطته الأشواك التي أمسكت بها عن غير قصد ذات يوم، بيديها عديمة الخبرة. هي الآن تعرف كل الفخاخ ولديها حاسة سادسة تحدس المفاجآت. بالممشى جذور لا تحصى، ولكن «ماريا إنيس» لم تعد تتعثر فيها.

كانت تتصبب عرقا عندما وصلت إلى المحجر. خلعت سترتها، وعقدتها حول خصرها، وحدقت بعينين نصف مغمضتين لأن سطوع الصباح الرمادي أزعج عينيها. بدا شخص «كلاريس» الساكن على خلفية السماء مثل حيوان. كادت «ماريا إنيس» تعتقد أنها إن أقدمت على أية حركة مفاجئة فسوف تخيفها وتجعلها تجفل بعيدا؛ «كلاريس» التي تجمع بين اللطف والغرابة في الآن نفسه.

مستعصية، عنيدة مثل ذئب، والفخاخ من حولها.

رأت «كلاريس» أختها تصل، ولكنها لم تفر. كما أنها لم تندهش.

ــ"لم أنم جيدا البارحة. استيقظت مبكرا. كنتِ لا تزالين في غرفتك، وانتظرت لزمن قبل أن أقرر المجيء إلى هنا. علمت أنك ستعرفين".

تردد صوت «كلاريس» بين الصخور حتى وصل صداه بنعومة إلى «ماريا إنيس».

ــ"منذ سنوات بعيدة قمت أنا و«جواو ميغيل» بزراعة بعض النقود المعدنية هنا. لنرى إن كانت ستنبت منها شجرة مال".

رسمت بقدمها خطـًا رفيعًا في التراب بين الصخور.

ـــ"وهل نبتت؟"، سألتها بشغف.

ــ"ليس بعد. لابد أن البذور كانت سيئة"، ردت «ماريا إنيس» وهي تبتسم.

اقتربت. تسلقت الصخور بحميمة من يعرف تضاريسها جيدا. إلى جوار «كلاريس»، حطت فراشة متعددة الالوان تفتح وتغلق أجنحتها في حركات بطيئة، كما لو كانت تتمغط بجسدها. أسفلهما مزرعة «إبيس». علقت «كلاريس»: "إنهم يحرثون المراعي. لابد أنهم قاموا بتأجير جزء من الأرض".

ثم نظرتا إلى بعضهما، وعندئذ باحت «كلاريس» بالسؤال الذي ظلت تحبسه لثلاثة عشر عاما، وبكلمات بدت عادية:

ـــ"لقد رأيتِ ما حدث، أليس كذلك؟ ذلك اليوم الذي تناثرت فيه بذور السرو التي كنتِ تجمعينها في جميع أنحاء أرض الردهة".

أطرقت «ماريا إنيس».

ـــ"وأعتقد أن أمي كانت تعرف".

ـــ"ولم تفعل أي شيء حيال ذلك".

ـــ"أرسلتني إلى ريو".

ـــ"متأخرا جدا".

ـــ"ربما لم تتمكن من ذلك قبلاً".

تنهدت «ماريا إنيس» وتطلعت حولها. كانت الرياح تهب بنعومة فبدأ العرق يجف عن وجهها.

سألتها: "والآن؟".

ـــ"الآن هو ما ترينه. يثمل طوال الوقت، ولكنه كان قد قرر منذ زمن أن يتركني لحالي. كما أنني اليوم فتاة كبيرة".

ـــ"ولكن الذي فعله".

ـــ"الذي فعله لا يفارقني طوال الوقت، مثل ظلي، مثل مرض أصابني. علاقتي بـ«إلتون خافيير» على ما يرام. الحياة تمضي، ولكنني أشعر أحيانا بأنه قد تأتي لحظة يفيض فيها الكيل كله. والحقيقة أنني احتملت وتحملت كل تلك السنين".

ـــ"«إلتون خافيير»؟".

ـــ"كلا. ليس «إلتون خافيير». بل أبانا. ذكراه لدي مثل الصودا الكاوية، تأكلني".

لا يسع «ماريا إنيس» سوى أن تتخيل. تتخيل فحسب. وليس هذا بالكثير. ومع ذلك، فهناك طيف عريض من المشاعر المشتركة، وبعض الأوجاع التي تعصف بها وحدها، «ماريا إنيس»، مثل عيونها النارية الملتهبة التي تتناقض بشدة مع صفاء عيون «كلاريس». وإذا كان الأمر يتعلق بأسرار، فالحقيقة أن لا أسرار هناك. ومن ينظر بعين محايدة يمكنه أن يعتبرها مجرد شكليات.

ربما كانت تلك الشكليات هي التي قادت «أفونسو أوليمبيو» إلى المحجر في ذلك الصباح. قادت خطواته المتعثرة وأنفاسه المتهدجة عبر التل، وعبر المرعى، وعبر الغابات.

كان قد شاهد «ماريا إنيس» وهي تتخذ المسار المفضي إلى المراعي. خمن نيتها. وللمرة الأولى قرر أن يلحق بها، ربما لأنه يحتاج الآن إلى تغيير مسار الحكاية، حتى لو كان هو نفسه بطلها لسنوات عديدة. ففي الليل يغزو الصمت هذا البيت الميت الحي ويستولي على أذنيه، ويتسلل عبر مسامه، وأفكاره، بألف مخلب، وبمليون سن يعض. صمت مثل غياب عدواني، مثل طرف مبتور. الأسئلة التي من دون إجابات والإجابات على أسئلة غير موجودة. العالم الذي أقامه لنفسه والذي أضحى الآن يلوذ بالوحدة.

لم يكن الصعود في تل كهذا مهمة سهلة بالنسبة لرجل في عمره. ولكنه استدعى كل ما لديه من عواطف وطواها في صدره وذهب إلى المحجر، ربما بقصد طلب العفو، فهو الآن خائف.

عجوز هو. بدا أكبر بسنوات من آخر مرة رأته «ماريا إنيس» فيها، منذ عام فقط. بدا بين الأشجار مثل تهديد خفي، ولكنه لا يشكل أي تهديد.

لم تعد لديه طاقة، مجرد غصن جاف، رجل مستنزف. لا سلاح لديه سوى عبارات متكسرة ينتوي أن يصيغ منها معنى لأول مرة، معنى طالما تجاهله.

رأته بنتاه يقترب فلم تتحركا، تبعتاه بعيونهما.

توقف على بعد بضعة أمتار، عند سفح المحجر، هادئا، لأن الكلمات لم تطاوعه عندما حاول استخلاصها من ذاكرته. لقد كانت حياته حياة طيبة، ولكنها شهدت ذلك الحدث المزلزل في منتصفها. في بعض الأحيان شعر «أفونسو أوليمبيو» بالذنب، ولكنه في بعض الأحيان كان يطرد ذلك الشعور بالذنب عنه ويفرضه على «كلاريس». وعلى «أوتاسيليا» التي بقيت صامتة، وعلى «ماريا إنيس»، الشاهدة.

شعرت «ماريا إنيس» بوخز في جلد مؤخرة عنقها ذات الشعر الخشن، كما لو كانت قطة، وسألت بصوت عال حتى يسمعها من حيث كان: "ما الأمر؟ ما الذي تفعله هنا؟".

ـــ"لا تتحدثي إليه هكذا"، وبختها «كلاريس».

ما بها من تشوهات ليس سوى ما ورثته هي منه بالطبع.

أمام «ماريا إنيس» و«كلاريس»، واقفا بين تلك الصخور كأنه شبح، وشعره الخفيف ملعب للهواء، رأى «أفونسو أوليمبيو» وجه الأشياء التي كان يمكن أن يفعلها، ولكنه لم يفعلها. وكذلك ظلمة الأشياء التي كان ينبغي عليه ألا يفعلها، ولكنه فعلها. رجل فاقد لأفضل ما في نفسه، ذلك الجزء الذي كان من الممكن الآن أن يبقيه مصلوب الظهر.

سألته «ماريا إنيس»: "هل تؤمن بالجحيم يا أبتاه؟".

لاحقا، فعلت «كلاريس» ما اعتادت أن تفعله، ولم تبكِ، ولم تتقيأ، لم تمرض، لم تجن. بل بقيت مستيقظة طوال الليل تتأمل أفكار والدها وكأنها لوحات تجريدية. من يرها يعتقد أن هاتين العينين الشاردتين حزينتان، ولكنهما ليسا كذلك.

الجريمة والعقاب، هكذا فكرت. ولكن هذا لم يكن يستحق أي شيء، لأن الحيوات والأحاسيس التي تقود تلك الحيوات لا يمكن أن تدخل في عملية حسابية.

ما الذي يخبئه القدر لها، لـ«ماريا إنيس»، لوالديها؟ ما اسم ذاك الجحيم الذي يرقب الأرض، في ضوء عقل الإنسان؟ أجساد الفتيات الصغيرات التي تنتهك على يد آبائهن؟ أجساد المعتقلين السياسيين المعذبة؟ الأجساد الصغيرة

للديدان والذباب والبراغيث والعرق في الأطفال الذين يعملون في الحقول من شروق الشمس إلى غروبها؟

يبدو أن الدين يريدها كذلك: كالرياضيات. ربما لا ينطبق كل هذا في الحقيقة على السماء وتصاريفها. فالرؤية اعتقاد ، بل الاعتقاد رؤية.

لذلك السبب، تحملت «كلاريس». لم تبك، ولم تتقيأ، لم تجن. تحملت واحتملت. وكان من الطبيعي أن تنهار ذات يوم. وأتى صوت الانهيار أجوف، تماماً مثل صوت وقع خطواتها ذاك اليوم فوق أرضية منزل مزرعة عائلة «إلتون خافيير».

بدا صوت «ماريا إنيس» الحازم مثل شظية ضربت أعلى المحجر، بينما خرس «أفونسو أوليمبيو». كررت السؤال: "هل تؤمن بوجود الجحيم؟ يمكنك أن تجيب. لا أحد سوانا هنا سيسمع اعترافك. أليس هذا ما أتيت لأجله؟ الاعتراف؟".

ها هي بدأت. كان هذا هو قداسها الأسود، الذي لم تخطط له ولكنها انتظرته فترة طويلة، بعينين ناريتين ملتهبتين شيطانيتين. أرخت «ماريا إنيس» الحبال التي كانت مشدودة داخلها منذ أن كان عمرها تسع سنوات. منذ لحظة اختطفت فيها طفولتها منها بعنف بسبب منظر كان من الممكن، في ظروف أخرى، أن يكون جميلاً. حلمت مرات لا تحصى بأن «كلاريس» لم تكن

هي التي بين ذراعيه تلك الظهيرة، ولكن «أوتاسيليا»، أو أن يكون أي رجل آخر هو الذي مع أختها، أي رجل آخر، وليس والدها.

ـــ"لماذا لا تبتعد عنا وتعود لبيتك تثمل وتتركنا لحالنا؟".

رغب «أفونسو أوليمبيو» في أن يقول كل ما كان يرغب في ألا يقوله، ولكن جهوده ذهبت سدى. تقدم خطوة، خطوتين. جوار «كلاريس»، فتحت الفراشة متعددة الالوان جناحيها وألقت بنفسها نحو الهاوية. يمكنها أن تطير وترى الحقل المحروث في مزرعة «إبيس»، وأن ترى النهر مثل سعفة ذهبية صغيرة.

وجه الأب خاوٍ. ليس به شيء من معنى اسمه: الأب. وامتلأ قلبه خراباً. هو الآن حثالة الحكاية.

سابقاً، وقت أن كان هو السلطة، كان يدير الحكاية بطريقة مكنته من أن يستبدل ابنتيه بعدوتين. شعر «أفونسو أوليمبيو» بنفسه مختنقاً من فرط الخواء، وخيل له أنه يغرق.

على أن تلك المواجهة لم تكن تلك المواجهة الكلاسيكية المعتادة: الإقرار بالذنب – الندم – التكفير.

لا شيء له اسم، ولا شيء له تعريف. في الحقيقة لا شيء تغير، ولا شيء سيتغير، بل تبدلت الألوان فحسب، مثل أوراق الشجر التي تتعاقب عليها الفصول.

بدأ «أفونسو أوليمبيو» يتسلق المحجر. وجد الأمر صعبا، صعبا للغاية، ليس فقط لأن تقدمه في العمر قد أنهك عظامه وعضلاته وقدرة احتماله، ولكن كذلك لأنه كان يشرب طوال الصباح وطوال ليلة استحوذ عليه فيها الأرق. كان هشاً، وهناك هالات أرجوانية عميقة تحت عينيه. وبخلاف ذلك، كان ببساطة مجرد رجل نبيل

لطيف يستثير الشفقة عاش حياته كما ينبغي أن يكون ـ تقريبا - فيما عدا هذا الاستثناء الصغير، بطبيعة الحال، ذلك الحجر في وسط الطريق.

تقدمت «كلاريس». المنصاعة، المطيعة، المهذبة. وكأنها حركة غريزية قسرية. أدركت «ماريا إنيس» أنها كانت ستقدم على مساعدته.

الطاعة، مجدداً.

ــ"دعيه لحاله".

ــ"ولكن، «ماريا إنيس»، إنه...".

ــ"دعيه".

يعتمل شيء ما في نفس «أفونسو أوليمبيو». يبوح جسده بعرق لزج بارد، إنه الخوف. أوقفت «ماريا إنيس» أختها بيدها. كانت «كلاريس» ترتجف.

استمر يصعد، وهو يتعلق بالصخور الكبيرة بيديه، وقد تقطعت أنفاسه.

ما الذي يريده بحق الجحيم، فكرت «ماريا إنيس»، ولم تجد جواباً شافياً.

ما الذي يريده بحق الجحيم.

وبعد دقائق بدت ساعات، وصل إلى الأعلى ونظر إلى ابنتيه ماداً يده نحوهما.

أبداً. جذبت «ماريا إنيس» «كلاريس» من خصرها وأبعدتها بلطف.

ترك «أفونسو أوليمبيو» ذراعه مفرودة في الهواء. عندها اتجهت «ماريا إنيس» نحوه: "كان علي أن أبعدها منذ البداية، ولكني كنت صغيرة آنذاك. والآن سترى أنني قد صرت كبيرة وقوية، أبي".

اندهشت هي نفسها من كلامها، وأكثر من تلفظها بكلمة "أبي"، وكانت الكلمة آخر ما قالته له وآخر ما سمعه هو. ثم دفعته بكل هدوء.

أصدرت «كلاريس» صوت خافت، بالكاد مسموع، ثم اتجهت بوجهها نحو السماء ورأت الفراشة ذات الألوان. التحليقات الممكنة. بقى المنظر ملتصقا بعينيها الجافتين، تماما كما التصق من قبل مني أبيها بفخذيها لدرجة أنها اضطرت إلى أن تستخدم خرقة حتى تتخلص منه تماما.

الفراشة فوق المحجر، فوق الهاوية.

وصرخة مجهضة في حلقها.

و يد «ماريا إنيس» التي قبضت بقوة على يسرى «كلاريس» مجبرة إياها على الوقوف.

على النجاة.

فيما بعد، قادتها «ماريا إنيس» برشاقة عبر الصخور، وهي تسندها، وتبتعد بها عن ذكراه. تحميها. كانت عينا «ماريا إنيس» باردة، ولم تستحل من بعدها أبداً نارية ملتهبة.

طنين الصمت في أذن «كلاريس»، ولكنها لم تنظر وراءها، لم تشعر حتى بألم والدها، وهو يهوي من علٍ حتى تحطم جسده في السفح، مخيفاً الطيور

والحشرات والأشباح، على الجانب الآخر، حيث اللا شيء، حيث تجول الأشباح في منزل مزرعة «إبيس»، وقواقع مستديرة تخدش ببطء شديد الجدران النائمة وتنمو نباتات نضرة على السطح. تبعتها فحسب، رغماً عنها، من دون عقل، كما لو كانت ظلالا لجسدها. كما لو كانت، في تلك اللحظة على الأقل، فراشة صغيرة قادرة على أن تحوم لتطير فوق العالم، فوق الحياة، فوق الموت.

لا مجال خلال هذا المشهد لموسيقى تصويرية، أو حتى لأي صوت كان. فقد مر المشهد سريعا، يد «ماريا إنيس» على صدره، تدفع جسده. بل ربما كانت عيناه تبوحان بأن هذا ما كان يتوق إليه.

ليست هي الشفقة تحديدا، تلك التي شعرت بها «كلاريس»، ولكنه نوع من الانفصال، وكأنها تتفرج على فيلم. تركت «ماريا إنيس» تقودها، إلى أسفل التل، وعبر الغابة، وعبر الحقل، حيث تجتر الماشية طعامها، وينتظرهما القراد.

الفصل الرابع عشر
الباب المفتوح

تبدو الأمور أقل فداحةً حينما تمعن النظر فيها عن قرب، فتفقد تلك القداسة التي نغلفها بها، وتصبح عادية، لا شية فيها. وتتبدد المسافة بينها وبين الفكرة التي نصيغها حولها.

لم يكن «توماس» يعرف إلى أين سيفضي به ذلك الباب مفتوح، لكن كان لديه إيمان ثابت بالإرادة الحرة ، مثل صنعة مكتسبة، عضلات مدربة. وعلى هذا النحو لم يكن خائفا. كان يعرف خطاه، وشق مساراته، بنفس الطريقة التي يتخير بها ملحن موسيقى "أوتار معينةللحن بعينه، والآلات الأقدر على تنفيذ تلك " الأوتار"، وموسيقيين للعزف على تلك الآلات. إنه أدرى بأبعاده.

هكذا، توجه إلى المنزل ووجد الأختين في الشرفة الأمامية، وقد أكسب الشفق ملامحهما نعومة كما أضفى على المكان صبغة حالمة. كان هذا هو أقصر يوم في التاريخ، أعقب بجنون ليلة غريبة غير مفهومة. ولم يدرك «توماس» السبب.

وقفت «ماريا إنيس» تحييه: "ها قد انتهى بنا المطاف معاً وهنا".

أمر لطيف.

ـــ"موقف غير متوقع تماما". كان ينظر إليها ويتذكر رغماً عنه حلي "الهيبيز" التي اعتادت أن ترتديها منذ عشرين عاماً.

ـــ"ربما ليس إلى هذا الحد".

عنقها الآن عارٍ، جاد. شعر «توماس» بانقباضة في صدرها. ثم سرعان ما تبددت تلك الانقباضة بعض الشيء.

ردت «كلاريس» تحية «توماس» وبقيت ساكتة تتأمل.

يصب كل شيء في ذلك المكان في تلك اللحظة. كل السنوات المعاشة، وكل ما كان بها من عيوب، وكل ما لديهم من فائض خواطر، كل الأخطار، كل الوعود، كل الحب الذي نضج في لامبالاة، وكل بناء بقي خاليا من الزخارف.

شاهدت «ماريا إنيس» عينا «توماس» الشفافتين اللتين بدتا مثل معجزة أضاءت المساء، وكذلك رأتهما «كلاريس»، فقد كانتا تلمعان. منارتان.. يراعتان.. نجمتان. قالت «ماريا إنيس»: "لقد ذهبت «إدواردا» لتأخذ غفوة سريعة. لقد استيقظنا مبكرا اليوم للسفر".

نهضت «كلاريس» ببطء شديد: "سأدخل لأعتني ببعض الأمور، وأتصور أنكما تودان التحدث على انفراد. بعد كل هذه السنين".

نظرت نحوهما ثم عبرت العتبة ودخلت المنزل حيث كان الليل يرخي سدوله بسرعة تزداد. وبالداخل لم يكن هناك منارات ولا يراعات، ولكن عينان شفافتان لفتاة اسمها «إدواردا»، مغلقتان وغارقتان في نوم عميق.

بحثت «كلاريس» عن شيء يشغلها؛ تشرب كوب ماء، تلقي نظرة خاطفة على الطعام الذي تركته «فاطمة»، بتلطف منها، مُعَداً لعشائهن. غسلت وجهها، الذي أكسبته حرارة الجو طبقة زيتية، ويديها. تنظر إلى نفسها في المرآة وتتصالح مع فكرة أنها عاشت حياةً خلفت فيها الكثير من العلامات والقليل من البذور.

خرجت من الباب الخلفي ومشت نحو الحظيرة وزارت بعض منحوتاتها القديمة التي بقيت هناك، في الكابينة، التي بدت مثل متحف. ثم أغلقت الكابينة، وتركتهما ينتظرانها هناك، حتى لحظة مناسبة.

حبست نفسيتها بزاوية في روحها، مثل متحف.

تنتظر.

حتى يهيمن الليل، ثم ينحسر، ثم يعاود هيمنته من جديد. أهناك ما لم يتم اكتشافه بعد؟ أهناك أي تجلٍّ؟ لم تعد «كلاريس» تهتم. كانت ببساطة تمارس فعل الانتظار نفسه، وتصنع التماثيل لأن في الحقيقة لا فارق إن صنعتها أم لم تصنعها، وهو أمر لم يعد جديداً بالنسبة لها.

لكنها تتخيل، بفضول طفلة وليدة، ما قد يقوله «توماس» و«ماريا إنيس» لبعضهما: ربما يتحدثان عن تفاهات، مثل العمل، العمر، المظهر، الرحلات، الطقس. ربما كانا ساكتين محاصرين في هذه الغرابة. إن كانا يتبادلان مجاملات لتكون مقدمات ، مقدمات لماذا؟ لإغواء صريح؟ إن كانا يفكران في العودة سرا بالزمان إلى عشرين عاما مضت (الزمن يتوقف، أما المخلوقات فلا) ويحكيان لبعضهما قصة ذلك اليوم الذي التقيا فيه، ومارسا الحب للمرة الأخيرة.

ذاك اليوم الذي أقنعت فيه «ماريا إنيس» ابنتها«إدواردا» ذات العينين الشفافتين التي كانت نائمة وينتابها حلم على خلفية تلك الأغنية : هل أوحشتك، يا ملكة البؤس، كما تزعمين؟

طار خفاش بالقرب من «كلاريس»، بقعة سوداء سريعة على خلفية سماء معتمة، ثم تلاه آخر، وآخر .. أم هو نفس الخفاش، يكرر نفسه؟ رفعت عينيها

ولاحظت أن النجوم بدأت تظهر في السماء. تلك دوماً لحظة خاصة. استندت إلى باب الحظيرة وتأملت النجوم وهي تتكاثر ببطء. ببطء شديد.

لما عادت لم تجد «ماريا إنيس» ولا «توماس». كانت «إدواردا» وحدها في غرفة المعيشة، وشعرها مبتل من حمام أخذته للتو وعطر الخزامى يعبق الهواء.

ـــ"ظننت أن أمي معك".

ـــ"لا. هي مع «توماس»".

أومأت «إدواردا» برأسها: "لقد جاءت إلى المزرعة حتى تراه، وكذلك تلتقيك".

ـــ"أجل".

ـــ"إلى أين ذهبا؟".

ـــ"لا أدري".

ـــ"هل سنتناول العشاء أم ننتظرها؟".

ـــ"كما يحلو لك".

ـــ"لننتظر قليلاً. هل لديك مانع؟".

ـــ"كلا بالتأكيد".

مضى وقت طويل قبل أن تعود «ماريا إنيس». كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. لم تقل أي شيء، ولم تعتذر عن تأخرها على العشاء، بل ذهبت إلى المطبخ لتسخين طعام في مقلاة، فلم يكن هناك فرن ميكروويف. لحقت

«كلاريس» بها من دون أن تسأل (لن تسأل «كلاريس» أبدا عن تلك الليلة)، في حين بقيت «إدواردا» في غرفة المعيشة مع غيتارها. تتلاعب بالأوتار وتغني : *هل أوحشتك، يا ملكة البؤس، كما تزعمين؟* بصوتها الضعيف.

المحجر نائم، وكذلك الفراشة ذات الألوان.

لكن هناك شخصًا يعاني من أرق، ليس بعيدا عن هناك ، رجلاً بعينين شفافتين متسعتين، يتظاهر بحراسة الليل بأفكاره.

استخدم ذلك الممشى الصغير مرات عديدة، حتى إن بوسع «كلاريس» أن تسير فيه معصوبة العينين. منذ أمد بعيد، منذ طفولتها. وحتى بعد أن تغير كل شيء، بقي هذا الممشى على حاله. بلا زيادة أو نقصان، فقد حفظ سلامة أرضه بكل أمانة. ترابه يمر بمراحل: ففي موسم الأمطار تظهر فيه أخاديد وبرك صغيرة، تتجمع حولها عشرات الفراشات. وفي موسم الجفاف يتصلب ويتقشر. ودوماً ما تجد عليه روث الخيل، وفي بعض الأحيان روث الماعز كذلك. ولكنه دوماً نفس التراب، ونفس الممشى.

الممشى في الساعات الأولى من الصباح أكثر جمالا، أكثر هدوءا، حتى تخاله ممشى على سطح القمر، يعكس حصاه نوراً حليبياً سريالياً. وإلى الجانب، في المرعى، وراء سياج الأسلاك الشائكة، تنام الماشية. ينام كل شيء تقريبا. وتمشي

«كلاريس» على طول هذا الممشى الصغير الذي يفضي إلى منزل عامل الزراعة العجوز. لكنها لم تكن في عجلة من أمرها.

بقيت «ماريا إنيس» و«إدواردا» في المنزل، في غرفتيهما، في صمت. سواءً كانتا نائمتين أم صاحيتين. كانت «كلاريس» قد جلست مع «ماريا إنيس» على المائدة، وابتسمت حينما عرفت معنى أن تعود إلى منزلها بعد كل شيء. وأعلن بندول الساعة حلول منتصف الليل: اثنتي عشرة دقة، ولم تظهر شياطين صفراء، ولم تضطر سندريلا إلى الفرار على عجل. ودقت الساعة الواحدة. وعندما نام المنزل، خرجت «كلاريس» في عتمة الليل لتبحث عن باب مفتوح، وتجده.

المنزل مضاء. منزل المزارعِ العجوز مضاء، والباب المفتوح مثل منارة في وسط الظلام. في وسط العالم.

توقفت «كلاريس» عند عتبة الباب، فوق السجادة المصنوعة من بقايا القماش: "عرفت أنك لن تكون نائماً الآن".

قال لها «توماس»: "أشك في أنني سأنام من الأصل".

ــ"أتخيل هذا".

ــ"ادخلي. لنعد بعض الشاي. لدي هنا علبة أحضرها لي «كانديدو» من إحدى رحلاته. أتودين شرب الشاي؟".

ــ"أحب هذا".

دلفا إلى المطبخ، وملأت «كلاريس» إبريق الشاي الألمنيوم بالماء. "تقول «ماريا إنيس» إن الأفضل للناس استخدام أوعية من الفولاذ الذي لا يصدأ، أو

من الحديد الزهر أو الخزف. لأن الألومنيوم يمكن أن يصيب المرء بالخرف، الزهايمر، بعد سنوات عديدة من الاستخدام. يتراكم في المخ، أو شيء من هذا القبيل، هل سمعت عن هذا من قبل؟".

ـــ"كلا، ولكني سأبقى استخدم أواني الألمونيوم".

جلب علبة الشاي ذات اللون البيج، ماركة إيرل غراي. يعجز من دون نظارته عن قراءة الحروف الصغيرة لعبارة: "صنع بأمر من صاحبة الجلالة الملكة اليزابيث الثانية"، "آر توييننغ وشركاه المحدودة لتجارة الشاي والقهوة - لندن". وضع الماء ليغلي. لا يمتلك «توماس» أي أدوات خاصة لصنع الشاي، وهكذا وضعا ملعقتي إيرل غراي في إبريق وبعدها صبا الشاي عبر مصفاة.

شاي إنجليزي. بالصدفة.

بقيا صامتين لفترة، وهما جالسان على أرض الشرفة. كان الجو حاراً حتى في تلك الساعة، حتى في هذا المكان. ثم رد «توماس» على السؤال الذي لم تسأله «كلاريس».

ـــ"كانت هنا، كما تعرفين. ولكن الأمر لم يكن كما تخيلت أنه سيكون".

ـــ"نحن بأنفسنا مسؤولون عن الدور الذي يلعبه الناس في حياتنا. والناس تتغير، على الرغم من أن كل ما يعنونه بالنسبة لنا لا يتغير أبداً. مثل أن نتذكر مدينة كنا نعرفها منذ سنوات عديدة، بينما هي لم تعد موجودة، فقد دمرتها حرب أو اكتسحها زلزال. وليس هناك من سبيل للعودة إلى تلك الذكرى، وإدماجها في الحاضر".

استمرت «كلاريس» تقلب الشاي بالملعقة: "لم أكن مرتاحة لفكرة أنها قادمة".

ـــ"ولا أنا. ولكن هذا خطأنا، فنحن نحملها ما لا طاقة لها به من مسؤولية".

ـــ"وماذا عن «إدواردا»؟".

ـــ"كان من اللازم أن ألتقيها قبل أن تكون في هذا العمر، ولكن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تسير وفق سيناريو مرسوم".

نظرا نحو التل الذي صبغه الليل بالسواد. وأدرك «توماس» أنه خائف.. خائف من حظوة «ماريا إنيس»، مثل سكير ظل بعيداً عن الشراب لسنوات، وفجأة وجد نفسه وسط حفل وأمامه كأس من الويسكي. فهو خائف من نفسه ومن شغفه.

وإن كان هذا الشغف لا يزال جزءاً منه، من ذاته، من حياته، فإن محور هذا الشغف قد أضحى شيئاً من الماضي. إنه الآن يتخلى عن «ماريا إنيس» للمرة الثانية.

بعد عقود من أول هجران.

تطلع في وجه «كلاريس»، الذي يعكس الضوء القادم من غرفة المعيشة، وجه مثل منارة في منتصف الليل. وسأل: "هل تتذكرين كم سنة عشتُ هنا؟".

ـــ"كلا".

ـــ"ولا أنا. أعجز عن التذكر".

وضع «توماس» يده بهدوء على كتف «كلاريس»، وعلى ثوبها الأزرق الداكن ذي الزهور الزرقاء الخفيفة. لم تبتسم. ونعقت بومة على مقربة منهما. وتحت ملابسها، كان جسد «كلاريس» قارة جديدة كلياً. انتظر «توماس» ولاحظ تلك

اللانهائية الصغيرة التي شكلها امتداد ذراعها وهي تتحرك لتلامس ذراعه، وظهره لم يعد نحيلا جدا كما كان في الماضي، وقت أن كان في العشرين من عمره. ثم اقتربت وأراحت جبينها على وجهه.

لا وجود لذلك النسيان العميق. أدركت «كلاريس» ذلك. فهي لم تتمكن أبداً من القبض عليه في منحوتة، لتحبسه لنفسها. كما لا وجود لما يسمى الذكرى الحميدة، أو الجرح الذي اكتوي، وحش من دون مخالب وأسنان، موجود فحسب، المصالحة مع الماضي بكل ما يحمله. مدينة موجودة في ذاكرة «كلاريس»، مدينة دمرتها حرب أو اكتسحها زلزال. الآن، هناك مبان جديدة بعدما رفع الحطام ودفن الأموات . ولكن، هل يمكن الرجوع إلى تلك الذكريات وإدماجها في الحاضر؟

لم تعرف شفتاه ولا شفتاها من أين البداية، ولكنها بدأت. شفاه، فمان، مذاق، كلمات، أنفاس. هي بداية كل شيء. بينما حامت فراشات النور وحشرات أخرى في دوائر عشوائية حول المصباح العاري، بغرفة المعيشة.

تشعر «كلاريس» الآن بأنفاسه على مؤخرة عنقها، نفس متعجل كثيف، ولكنه صبور في ذات الوقت. هي الآن تحيط رأسه بيديها، كما لو كان منحوتة، وتداعب أصابعها بهدوء شعره الذي دب فيه الشيب. بهدوء. وتساعد شفتيه على العثور على الطريق نحو ذقنها.. نحو نحرها.. نحو حدود تخوم صدرها. الآن يحمل «توماس» (برقة شديدة) نهديها بين يديه، كما لو كانا منحوتة.

تفك أزرار قميصه لتكشف عن صدره النحيف ، لم يكن على نحافة الماضي، عندما كان في العشرين. الآن ستقبله هناك، حيث تشعر شفتاها بنبضات قلبه، سريعة، متسارعة. والآن يفك هو أزرار ملابسها، ويعد الأزرار: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ثم تصل يداه إلى ظهرها فتجد حمالة صدرها. الآن تنظر هي إلى السماء الهائلة والجبال. ويتلمس نسيم الليل الساكن صدرها العاري حيث ستسكن شفتاه هناك، حيث لم تكن تنتظرهما هناك، حيث لم تكن تتوقعهما هناك.

الآن تجد يدها سطح سرواله، فخذيه. تداعب شعره الأشيب مجدداً، ويكتشف هو ذلك الوادي أسفل صدرها. تجبره الآن على أن يقف ويخلعه عنه سرواله الجينز.

يحملها ليضعها فوق أريكة الشرفة، على حافتها. إنه لا يحمل قاعدة تمثال، بل امرأة. يدفن وجهه في نحرها، في شعرها، ويلمح في تلك اللحظة حلمة أذنها اليسرى، خالية من لمعان أي قرط.

ليس هناك ما هو سهل. على الإطلاق. ومع ذلك، وإن كان صحيحا أن الزمن قد يتوقف (ووحدها المخلوقات تمر)، فإن كل شيء ذي بال يبزغ في اللحظة الراهنة. ليس بنية أن يزدهر أو يؤتي ثماره، ولكنه يبزغ فحسب. أن يكون بذرة. وهكذا ليست "الآن" سوى مرادف لتلك الكلمة التي نقصدها: "دائما".

الفصل الأخير
روح العالم

إنه زمن الحرب في أوروبا. في إيطاليا. ينوي «جواو ميغيل» أن يعرج إلى كورتينا دي أمبيتسو لممارسة التزلج، وربما يقرر التوقف في فينيسيا مرة أخرى ليلتقي «باولو» الوسيم، الذي لم يعد الآن شابا، ولكنه أكثر وسامة. ولكن لا: «ماريا إنيس» لا تعلم، ولا سبيل لها لأن تعرف أن «باولو» الذي كان شاباً يعيش الآن في روما. يمارس عملاً جاداً. ربما هو محام ويعيش في شقة جميلة ولديه أسرة ، زوجة تستخدم كريمات لانكوم للعناية بالبشرة.

لم تنم «ماريا إنيس» سوى قليل خلال الليل، ووجدت وقتاً للتفكير في الشتاء الإيطالي، وأن تتذكر مجدداً مقهى فلوريان، وأن تنساه مجددا. وأن تتذكر زمن أن كانت لوحة «ويزلر»، وزمن أن كانت تعيش مع العمة «بيرينيسي»، وأن تتذكر يوم أن توفيت العمة لأسباب طبيعية. بعد عام على فينيسيا ومقهى فلوريان، و«باولو» الوسيم الذي كان لا يزال شاباً.

وجدت وقتاً لتتذكر المصحة التي استسلمت لها «كلاريس» أخيراً، (لامتصاص سموم الجسد...واو!)، بعد عام من تقطيعها شرايين رسغيها ومن عدة محاولات يائسة للإقلاع عن المخدرات . فهي حتى وبعد حادثة الرسغين (وجدها الرجل الذي كان يعيش معها في الوقت المناسب)، استمرت في تعاطي المخدرات، إلا أن شيئاً ما تغير فيها، شيء عميق، أعمق من أن تصله السكين، ورحلت عن ذلك الرجل وبقية الرجال المحتملين ورحلت عن المدينة أيضاً، وغيرها من المدن المحتملة، إلا أنها لم ترحل عن المخدرات.

مثل زواج لم يعد فيه حب أو جنس أو احترام أو حتى صداقة، ولكنه يجدد ما يبرره في خاتمي زواج ولقب مشترك يجمع بين الزوجين. كل هذا سيختفي من حياة «كلاريس» لشهر، ولكنه سيعود. وهي بنفسها اتخذت قرارها واختارت المصحة التي يعج مدخلها بمنحوتات سيئة الذوق؛ من ذلك النوع الذي يصنع بالكميات ويباع على قارعة الطريق. ففي ركن ينتصب تمثال لبياض الثلج وأقزامها السبعة، وعلى مقربة منها تمثال غير مريح لحيوان متخشب، وأبعد قليلا، ضفدع عملاق، وكأنه قذى في العين. على أنها وجدت عدداً من النباتات جميلة المنظر. وعادة ما يكون المناخ الجبلي حنوناً على النباتات. بل لقد وجدت الهيدرانغياس في وسط رقع مزهرة يعتني بها النزلاء أنفسهم. وذات ظهيرة، ذهبت «ماريا إنيس» إلى المصحة لتزور أختها، ووجدت «كلاريس» جالسة في الطرف القصي من دكة خشبية مطلية حديثاً. الجو بارد فالتحفت ببطانية صوف. تشرب الشاي، شاي بالليمون أعدته الممرضة وقدمته لها في كوب بلاستيكي كذلك الذي يستخدمونه في حفلات الأطفال. رفعت «كلاريس» وجهها ونظرت تجاه الجبال، ورحبت بأختها وسألتها عن ابنتها، وعما إذا كانت ستأتي لزيارتها في المزرعة حينما تغادر المصحة. كانت جراح المعصمين تتعافى، وبدتا مثل جزء من تشريح ذاك الجلد، وشعرت «كلاريس» أخيراً أن بوسعها أن تتبع درباً ما، طريقا ما. وأدركت أخيراً أنها قد نجت بنفسها.

إنه الشتاء في كورتينا دي أمبيتسو، والصيف في المزرعة، حيث ترقد «ماريا إنيس» في فراش غرفة الضيوف وتشاهد، عبر النافذة المزججة الزرقاء، الصباح

وهو يبعث من جديد شيئا فشيئا. Fiat lux. كان الوقت باكراً حينما نهضت من الفراش وفتحت النافذة وقامت بما اعتادت القيام به وهي طفلة، فخرجت إلى باحة المنزل متجاهلة المسار المعتاد بين الأبواب والغرف. وجدت شيئاً تقف عليه، واستندت إلى إفريز النافذة وصعدت. جلست على إفريز النافذة وأخذت تمرجح ساقيها قبل أن تقفز إلى الرصيف الأسمنتي الضيق، الذي تصدع الآن في عديد من الأماكن.

خلال الليل تمكنت «ماريا إنيس» من أن تصفي الحساب مع نفسها، وهي تنصت إلى بندول الساعة في غرفة المعيشة وهو يعلن عن كل ساعة حينما تحل. تكاد تكون متيقنة من أنها لن تحلم بـ«برناردو أغواس» ثانيةً ، زميلها في الجامعة الذي قرر بعد انتهاء الدراسة أن يتخلى عن مهنة الطب ويلقي بها تحت أقدام حلم آخر عالمي، أن يكون مغنياً (*Si ch'io vorrei morire*)، والذي اتصل بها ذات مرة ليعرفها بأخباره وانتهى الأمر بأن صار عشيقها ، بعد الخواتم الزمردية، وبعد فينيسيا، وبعد «توماس»، ذلك العشيق الذي حولها إلى مجرد رقم ، نقطة ملونة فوق خارطة العالم، ملاذها الزائف، أكبر انجازاتها.

تسير «ماريا إنيس» الآن حافية القدمين. ببطء شديد. تشعر بحضور لطيف: روح العالم. *Anima mundi*. تمشي فوق حمام السباحة الأسمنتي الفارغ، حيث نمت بقاعه الحشائش. كانت تسبح فيها في الأيام الخوالي، وقت أن كانت طفلة تحتاج إلى ست أو سبع دفعات حتى تعبر إلى الجانب الآخر منه. وفيه تعلمت أن تفتح عينيها في الماء وأن تغوص من دون حاجة إلى أن تغلق أنفها بإصبعيها. وأن تتشقلب تحت الماء ، للأمام، والأكثر صعوبة للخلف.

تنظر في قاع حمام السباحة وإلى ورق اللبلاب الذي نمى كمستقبل ملموس، وكمستقبل غير ملموس أيضاً.

أكون أو كنت؟ جزء من «ماريا إنيس» ليس سوى محض ذكريات، ذكريات حية في جسدها وتشع عبر حواسها الست، ذكريات كمنت في الألياف العضلية لجسدها.

غير أن الرحلة لم تحمل لها أية مفاجآت، هذا لأن المفاجآت تتكشف خلال الرحلة، مثل ورق اللبلاب. أختها وحبيبها القديم اللذان يمشيان في ضوء النهار في تلك المزرعة التي هي جزء من ماضيها، مثل شبحين لا يدركان أنهما شبحان.

لكن لا شيء راسخ مثل الحقيقة. حتى لو تجسدت خيالات ألف ليلة وليلة. فالحياة حسبة مهما قيل ، عملياتها تسخر من المنطق وأرقامها تغيظك بنتائجها غير المحسوبة.

حساب: أُخيل والسلحفاة. تتذكر معجزة السمكة. ثم تتعب من المجازات والتشبيهات وتتذكر ابن عم على حافة بحيرة مياهها عسلية اللون، حيث نقيق الضفادع في كل مكان، ومجموعة من البط تتجمع عند الشفة. يعاسيب تطن فوق سطح الماء وشدو الطيور الليلية يمتزج مع شدو طيور النهار التي في طريقها لوردية ليل. عمل إضافي.

تعرف «ماريا إنيس» أن «كلاريس» كانت متغيبة أغلب الليل. ولم يصعب عليها تخمين أين كانت ومع من. ولكنها تتصور أن التوقعات غير ممكنة. كما أن لا توقعات بالنسبة لها هي، «ماريا إنيس»، أيضاً. والحقيقة أن لا حاجة هناك إلى حساب أعوام مضت وأعوام تالية. لا شيء جديد.

لا شيء جديد. رغم أن كل شيء جديد. Fiat lux.

سارت في الممشى الذي يدور حول حمام السباحة ومرت على نباتات الشايوتي. كانت «كلاريس» تزرعها، ونباتات الطماطم الصغيرة تلك، التي تؤكل في قضمة واحدة وتنفجر احتفالا مع كل قضمة. ثم رأت أشجار أفيكاليبتوس التي كانت مزدهرة منذ عقدين أو ثلاثة عقود، نبات صغير ينمو نبات هرم يموتز فوق التل العاري، جذع شجرة مسود هو المتبقي من شجرة إبا هائلة.

تستمر «ماريا إنيس» في تتبع المسار الذي سيفضي بها إلى الطريق الرئيسية. ليس لها من مقصد معين، بل هي تمشي وحسب، تجر خطاها، خطوة خطوة. ستعود للمنزل فيما بعد ، للإفطار وغيره. ولكنها في هذه اللحظة لا تنظر وراءها، وبينما هي تمشي تشعر بحرارة الشمس الصاحية على ظهرها، بينما يطفو الصباح مبتعداً عن الطريق مثل الغبار.

كل شيء هادئ، أو يكاد يكون، بينما يتظاهر رجل، بعينين شفافتين واسعتين، بمراقبة الطريق بأفكاره. كان «توماس» قد حسم قراره بالفعل.

ولكنه ينتظر، فالوقت مبكر وهو لا يزال متمسكًا بعادة الشباب أن يستيقظوا ظهراً. إنه يتذكر شبابه. حينما كان في العشرين وكان صباحه يحل ظهراً.

ينتظر. يشعل سيجارة، ويدخن. يحيي «جورجينا»، الطباخة، بإيماءة رأس حينما أتت لتعمل، ويستمع إلى الدجاج الغيني وهو يكرر نقيقه، ويلحظ الكلب وهو يهرش جسده بمخالبه. ثم يذهب ليلتقي «إدواردا»، ابنته.

قالت «ماريا إنيس»: "أراهن أننا قد التهمنا أطناناً من دود الجوافة"، وحدقت بتحدٍ في أختها.

ـــ"أتتخيلين هذا، «كلاريس»، حشرة برأسها وذيلها وكل شيء. دودة!".

ـــ"توقفي، «ماريا إنيس»! توقفي بحق القديس!".

سكتت «ماريا إنيس» وأخذت قضمة أخرى من الجوافة وأخذت تنظر إلى بعيد، إلى رجل فوق حصان يمر على الطريق مرتدياً قبعة من القش. أمهما في المنزل تطرز الثياب، وأبوها ذهب إلى القرية ليبتاع دواء.

كانا هكذا وببساطة، وقتذاك: الأم، والأب.. أصدقاء مفترضين.

ـــ"ما الذي حدث لساقك؟"، سألتها «كلاريس» وهي تشير إلى جرح في فخذ «ماريا إنيس» النحيلة.

ـــ"لقد جرحتها أمس. سقطت عن الأرجوحة".

ـــ"الأرجوحة مرتفعة جداً".

ـــ"أنا أحبها".

ـــ"لكنك ستسقطين وتؤذين نفسك".

ـــ"لا بأس. لا يهمني".

ثم سكتت البنتان وأخذتا تتأملان العالم من فوق شجرة الجوافة بفرح، ودون خوف. لم تكونا تعرفان الخوف بعد، ولم تكن هناك وحوش بعد، تلهث في ظلال بيتهما: وحده المستقبل ، الذي يلتمع بالآمال تماما كلمعة عيونهما في تلك اللحظة. فكرت «كلاريس» أن تصنع منحوتة لأجل «ماريا إنيس» تقدمها لها في الكريسماس. بينما تساءلت «ماريا إنيس» عما إذا كانت حفنة من بذور

السرو ستكون هدية مناسبة لشقيقتها، أم أنها قد كبرت على تلك الأشياء ، فـ«كلاريس» في الحادية عشرة الآن. حينئذ خطر على قلبها خاطر، فاقتربت بخفة من أختها وأحاطتها بذراعها. تحرك الظل، وابتسمت «ماريا إنيس» مجدداً، وقالت بعفوية: "أحبك".

نظرتا إلى الجبال وحاولتا سبر أغوار ما يكمن فيها. نظرتا إلى المستقبل وحاولتا سبر أغوار ما قد يحمله ، وما يخفيه عنهما في الانتظار. مثل دود في ثمرة جوافة أو مثل هدايا الكريسماس. تذاكر للأوبرا، أو ربما رسائل حب؟ كعوب عالية وأحمر شفاه، وأظافر طويلة؟ وضعت «كلاريس» ذراعها على كتف «ماريا إنيس»، وتخيلت كيف يكون مشهد لقائهما، حينما يكبران. في ريو دي جانيرو، أو في باريس. باليرينا مشهورة ونحاتة ذائعة الصيت. كل منهما تحمل صور أطفالها في محفظتها، بملابس زاهية ويفوح منهما العطر. تخيلت بشغف كيف ستتذكران معاً يوم أن كانتا فوق الشجرة تأكلان الجوافة، و«ماريا إنيس» تقول: " أراهن أننا قد التهمنا أطناناً من دود الجوافة".

كانت «كلاريس» سعيدة. فقد رأت غداً مشرقاً، مشرقاً للغاية. تعلم أنها محقة. فابتسمت في وجه «ماريا إنيس» وقالت: "هيا بنا، لقد وعدتنا «لينا» أن تأتي لتلعب معنا بعد الغداء. هيا".

هكذا...هبطت الفتاتان من فوق شجرة الجوافة في قفزة واحدة، مسرعتين نحو المنزل.

"في الثامنة والأربعون، ندبات على معصميها. تركت «كلاريس» عينيها تمسحان الأرض التي كانت ملكاً لأبيها ، «أفونسو أوليمبيو» والتي لم يتبق منها الكثير ، باعتها من دون ندم، ولم تحتفظ سوى بالمساحة المعزولة ذات البنايات، حيث تعيش. رأت بيت المزرعة القديم، حيث «توماس»، حب أختها القديم، والذي يقضي أيامه الآن في رسم لوحات خاوية من الطموح؛ مناظر طبيعية فارغة من أي حياة، طبيعة صامتة.. يبدو أن «توماس» يسعى وراء الابتذال بنفس الإصرار الذي سعى به منذ عقود وراء تحقيق موهبة فائقة كان مقدرًا للبشرية أن تعرفها وتعترف بها. هجر كل هذا لأجل أن يجتاز محنة خسارة امرأة. سلبت منه كل شيء."



الكاتبة

ولدت "أدريانا ليسبوا" في "ريو دي جانيرو" سنة 1970، حصلت على شهادتها في الأدب والموسيقى. نُشر لها عشر كتب، تم ترجمتهم ونشرهم في 30 دولة حول العالم. منهم 6 روايات (هانوي -2013 الغراب الأزرق -2010 كوخ فواكه الكاكي الساقطة 2007 - قبلة كولومبية -2003 السيمفونية البيضاء 2001-خيوط الذاكرة 1999).

اعتبرت "ليسبوا" أهم الكتاب البرازيلين المعاصرين بعد صدور روايتها "السيمفونية البيضاء" التي حازت على جائزة "خوسيه ساراماجو" للأدب، كما تم اختيارها ضمن أفضل 39 كاتباً لاتينياً معاصراً أتمت سن التاسعة والثلاثون عام 2007.

ISBN 978-977-319-174-0
9 789773 191740 >

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg